أباطرة التاريخ

كيف سقطوا.................؟

الجزء الاول

بكر محمد ابراهيم

مركز الراية للنشر والاعلام



مركز الراية للنشر والاعلام

أسسة احمد فكرى عام ١٩٩٣

٣٠ميدان الحسين – السوق التجارى-مكتبة فكرى – تليفون ٥٩٣٦٢١٩

اسم الكتاب /اباطرة التاريخ ..كيف سقطوا؟
الجزء الاول

اسم المؤلف / ياسر حسين

تصميم الغلاف / EVENT ADVERTISING

م . محمد لبيب / ٠١٠١٥٠٧٢٧٠

الطبعة الاولى / يونيو ٢٠٠٣

رقم الايداع / ١١٣٩٥ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى / I.S.B.N. : 977 - 354 - 026 - X

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ .

وبعــد ...

زعماء الشيوعين الكبار لنبين قائد الإنقلاب الشيوعى وخليفته استالين وخروتشوف، وبرجنيف، وجورباتشوف، الذى حطم الأسطورة الشيوعية، ونادى بالاقتصاد الحر ومزج الشيوعية بالرأسمالية، ثم أطاح به يلسن الذى أوصى لبوتين الرئيس الروسى الحالى .

وفى الصين كان مؤسس الشيوعية بها ماو تسن تونج، وفى يوغسلافيا كان أول رئيس شيوعى بها هو جوزيف بروزيتو .

والشيوعية ليست فقط مذهبا اقتصاديا بل هى مذهب إلحادى ينكر الدين تماما جملة وتفصيلا، ويقول بالحتمية التاريخية والصراع الطبقى وديكتاتورية الطبقة العاملة البوليتاريا والتفسير المادى للتاريخ ويزعمون أن الدين أفيون الشعوب.

وقد قامت الشيوعية فى المجر، وألبانيا، وألمانيا الشرقية ، وأقامت الدول الشيوعية ما يعرف بحلف وارسو فى مواجهة حلف الأطلنطى الغربى الذى تقوده الولايات المتحدة .

وكمال أتاتورك العلمانى الذى أسقط الخلافة العثمانية التركية ورئيس الشيوعية وهو يهودى الديانة وكذلك قامت الشيوعية على أكتاف طائفة من اليهود مثل كارل ماركس ومالتسى .

وقد جرت الشيوعية الوبال على العالم وأفقرت شعوبها ونفت المعارضين إلى سيبريا حيث الثلوج والحرارة تحت الصفر ووعورة الأرض .

وضيقت على الحرية والشورى واستبعدت الشعوب ، وهى فى حقيقتها حليفة للاستعمار الصهيونى الإسرائيلى .

وحين قامت ما تعرف بثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ على نظام القياصرة فى روسيا قام الشيوعيون بضم مجموعة من الجمهوريات الإسلامية المجاورة لروسيا بقوة السلاح ، وأخمدتُ ثورة المجر المطالبة بالحرية وحقوق الإنسان، وقامت بقمع الانتفاضة العمالية فىَ الإتحاد السوفيتى حيث مزقت أجساد العمال المغربين تحت جنازير الدبابات ، وكذلك فعلت الصين بالطلبة المتظاهرين ، وكذلك قام يلسن بضرب مقر البرلمان الروسى بالدبابات حينما أعلن عزله وتمرد على النظام القائم فى روسيا .

وقبل ذلك قام قادة الشيوعية وعلى رأسهم لينين بسفك دماء ملايين البشر وقتلوا علماء الدين الإسلامى بالقائهم من فوق مآذن المساجد وحولوا المساجد إلى متاحف وأعدموا من يضبط وهو يحمل أو يقتنى المصحف الشريف .

وهكذا فعل تلميذهم مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا بعد أن أعلن إنهاء الخلافة العثمانية ووضع لتركيا دستوراً علمانيا يقوم على الإلحاد وغير قوانين الشريعة الإسلامية حيث ساوى فى الميراث بين الرجل والمرأة وحرم الطلاق وتعدد الزوجات وألزم النساء بالتبرج وحرم الحجاب وجعل الأذان باللغة اللاتينية ونصب العسكريين أوصياء على الحكومة وأغلق مدارس تعليم القرآن إلى غير ذلك مما تعانى منه تركيا حتى الآن .

والحقيقة أنه لا يمكن الجمع بين الإسلام والشيوعية، فمن زعم أنه مسلم شيوعى فهو كاذب وإنما هو شيوعى ملحد .

كما أن العلمانية صورة أخرى من الشيوعية .

وفى العقد الأخير تفككت الامبراطورية المسماه بالاتحاد السوفيتى وبعد الغزو السوفيتى لأفغانستان، ومازالت روسيا تقمع الشيشان وتحتلها وتقوم بمذابح يومية للشعب المسلم هناك ، فهل تصحو المسلمين من رقادهم الطويل ويكشفوا عنهم لثام الزيف والبهتان .

والله من وراء القصد ،

المؤلـــف

ســـــتالين (١)

جوزيف فيساريونو فيتش.. اشتهر باسم «ستالين» .. وكان فى صباه يسمى «كوبا». حكم روسيا الثائرة المتصارعة داخليا- أجناسا وشعوبا وقبائل وعقائد ومذاهب وطبقات ولغات ونزعات - حكمها بيد من حديد، بل من فولاذ وبعين ثاقبة لاتكاد تغفل أو تنام. طوال ثلاثين سنة. فرفع إمبراطوريته السوفيتية من الحضيض والتخلف والتمزق، إلى دولة قوية عُظمى، تُهدد وتُشدد، وتناطح القوة الأعظم: الولايات المتحدة الأمريكية، فيشارك بدهاء وعناد، ويحرك ويوجه سياسات العالم ومصائر دول وشعوب.

لكن البعض - حتى فى داخل بلاده - يراه «أوضح مثال فى التاريخ الحديث والقديم على الشخص المصاب بمرض عدوانى مزْمن حين يتولى زمام السلطة المطلقة ويمارسها يوميا من خلال مهارته اللا إنسانية». وفى موسوعة «جنيس» للأرقام القياسية المسجلة، تصدر اسم ستالين قائمة «القتل الجماعى».

ولد فى قرية «ديدى - ليلو» الجبلية بالقرب من جورى فى جورجيا الآسيوية (سنة ١٨٧)، لأب اسكافى سكير، ولأم تقية أرثوذكسية ورعة هجرها زوجها، ويؤكد أهل جورجيا أنه قوقازى وليس من أصل روسى، إلا أنه فى صباه أُرسل للتعلم بمدرسة دينية أرثوذكسية روسية، ثم طُرد منها، فانغمس فى التيار السياسى الثورى السرى، حيث تشابكت جذور الثورة بنزعات الإرهاب الدموى واختلطت بالجريمة، واشترك فى حركة سنة ١٨٩٨ الثورية، واعتقل أكثر من مرة. وانتزع له مكانا بين حزب البلاشفة سنة ١٠٨ عندما ارتكب أكبر عملية سرقة فى التاريخ القيصرى الروسى،

---

(١) رجال صاغو القرن ـ فؤاد شاكر .

إذ صنع كمينا لقافلة بريد فى تيفليس (عاصمة جورجيا) واستولى على كمية كبيرة من الذهب. وكثيرا ما كان يُعتقل، وأرسل مرارا إلى سيبيريا، وكان دائما يهرب. وتكرار هذا الاعتقال ثم الهرب أثار شك تروتسكى (أكبر أعوان لنين وألد أعداء ستالين فذكر أنه – أى ستالين– كان عميلا للبوليس السياسى القيصرى. وفى آخر هروب له، وصل إلى بتروجراد فى أوائل ١٩١٧، وبدون أية خبرة سابقة فى الصحافة ولا معرفة بالماركسية، تولى رئاسة تحرير صحيفة «برافدا».

وفى بواكير أعوام الثورة الشيوعية، عينه لنين نائبا (قوميسيرا) عن القوميين، فكون لنفسه عصبة من المقربين فى مدينة تسارستين (التى صارت فيما بعد ستالينجراد) ربطوا مصيرهم به. وتعرض لأصعب أوقات حياته فى تلك الفترة حين أرسل إلى بولندا(أغسطس ١٩٢٠ يحمل تعليمات إلى الجبهة الجنوبية الغربية، فتجاهل الأمر بالانضمام إلى القائد طوخاشفسكى، فوقعت كوارث حوكم بسببها أمام محكمة الحزب، فأفلح بالمراوغة والدهاء فى الإفلات من العقاب، لكنه لم ينس: إذ بعد سبع عشرة سنة أعدم طوخاشفسكى وأربعة من مساعديه الذين كانوا معه فى سنة ١٩٢٠.

وعند مرض لنين الأول، كان ستالين سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى، ونجا من رغبة متأخرة للنين فى إبعاده عن هذا المنصب. فقد أشار لنين فى آخر مدوناته إلى مشاعره الحزينة بسبب النزاع المتوقع بعد موته بين تروتسكى وستالين، وأن ذلك كان أحد مبرراته فى توسيع دائرة أعضاء اللجنة المركزية للحزب وتزكيته للقيادة الجماعية. وكان بوخارين الشخصية المفضلة لقيادة الحزب، إلا أن ماركسيته كانت متحفظة. وكان تروتسكى أقدر خلفاء لنين على القيادة إلا أنه كان يميل إلى البيروقراطية والعناية

بتأمين نفسه. أما ستالين، فكان ينال كثيرا من انتقادات لنين. وقال عنه مرة بعد تولى منصب سكرتير عام الحزب: «لقد جمع فى يده سلطات بلا حدود، ولست متأكدا من أنه سيعرف دائما كيف يستخدم تلك السلطة بما يكفى من حيطة وحذر». وبعد أيام قلائل أضاف لنين: «إن ستالين شديد الجفاء والغلظة، وهُذا العيب- وإن كان مسموحا به في المستويات الأقل وفى التعامل بين الشيوعيين، لكنه لا يُغتفر بالنسبة للسكرتير العام.

ولهذا السبب فإننى أقترح على الرفاق أن يفكروا فى وسيلة لإقصاء ستالين عن هذا المنصب واستبداله بشخص آخر يتميز بصفة واحدة على الرفيق ستالين، وهى بشكل خاص: التسامح مع إخلاص أكبر، وتلطف أوفر، واحترام للرفاق، وأقل تقلبا مع الأهواء والنزوات..» فكان واضحا أن لنين كان يعمل على إقصائه.

ويقرر تروتسكى فى كتابه عن ستالين أنه -ستالين- دس السم لنين حتى يمنع محاولة أخيرة لإقصائه. وهذه واقعة ذات دلالة: فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٢، أملى لنين- وكان مريضا مقعدا- رسالة على زوجته «كروبسكايا» موجهة إلى تروتسكى يهنئه فيها بسبب انتصاره على ستالين فى الخلاف الحاد الذى نشب بينهما عن احتكار التجارة الخارجية. فعلمت العيون والأسماع المترصدة التى بثها ستالين أمر تلك الرسالة، فأمسك بها واحتجزها لنفسه قبل أن تقع فى يد تروتسكى، واحتفظ بها كدليل- يستخدمه فى حينه- على تضامن لنين مع تروتسكى ضده. وفى اليوم التالى اتصل تليفونيا بكروبسكايا وراح يمطرها- كما قالت هى - «بوابل من التعنيف والزجر»، زاعما أنها خالفت تعليمات الحزب بعدم إجهاد زوجها وتركه للراحة التامة (فى حين أنها حصلت من الأطباء على موافقة قبل أن تدون الإملاء)، وهددها ستالين بأنه سيُجرى تحريات دقيقة عنها بواسطة

لجنة التنظيم المركزية فى الحزب. فلما وضعت كروبسكايا سماعة التليفون كان لون وجهها باهتا مُصفرا وهى تصرخ فى هيسيرية وتدور ذاهلة حول نفسها بالغرفة. من تلك اللحظة بدأ مولد الرعب الستالينى. وعندما علم لنين فيما بعد (فى مارس التالى) بهذه الواقعة، أملى رسالة إلى ستالين يطلب منه الاعتذار لزوجته عن «فظاظته، وإلا خاطر بانقطاع الصلة بينهما». لكن ستالين كان فى ذروة الانتشاء بالسلطة، وهو بأعلى مراكز القوة، فكشف عن حقيقة وجهه، ولم يعبأ بلنين ولا بحالته الصحية المتدهورة، فقد رد على «الزعيم» مذكرا إياه بأن «كروبسكايا ليست فقط زوجتك،

ولكنها رفيقتى القديمة بالحزب»! ولم يُخف ستالين خشونته مع لنين، إذ أضاف: «إننى لم أكن جلفا معها، والأمر لا يعدو أن يكون سوء فهم تافه.. ومع ذلك ، إذا كنت تعتبر ذلك الاعتذار وقاية لعلاقتنا، فإننى أسحب كلماتى السابقة، نعم أسحبها حقا عندما أعرف لماذا كل هذا؟ وما هو الخطأ من جانبى؟ أو : ما هو المطلوب منى بالضبط؟».

فى اليوم التالى (٦ مارس) سجل أحد أطباء لنين هذا التقرير: «إن فلاديمير إليش (لنين) مستلق ونظراته شاردة، ووجهه شاحب تكسوه تعبيرات الفزع، والحزن يطل من عينيه، والدموع تنسال على خديه. لقد أصبح اليوم مستفزا مضطربا يحاول عبثا الكلام، لكن التلفظ لا يسعفه، فلا يقدر على النطق إلا بقوله فى صعوبة:

(آه .. يا للحجيم! .. آه .. يا للجحيم!.. عاودنى المرض القديم).

وبعد ثلاثة أيام، داهمت لنين جلطة المخ للمرة الثالثة فأفقدته القدرة على الكلام، وحالت بينه وبين الاتصال بالحياة السياسية. وظل حتى موته – بعد عشرة أشهر– لا يستطيع أن يتلفظ إلا بمقاطع قصيرة مقتضبة. وهذه

الواقعة لم تنشر بكاملها إلا فى عام ١٩٨٨ عندما أوشكت إمبراطورية لنين وستالين على التفكك والإنهيار.

كانت «التشيكا» - البوليس السياسى- تحت سيطرة ستالين ومؤتمر الحزب فى قبضة يده. فلم يكن إذن يخشى أية عوائق فى طريق صعوده. وناور بمهارة جميع منافسيه، ونجح فى إبعادهم عن مفاتيح الشئون السياسية التى احتفظ بها كلها لنفسه. وربما لجأ إلى تشويه سمعتهم على مهل، مستخدما كل الأساليب اللاأخلاقية. وقد استغرق الأمر منه خمس سنوات لتحطيم ثم قتل قادة كبار فى الحزب والسلطة (مثل كامنف، وزينوفيف، وبخارين)، وسبع سنوات للتخلص نهائيا من تروتسكى (تآمر على قتله فى منفاه بالمكسيك سنة ١٩٤٠).

لم تكن له حياة خاصة أُسرية. وقد دفع زوجته الثانية إلى الانتحار. وكان يعيش فى غرفة واحدة بالكرملين تشرف عليها ابنته «سفتلانا الليلوبيفا» (التى هربت - فى حياته- إلى الولايات المتحدة وكتبت مذكراتها وهى من أهم المصادر عن حياة أبيها الخاصة وسيرته).

كان ينام طوال النهار، ويعمل ساهرا طوال الليل مع المقربين إليه. ولا يمل من سماع الحاكى (الفوتوغراف أو الجراموفون)، أو مشاهدة الأفلام السينمائية الصامتة. وربما انتقل إلى استراحته (الداتشا- أو الشاليه) للاسترخاء فى هدوء. ونادرا ما كان يظهر فى الأماكن العامة أو على الملأ. وقليلا ما كان يخطب أو يتحدث.

وعند سفره لقضاء عطلته السنوية في جورجيا، كان موكبه يتكون من خمسة قطارات متطابقة الشبه، وفى كل منها «قرين» له يشبهه تماما فى الملامح والهيئة والزى، مخافة الاغتيال وكان لا يسمح لأحد أن يزعجه لأى

سبب. فكان يعيش خارجا عن نطاق المعتاد أو المألوف. ومع أنه لم يكن يتكلم لغة غير الروسية، إلا أنه أثبت جدارة فائقة فى الديبلوماسية الخارجية، مثلما كان ماهرا فى السيطرة الداخلية العنيفة، وفى الإدارة، وفى الحرب. وفى نهاية المطاف، عندما داهمه الموت الذى لا فرار منه، كان - بلا منازع- سيد روسيا السوفيتية الوحيد، وفى يده خيوط كل السلطات مجتمعة.

ما إن أمسك ستالين بعجلة القيادة، حتى تسارع دوران المحرك، وانطلقت المركبة السوفيتية الهائلة تقطع مسافات بعيدة متزايدة. وحقق ما عجز عنه لنين كان شاغله الأكبر (أى لنين) تثبيت الثورة الشعبية التى فجرتها الأحداث وأشعلتها الجماهير، ثم استغلتها الأقلية البلشفية اليسارية، فوجهها لنين لزعامته ولمصالح حزبه الشيوعى الأفضل دهاء وتنظيما. كان لنين يبذل جهده كله فى إصلاحات اجتماعية وتوازنات اقتصادية، إلا أنها لم تحقق كثيرا بالنسبة للمثاليات الشيوعية ودعاياتها البراقة الطنانة، كما أنها لم تزود الاتحاد السوفييتى بعناصر وأدوات الحرب الحديثة.

ومن هنا بدأت مسيرة ستالين: فقد كان واثقا من قيادته القابضة القاهرة، وبلا حدود . فاختط برنامجا ضخما بعيد الأغوار، أراد به أن يحقق -بأى ثمن وتضحية وضحايا خلال عقد من السنين- صناعة عملاقة من الأنفاس، والرقاب، أثمرت فى الجانب الإنسانى دمارا وسحقا، وفاقت حصيلتها أية كارثة وقعت فى التاريخ الأوروبى، بما فى ذلك مآسى الحرب العالمية الثانية.

ولا يمكن الاعتذار عنها بمثل ما قيل فى حملات الدعاية المبررة لها: «إن العجة لا تُصنع إلا بتكسير البيض». لكن ستالين ظل «يكسر» الشعب

الذى كان من المفترض أن يحافظ عليه ويصون أرواحه. ولقد ثبت فى النهاية، أن «العجة» التى صنعها لم تُغن ولم تُسمن من جوع، ولم تصمد لتيار الزمن وتطورات الأحداث. إن الحرية الفردية يستحيل خنقها أو احتباسها - بلا جريرة- إلى الأبد.

كانت خطته الطموحة ترتكز على ستة عناصر متشابكة متداخلة، هى: التخطيط المركزى، تسريع التصنيع، إعادة تسليح الجيش، التعاونيات الزراعية الجماعية، تصور تنظيرى للحرب، الضغط- أو الإرهاب السياسى. وفى سياسته الخارجية : لم يكن ستالين حريصا بدرجة كبيرة على نشر المذهب الشيوعى فى العالم الخارجى (باستثناء دول الكتلة الشرقية الأوروبية) بحيث تتحول دول أخرى، بمساعدته أو بمشاركته المباشرة، إلى اعتناق الشيوعية. لم يكن ذا ثقة كبيرة فى قادة الدول الأخرى، وخاصة دول العالم الثالث، الحديثة الاستقلال.

وكان له الكلمة العليا فى شئون دول الكتلة الشرقية الأوروبية وفى مصالحها الحيوية ومصائرها، وهى : بولندا، المجر، تشيكوسلوفاكيا- المانيا الديموقراطية (الشرقية)- رومانيا- بلغاريا- ويوغوسلافيا إلى حد ما، فقد رفض تيتو الإنصياع لستالين واحتفظ بنظامه ومنهاجه الخاص وبعلاقاته مع الغرب، وبروابطه الوثيقة مع دول العالم الثالث التى قادها- مع جمال عبد الناصر ونهرو وسوكارنو- إلى «عدم الإنحياز».

لم تُظهر السنوات الأخيرة من حياة ستالين أية دلائل على تغيير - ولو طفيف- من ظلمات الليل الطويل من الرعب والمعاناة، المختلطة بالنجاحات والإنجازات الصناعية والعلمية والحربية المتعاقبة وظلت عصبة الرفاق المقربين من ستالين منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، ظلت تعتلى مواقع

السلطة من تحت عرشه. واستمر الشعب السوفييتى قابضا على الجمر، ملتزما بالصمت، مُصغيًا بالإكراه إلى الدعاية المكثفة، عاجزا عن التحرك أو التمرد، أو حتى مجرد التعبير همسا عن آلامه وأوجاعه. فالجواسيس فى كل مكان، وداخل كل بيت، وربما من أهل البيت، وربما من أهل البيت،

وفى الطرقات ومواقع العمل والانتاج، والعقاب صارم لا يرحم، ومعسكرات الاعتقال- الجولاج، وهى بالآلاف- تطل برءوسها الشيطانية المفزعة، تلتهم وتتوعد جماعات العمال الناقمين والمعارضين المثقفين، والمشاغبين الثرثارين، وكل من يجرؤ على الهمس بما لايجب، أو يُظن أنه يفكر على هواه، وثمة دلائل موثقة تؤكد أن ستالين عندما اكتشف ما عُرف فى تاريخ تلك الحقبة «بمذبحة الأطباء»- حيث أعمل فيهم القتل الجماعى - كان يُجهز لعملية «تطهير» جديدة شاملة، على غرار ما فعل من قبل ثلاث سنوات، وقتل فى كل منها ملايين المواطنين من جميع المستويات والفئات، الذين لم يرض عنهم لسبب أو لآخر، والذين زينت- أو زيفت-التقارير والاستخبارات أنهم «متحذلقون منشقون»، أو خطرون مخطئون.

فى تلك السنوات، كانت الامبراطورية السوفيتية فى أوج زهوها وذروة اتساعها وقوة نفوذها داخل محيطها الجغرافى وظلالها تغطى الدول المجاورة، فكان لها صوت يُمسع ويُهاب في المجال العالمى. أليست تملك القوة الحربية والذرية الثانية فى العالم؟.. وزادها علوا واستكبارا، تلك البدائل والتغيرات السياسية والاقتصادية (ومعظمها فشل فيما بعد) التى حدثت مع تطبيقات دول من العالم الثالث المستقلة حديثا واتخذت النموذج السوفيتى مثالا لها. وبعد وقت قصير من سيطرة موسكو على دول أوروبا الشرقية، تدعم مركزها فى الكرملين بانتصار ماوتسى تونج وحزبه الشيوعى فى الصين وتوليه السلطة العليا بها (١٩٤٩).

وماو هو القائل: «إن القوة تنمو من داخل ماسورة البندقية».

لكن انتصار ماو فى واقع الأمر كان ذاتيا، أى بدون تدخل مباشر من موسكو. وكانت له أفكار مذهبية تختلف فى جوانب رئيسية عن تلك التى كان يروجها ستالين؛ كما أنه كان على وعى كامل بأن الرفيق الروسى- ستالين- استمر يساند فى الظلام عدو ماو اللدود شيانج كاى تشك منذ بداية الثورة الشعبية الصينية . ومع ذلك لم يغب عن ذكاء ماو آنذاك، أنه من الأفضل له ولثورته أن يُظهر ولاءه للمعسكر الشيوعى.

فظلت موسكو على مدى اثنتى عشرة سنة تتولى قيادة السلطة والحركة الشيوعية فى دولة هى أكثر دول العالم اتساعا، وقيادة ماكان يسمى «بالمعسكر الاشتراكى» الذى ضم فى جنباته نصف سكان المعمورة. وفى السنوات الأخيرة من حياة ستالين رأت موسكو أنها «الوريث الطبيعى» للاستعمار الغربى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. فمن حقها إذن أن تكون «السيد» المطاع فى الدول الساعية نحو الاستقلال، أو تلك الحديثة الاستقلال فسعت إلى توثيق صلات بدول مثل فيتنام وكوبا، وبعض دول الشرق الأوسط.

ثم وجهت موسكو معظم جهودها واقتصادها نحو زيادة القوة النووية وعلوم الذرة والفضاء. فأقامت فى «ماياك» - بمنطقة الآرال - وفى غيرها، مراكز علمية ومختبرات متخصصة تجريبية، سخرت فيها للعمل أساتذة وعلماء وخبراء وفنيين وعسكريين (وكان فيهم علماء ألمان نوابغ من عهد هتلر)، وكان هدف ستالين: التفوق على الولايات المتحدة فى الأسلحة والقنابل الذرية. وبعد تفجير أول قنبلة ذرية تجريبية بنجاح (١٩٤٩) فى منطقة «نوفايا زمليا» بالقطب الشمالى، نجحت تجربة تفجير قنبلة

هيدروجينية (١٩٥٣)، فكسر بذلك احتكار أمريكا لصنع هذا السلاح الخطير الرهيب. فلما لفظ ستالين أنفاسه الأخيرة، كانت موسكو - عاصمة الاتحاد السوفييتي - جديرة بأن توصف : بالقوة العظمى.

مات ستالين فى الخامس من مارس ١٩٥٣، عقب إصابته الثالثة بالسكتة المخية أو الدماغية (النقطة). كان باستراحته فى كونتزيفو. وظل ملقى على الأرض يحتضر طوال أربع وعشرين ساعة. ولم يجرؤ طبيب من الكرملين- حين أبلغ النبأ سرا- أن يجازف بعمره ويسارع لإسعافه. وانتقل أعضاء المكتب السياسى إلى حيث يرقد، وظلوا إلى جواره يرقبون زوال الحياة من جسده. وجاء فى كتاب: «ذكريات خروشتشيف»، تحت فصل بعنوان : «العهد الأخير» (صدر عام ١٩٧٤).

«ما إن بدت على ستالين علامات استعادة الوعى، ألقى بريا، بجسمه على ركبتى ستالين، وأخذ يقبل مرارا يديه. فلما فقد ستالين وعيه من جديد، انتصب بريا واقفا مشمئزا، وبصق نحوه. ثم تقيأ كلمات كريهة تفيض بُغضا..».

فلما أُعلن موت ستالين، بكاه ملايين الناس. وسرت إشاعة بأنه هلك مسموما، ثم ترجحت فيما بعد. وبقيت آلة الرعب الحاكم فى دورانها مخافة القلقلة وانهيار النظام. وتولت السلطة قيادة جماعية لمدة ثلاث سنوات، ثم انتزعها خروشتشيف الذى يصلح مثالا على المتسلقين بسرعة إلى أعلى مراكز السلطة- فى الحزب والدولة - بذكاء ودهاء. ولم يحاول إخفاء سجله الحافل بأعمال التصفية والرعب أيام ستالين فى أوكرانيا. كما لم يحاول التخلص من فظاظته وجلافته الريفية الروسية. ولسوف يذكره التاريخ بمنظره المهتاج المتحفز، وهو جالس يستمع إلى خطاب بالجمعية العامة

للأمم المتحدة، وقد خلع حذاءه وراح يضرب به مقعده عدة ضربات ويصرخ بكلمات احتجاج وغضب ، ثم وضع حذاءه أمامه!

فى الاجتماع العشرين لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفييتى (مارس ١٩٥٦ خطب خروشتشيف فأذهل العالم حين أفصح علانية عن «الديكتاتورية والأعمال الإجرامية» التى ارتكبها ستالين، ولطخت سمعة الحزب، وأساءت إلى الدولة والشعب، وإلى شعوب كثيرة فى العالم. واستمرت «الحرب الباردة» التى بدأها ستالين منذ حملته الشرسة على الدول الرأسمالية الغربية وتلك المناهضة لأفكار الاتحاد السوفييتى، إلى أن سقط النظام كله مع سقوط حائط برلين (١٩٨٩) .. ومن يدرى ؟. فلربما إلى حين !!

جوزيف بروز تيتو

(الثائر الذى قال : لا)

فى عام ١٩٤١، والحرب العالمية الثانية المتأججة تفور وتمور، سأل ونستون تشرشل أحد مساعديه: «هل يوجد شخص يدعى تيُتو؟ أو أنه اسم امرأة؟ ربما يكون مفتاح شفرة سرية»!!

ثم انقشعت الحرب، وتغير الكثير من خرائط الدول مثلما تغيرت أنظمة للحكم، وتحولت مسارات أمم وشعوب. وقبل رحيل تشرشل عن الدنيا الفانية، كان نجم « جوزيب بروز تيتو» قد علا لامعا متألقا فى سماء التاريخ، وفى حياة الناس. فلما توارى بدوره حيث يتوارى كل الأحياء عند إنتهاء العمر المقدور، وصفه كُتاب الحوليات ومؤرخو الوقائع بأنه :«ظل – تيتو– لعدة سنوات أحد العمالقة الذين صنعوا تاريخ هذا القرن، وآخر القادة العسكريين الكبار الذين صارعوا الهتلرية بضراوة، فصرعوها ببسالة وفخار».

لكن تيتو، الابن السابع من الأبناء الخمسة عشر للفلاح البائس «فرانجو بروز» وزوجته «ماريا جافُرسك» تفوق على عمالقة عصره بأمر لم يُحرزه سواه، خاصة أولئك القادة العسكريين والزعماء السياسيين فى شرق أوروبا فهو الوحيد الذى ناطح بإصرار وعناد «جوزيف ستالين» ورفض الإنصياع لسياسته والإنضمام لمجموعة الدول الخاضعة التى تدور فى فلكه ، وظل قرابة نصف قرن يمسك بثبات وقوة وحزم زمام إرادته ومصير أمته، فقدم المثال الحى على أن الشجاعة والتصميم العنيد، يدعمان شخصية الدولة، ويحفظانها من التراخى، والتهافت، والذبول.

فالأسرة تقف باستكانة عند مستوى الفقر. وفيما يشبه المعجزة، يلتحق الطفل «جوزيب» الكرواتى بالمدرسة المتداعية بقرية «كومروفى»، التى بها مدرس واحد - مصاب بالسل- لثلاثمائة وخمسين تلميذا. لكن الغلام ينمو وتنمو معه فى داخله شعلة متقدة من أتون المشاعر الدفينة فى قلوب شعبة الكرواتى الصغير، أحد شعوب البلقان المتناحرة. فلما بلغ سن الشباب، تفاخرت الأسرة والأهل بولدها الفلاح الفتى وقد أصبح عاملا بمصنع للحديد والصلب، وفارسا يجيد ترويض الخيول البرية، ثم ميكانيكيا على مستوى عالٍ من المهارة، وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، أى فى عام ١٩١٢.

وسرعان ما ينجرف فى تيار السياسة وأحزابها وصراعاتها المُستعرة المتشابكة الدامية. فيلقى القبض عليه، ويساق- أثناء الحرب العالمية الأولى -إلى غياهب أحد السجون فى روسيا، وفيه كما قال من بعد : «تعلمتُ المبادىء الأولى للشيوعية». فانضم هناك إلى جماعات البلاشفة، واشترك معهم فى الحرب الأهلية الروسية (حتى عام ١٩٢٣)، واعترف قائلا: «وأصبحت جنديا فى الحرس الأحمر (الشيوعى)، ثم عميلا للمخابرات الروسية الدولية». فلما عاد إلى موطنه -كرواتيا- قاد حزبا شيوعيا غير معترف به قانونا، فزج به فى السجن (من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٤)، ثم خرج منه منفيا إلى موسكو، ومنها رحل إلى باريس حيث سكن حجرة بالحى اللاتينى. فلما نشبت الحرب العالمية الثانية واحتل الألمان يوغوسلافيا، قاد حركة المقاومة ابتداء من يونيو ١٩٤١، وكان من الحكمة وبُعد النظر أن جمع كل العناصر ذات الإتجاهات والميول المختلفة - والمتضاربة أحيانا فى تحرك واحد ضد العدو المحتل.

أصبح اسم «تيتو» يمثل روح الشعوب اليوغوسلافية، وتعبيرا عن إرادتها الفولاذية بمقاومة الغزو النازى. وهو فى الوقت ذاته، اسم اكتسبه أثناء المقاومة، رآه تتويجا لسبع وثلاثين سنة من العمل الثورى المتواصل. وما إن تم اختياره سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى اليوغوسلافى، حتى أخذ فى تغيير هياكل الحزب ومناصبه بأجمعها. وساعده علي تعلق الناس به والتفافهم حوله، أن حاكم يوغوسلافيا آنذاك الأمير «بول» - الوصى على العرش بعد اغتيال ملكها الكسندر الأول فى مدينة مرسيليا الفرنسية- إنحاز إلى جانب الألمان النازيين الغزاة، مما أثار سخط الشعوب التى تتكون منها يوغوسلافيا، تلك التى دفعتُ من أرواح وجراح أبنائها وبناتها ثمنا غاليا، بل مخيفا: ١٧٠٠٠٠٠ قتيل، أى بنسبة ١١٪ من مجموع السكان! من بينهم - من الرجال والنساء- من مات فى التعذيب حرقا أو ذبحا أو رميا بالرصاص، داخل ثلاثمائة معسكر اعتقال أقامها الألمان وحلفاؤهم الايطاليون على أرض يوغوسلافيا، أى ثلاثة أضعاف الذين ماتوا (من اليوغسلاف أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩٤-١٩١٨، كما دمر الألمان ثمانمائة وخمسين ألف منزل).

أرقام مفزعة بلا شك ! وهى تُبين إلى أى مدى تكمن روح المقاومة، والاصرار العنيد على التحرر والاستقلال. وبمجرد أن أعلن تيتو كلمته الملتهبة : «لايحق لأحد أن يرضى عن احتلال البلاد»، انضم إليه ثمانيمائة ألف رجل وامرأة توزعوا على اثنين وخمسين فرقة، ومائة وسبع كتائب، لديها مصفحات، وأسلحة ثقيلة، وحتى بعض الطائرات! والعجيب حقا، أن هذه الأسلحة المتنوعة لم تحصل عليها المقاومة المنظمة من روسيا ولا من جيوش الحلفاء المحاربين للنازى وأشياعه، ولا بتدخل مباشر من هؤلاء أو هؤلاء.

وإنما كان معظم تسليحهم يأتى من جانب الألمان!.. مما كانوا يغنمونه فى المعارك، ومن الهجوم على معسكرات ومواقع جيش الاحتلال. وكان لزاما على فرق وجماعات المقاومة -بتخطيط من تيتو- أن ينزلوا من أعالى مئات الجبال، وأن يتقدموا زاحفين شبرا بشبر، وشارعا بشارع ومن حولهم يؤازرهم ثمانية ملايين رجل وامرأة، وفتى وفتاة، يحملون السلاح فى المصانع والمزارع، فى المغارات والكهوف، إنها أمة بأسرها- بلا ضجيج ولا صراخ ولا استغاثة أو طنطنة دعائية غوغائية - تتحرك فى نظام مدهش، وبسالة نادرة، واعتزاز بالنفس لا يُقاوم، مع ابتسامة خلابة على الوجوه، رغم المآسى والكوارث والتضحيات والأحزان، حتى تحقق لها النصر.

وشارك الأطفال والصبية فى إشعال الحرائق بمراكز قيادة العدو، وفى سياراته ومخازن أسلحته. وفى القرى والريف، استخدم الفلاحون الفؤوس وأسلحة المحاريث وأدوات الفلاحة فى الهجوم على معسكرات النازى وقتل الجنود الألمان والخونة المتعاونين معهم. وهجر بعضهم الحقول والمزارع للتفرغ الكامل لأعمال المقاومة، غير عابئين بحر أو جليد أو مطر. كل ذلك كان يحدث، وتيتو بين الجميع، أصيب مثلهم فى إحدى المعارك عند مدينة «أوزيتش» بالبوسنة (فى مايو ١٩٤٤).

واعترف «هيملر» رجل النازى القوى إذ قال لبعض مساعديه بلا مواربة أو خجل: «يؤسفنى أنه ليس لدينا عشرة رجال مثل تيتو. إن هذا الرجل لا يملك أقل موهبة تميزه أو تجلب له الحظ، ومع ذلك فهو يفلح دائما فى التسلل خُفية من بين أصابعنا..

لقد سحقنا له فرقا ومحونا آثارها، ولكن فى كل مرة يجهز هذا الشيطان غيرها».

فات «هيملر» أن تيتو كان بالفعل يملك ميزة ضخمة رائعة، وهى تفسر كل شىء: الشجاعة التى لاتخبو ولا تلين عند أى شعب يدرك تماما لماذا يُقتل ويقاتل، والإصرار الواثق العنيد على الحرية أو الموت.

هنا يكمن سر انتصاره -بسلاحه وبأدواته المحدودة- على أقوى جيوش عصره. كان تيتو يجيد العزف على تلك الأوتار، بينما كان الشعب من حوله يَسمع، ويُنصت، ويستجيب فينطلق. وفى برلين، استشاط هتلر غضبا وغيظا من موقف هذه الدولة الصغيرة التى لا تبعد كثيرا عن ألمانيا (تفصل بينهما النمسا التى ضمها هتلر إليه وأعاقت لأسابيع ثمينة تقدمه نحو روسيا التى أعلن عليها الحرب، فأمر بتدمير بلجراد(عاصمة يوغوسلافيا)! كان هذا أول أخطائه الكبيرة.

ولقد كرم الشعب، أو مجموعة الشعوب اليوغوسلافية قائد المقاومة الذاتية الباسلة. ففى أثناء انعقاد مؤتمر «يالتا» (الذى أعقب الحرب العالمية واقتسمت فيه الدول الكبرى المنتصرة مناطق السيطرة والنفوذ فى كل أرجاء العالم تقريبا، والذى لم يوجه فيه ستالين الدعوة لحضوره إلى تيتو)، فى هذه الأثناء، منح الشعب قائده مرتبة ولقب «ماريشال». ثم انتخب أعضاء الحزب «الماريشال تيتو» رئيسا للحكومة المؤقتة التى تولت زمام السلطة عقب إنتهاء الحرب. وهى الحكومة التى مثلت يوغوسلافيا رسميا فى مؤتمر طهران، وبذلك انتهى حكم الأسرة الملكية التى كانت تحكم البلاد، والتى هرب أفرادها- خلال فترة الحرب- إلى لندن.

فى عام ١٩٤٥ (عقب الحرب) كانت هناك بعض المؤشرات الطفيفة التى توحى بأن يوغوسلافيا على وشك إظهار الخلاف المنهجى عن بقية دول أوروبا الشرقية التى تحررت من الاحتلال النازى بمساعدة الاتحاد

السوفييتى. كانت يوغوسلافيا أكثر من دول شرق أوروبية أخرى تمسكا بالشيوعية، ويقبض على زمام الأمور منذ البداية الماريشال تيتو كقائد لا ينازع، والمنظم القوى للدولة ذات الحزب الواحد الذى يعتنق الماركسية اللينينية.

ولم يكن لشركاء المقاومة والتحرير من المواطنين الآخرين والجماعات غير الشيوعية تأثير يُذكر فى رسم سياسة الدولة، وإن أقر الجميع زعامة تيتو ورئاسته لفترة ما بعد الحرب من أجل إعادة بناء يوغوسلافيا. ولم يكن يشوه هذا التراضى والإتفاق سوى محاولة تدخل عسكرى من جانب السوفييت أو الحلفاء الغربيين.

ومن المفارقات التى قد تثير الدهشة، أن ستالين كان يعضد فكرة نزول فرق عسكرية من جيوش الحلفاء فى أرض يوغوسلافيا، إذ إنه استشعر مبكرا نوايا تيتو بجعل يوغوسلافيا دولة شيوعية وطنية قومية متطرفة، مناوئة له، «إن نظرة تحليلية متأنية لأحوال يوغوسلافيا التيتوية أثناء الحرب ومقارنتها بدول شرق أوروبا ووسطها تبين بجلاء أنه لم تستطع دولة واحدة منها أن تقاوم الغزو النازى ودحره بفرق مقاومتها الذاتية وبدون الاستعانة بجهود الجيش الأحمر (السوفييتى)، عدا المقاومة اليوغوسلافية الباسلة العنيدة، والتفافها حول تيتو».

كان تيتو يعى جيدا من جانب آخر، أن انتصار شركائه داخل يوغوسلافيا وفى دول شرق ووسط أوروبا مرتبطة بانتصار الاتحاد السوفييتى.

كما أنه اتبع فى سياسته مبدأ لنين فى الإعتماد على حزب قوى واحد جيد التنظيم، للمحافظة على النفوذ الشيوعى. لقد استطاع الألمان وحلفاؤهم

الطليان أثناء الحرب تدمير النظام السياسى والاجتماعى داخل يوغوسلافيا. فكان الشيوعيون والملكيون اليوغوسلاف يحاربون بعضهم بعضا من أجل السيطرة على الدولة، وفى الوقت ذاته كانوا جميعا يقاتلون الغزاة بضراوة. فكان صراعا ثلاثيا معقدا.

وكان كل من الفريقين اليوغوسلافيين المتنازعين يتهم الآخر بأنه يساعد الألمان على إبادة خصمه. وفى الواقع، كان معظم تدعيم تيتو مستمدا من الأهالى الذين اجتذبهم إليه بوعود تتعلق بمنحهم قدرا أكبر من الحقوق ومن العدالة الاجتماعية تتوافق مع تطلعاتهم القمية.

ولقد كان الصرب أكبر الجماعات القومية اليوغوسلافية.. فاستطاع تيتو بدهاء وذكاء أن يضم إليه جماعات قوية كبيرة العدد أفضل مما فعل الملكيون.

ولكنه كان مدركا تماما منذ البداية، أن وحدة يوغوسلافيا تتطلب حتما ودائما دعم ومؤازرة كل الجماعات القومية الكبرى من :الكروات، والمقدونيين، والمونتجريين (أهالى الجبل الأسود)، والبوسنيين، والسلاف . فأنشأ لجانا شعبية فى القرى، وفى المدن، وفى الأقاليم والمقاطعات، وقدم الوعود لكل القوميات الرئيسية بمنحها جميع الحقوق الوطنية المشروعة عقب إنتهاء الحرب، وتكوين جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية.

وضع تيتو نظاما جديدا متدرج القيادات ، تربع هو على قمته، قابضا على كل خيوطه، مستعينا بشرطة سرية عاتية كأداة لتحقيق أمنه أولاً، ثم تخليصه من المعارضين المشاغبين. وفى عام ١٩٥٦ وضع دستورا للبلاد على غرار النموذج السوفييتى يضمن المحافظة على ثقافة جميع القوميات وحقوقها الادارية داخل دولة يوغوسلافية فيدرالية، مما أخمد إلى حين نيران

الأزمات والفتن القومية العرقية التى بدأت تطل برأسها بعد سنة ١٩٤٥. ثم كان إنجازه الكبير التالى فى عام ١٩٥٦ باللقاء التاريخى الذى جمع بين تيتو، وجمال عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، وظهور فكرة «عدم الانحياز» التى ضمت عددا كبيرا من دول العالم الثالث تحت هذا الشعار(بداية من مؤتمر باندونج بإندونيسيا بعد إنضمام رئيسها أحمد سوكارنو إلى هؤلاء الأقطاب الثلاثة).

وكان تيتو هو الذى اختار هذا الشعار- دول عدم الانحياز- للدول الأعضاء المتجمعين بين القوتين الكبيرتين (روسيا وأمريكا)، ولكل عضو إرادته المستقلة، وحريته الذاتية، ومسلكه السياسى الخاص، ونظام حياته الملائم له دون خضوع لهذا أو ذاك، وبدون تبعية لشرق أو غرب (ولو ظاهريا، وإن استفاد بعضهم من الحصول بدهاء على مكاسب من الغرب والشرق)!

كان موقف تيتو الصارم المتحدى لستالين باعثا إلى فرض موسكو نظاما ضاغطا بقسوة وقوة على الدول الدائرة فى فلك الاتحاد السوفييتى حتى لا تحذو حذوه، وظهر ذلك فى المحاكمات السريعة التى أُجريت فى بعض تلك الدول، وتم فيها إعدام قادة وزعماء ومعارضين، وكل قادر على التفكير فى نزعة استقلالية. فكانت موجة من الإرهاب كثيرة الضحايا شبيهة بتلك التى حدثت داخل روسيا فى العقد السابق.

وكان تنفيذ هذه الموجة العنيفة الساحقة بأيدى عملاء موسكو، وهم أقطاب شيوعيون ذوو ماض حزبى مرموق فى تشيكوسلوفاكيا، والمجر، وبلغاريا، وبولندا، وألمانيا الشرقية (التى سُحقت فيها المعارضة بالدبابات سنة ١٩٥٣). فكانت عملية «التطهير» تلك وإعادة التنظيم ، سببا فى انتشار

الشعور بالاشمئزاز والنفور من النظام الشيوعى بمجمله داخل تلك الدول، حتى بين القلائل الذين كانوا لايزالون مصدقين للخُطب والدعايات والوعود.

فى مايو ١٩٥٥، زار كل من خروشتشيف وبولجانين العاصمة اليوغوسلافية بلجراد (بعد عامين من موت ستالين)، بهدف تلطيف الأجواء، واصلاح بعض ما أفسده ستالين. وبعد خطاب خروشتشيف التاريخى أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى (فى فبراير١٩٥٦) الذى أفصح فيه علانية عن الجرائم المروعة التى ارتكبها ستالين، بدأت الشيوعية -كمذهب ونظام- تفقد الثقة بها، وتفاقم ذلك فيما بعد، فيما عدا داخل يوغوسلافيا التى صاغت الشيوعية كقضية قومية.

ومن هذا اتضحت الرؤية الستالينية المبكرة للتيتوية: أنها تهديد مباشر للاتحاد السوفييتى، لأن زعماء وقادة دول أوروبا الوسطى والشرقية الاشتراكية (الشيوعية) واجهوا -بعد الكشف عن جرائم ستالين ومنهاجه الخاطئ- موقفا محيرا أمام شعوبهم.

إذ كان لزاما عليهم عند الحصورل على موافقة جماهيرية لتنفيذ برامج أو مشروعات كبيرة، أن يبحثوا عن صيغة وطنية قومية ملائمة مقنعة، وأن يبرزوا أنفسهم لشعوبهم كمواطنين شيوعيين تشيك، أو بولنديين، أو مجريين. وليسوا عرائس تحرك خيوطها أصابع الكريملين بموسكو.

وعقب زيارة خروشتسيف لبلجراد، صار نفوذ موسكو على الدول الأوروبية التابعة أقل تأثيرا، وفى إنحدار. ومن جانبها، سعت الولايات المتحدة الأمريكية- من خلال وكالاتها ونشاط وزير خارجيتها آنذاك جون فوستر دالاس- سعت إلى رسم سياسة جديدة تجاه دول أوروبا الاشتراكية، تدعو شعوبها إلى التحول السلمى عن الارتباط بموسكو، على

غرار النموذج اليوغوسلافى الذى اختطه تيتو لنفسه بنفسه، وذلك بعد أن شهدت تلك الدول انتفاضات ومحاولات تحرر من النفوذ السوفييتى قابلتها موسكو بمقاومة مباشرة عنيفة، وتدخلات سافرة دامية ساحقة.

ومن جانبه، صارح خروشتشيف أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى اجتماع سرى بأنه على الاتحاد السوفييتى أن يتجنب أى أزمة أو صدام مباشر مع الدول الخارجية خاصة دول الغرب (سيظهر ذلك للعالم كله أثناء أزمة الصوواريخ الكوبية فى عهد الرئيس الأمريكى كنيدى).

وأضاف خروشتشيف أن بعض دول العالم الثالث (المتخلف) التى تتيح لها ظروفها أن تدخل تحت مظلة المعسكر الاشتراكى أو تحظى بمساعدته. فإنها تُفسح الطريق لتوسيع نفوذ موسكو وبسط سياستها- فى هدوء نسبى- على مناطق حيوية من العالم.

وقد حدث ذلك فى العام نفسه مع تيسير موسكو بيع صفقة سلاح تشيكية إلى مصر، وصفقات أسلحة إلى الهند، وأفغانستان، وبورما.

عاش تيتو وعمر طويلا (٨٨ سنة)، حتى إن المحيطين به كانوا يشيرون إليه فى أحاديثهم فيقولون : «العجوز». وأمضى النصف الثانى من هذا العمر المديد وكأنه ملك، بل إمبراطور أو قيصر. وقد وصفه صديقه ميلوفان دييلاس الذى ظل يؤازره حتى سنة ١٩٥٤، فقال: «إنه رجل وُلد ثائرا، ويحمل فى باطنه مزيجا من حماس متميز مفرط نحو الشيوعية مع حب مفرط للسلطة.

وعلى غرار بعض زعماء وقادة دول أوروبا الشرقية الاشتراكية، ابتنى الفيلات والقصور بعد الحرب من أجل الاستمتاع الشخصى، حتى ولو كان يقضى وقتا قصيرا فى كثير منها».

وفى تعليق عنه لأحد المعلقين السياسيين: «عاش مع زوجته جوفانكا -حياة أصحاب المليارات». وهو وصف غير مكتمل. فإلى جانب أبهة ونعيم وبذخ أصحاب المليارات الذين ينعمون بها ويترفون، تضاف السلطة والسيطرة والتسيد فى دولة شيوعية رفعت شعار لنين: «إن القادة هم المثل العليا للطبقة العمالية؛ إن هذه الطبقة – البروليتاريا– تتطلب «مساواة مجردة فى الحقوق، وإنعدام الامتيازات إطلاقا، مهما كانت طفيفة، وهى عدو لكل تعصب قومى».

إن ابن المزارع البائس المعدم الذى عاش طفولة قال هو بلسانه عنها: «كنت مع إخوتى وأخواتى نبكى صغرا من الجوع. عشت السنوات السبع الأولى فى شقاء مستمر، وزاد الأمر سوءا أن هذه الفترة تزامنت مع أزمة غير عادية طاحنة كانت قاسية على الفلاحين،

وبصورة مفرطة فى مناطق مثل كرواتيا التى وُلدت ونشأت بها».. إنه هو نفسه – برغم كفاحه البطولى وانتصاراته التى لا تنكر ومواقفه التى لا تُنسى مع ستالين، وتشرشل، ودو جول، وماوتسى تونج..– نراه على الجانب الآخر الشخصى يعيش ويتنقل فى ثراء باذخ وترف قل أن يُضاهى فى بلجراد، ولو بليانا، وبربونى المطلة على بحر الإدرياتيك بحدائقها البديعة الفسيحة وقصرها المنيف (كانت هذه الجزيرة مقرا لإقامة العائلة الملكية الإيطالية سابقا). وقد وصفها البعض بأنها: «جنة حقيقية على الأرض»!

ما أكثر الزعماء والقادة الذين استقبلهم تيتو وزوجته جوفانكا(وكانت الزوجة الثالثة) فى هذا المقر الساحر : جمال عبد الناصر، مونتجومرى، بولجانين، خروشتشيف، فوستر دالاس، نهرو، هيلاسلاسى، وملك اليونان، وتشرشل، وعشرات غيرهم ، وقطار خاص فاخر أزرق اللون، ويخت بحرى

مدهش، وحدائق نباتات وحيوانات ملحقة بالقصور، غير الاستراحات المتناثرة داخل الغابات المعدة لرحلات الصيد.

فى آخر حوار صحافى سياسى جرى معه قُبيل وفاته عام ١٩٨٠ ذكر حقيقة واقعية كان على وعى دقيق بها، قال:

- إن القوى العظمى لها دائما أهدافها العظمى. وهناك دائما «من» يدفع ثمن تلك الأهداف. واليوم، يكثر شيئا فشيئا عدد الدول والشعوب التى لا تريد ولا تسمح بأن تتحقق تلك الأهداف«العظمى» من حسابها الخاص! إن الذى لا يحترم- قبل أى شىء- بلده ووطنه وأمته، لايمكن أن يحترم البلاد والشعوب الأخرى، ولن يجد الاحترام من تلك البلاد والشعوب.

فلما رحل تيتو عن الدنيا، انفرط عقد اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية الفدرالية، واحترب الساكتون على خوف ومضض. فسالت الدماء أنهارا، وخلفت الصراعات دمارا، وأثمر التعصب الدفين نارا وعارا.. وغربت شمس القرن العشرين بعد عشرين سنة من وفاة تيتو، ومازالت جراح البوسنة- الهرسك، وشروخ كوزوفو، وكسور بلجراد، وتصدعات الجبل الأسود (مونتنجرو).. مازلت تدمى، أو تتسع، أو تهترىء وتتداعى.. وفصول المأساة المروعة تتتابع.

ماو [1]

ولد ماو تسى تونج عام ١٨٩٣ فى قرية شى هان وكان والده فلاحا يعمل فى المزارع والحقول وفى عام ١٩١١ نشبت ثورة ضد الملك أدت للإطاحة به وأعلنت الجمهورية إلا أن الأمور سارت إلى الفوضى ولم تسيطر الحكومة المركزية على كل أقاليم الصين وكان ماو أحد مؤسسى الحزب الشيوعى الصينى عام ١٩٢١.

وفى عام ١٩٢٥ وضع ماو كتابه الأول «تحليل طبقات المجتمع الصينى» وأكد على دور الفلاحين فى الثورة والتغيير بينما كان ماركس يرى أن الثورة تقع على عاتق العمال فقط وهكذا طبقها السوفيات .

لكن ماو أطلق شرارة الثورة الشيوعية فى الصين من الريف وليس من المصانع فى قرية هوتان معتمدا على الفلاحين ١٩٢٥ ثم عين رئيسا لاتحاد الفلاحين عام ١٩٢٧ وبدأ فى بناء الجيش الثورى من الفلاحين ليخوض أول مواجهة ضد الدولة وفشلت المواجهة ففر إلى الجبال ثم أسس قاعدة حمراء سرعان ما انتشرت فى أجزاء كبيرة من الصين ثم وزع الأرض والأسلحة فى المناطق التى تحت حكمه لكنه تعرض لنقد عنيف من سلطات الحزب الشيوعى ثم تم صلح بينه وبينها فى يونيو ١٩٢٨ فى المؤتمر الرابع للحزب فى موسكو فاستطاع بذلك توسيع القاعدة الحمراء.

اصطدم ماو بقوات تشيانج كاى شك الرأسمالية الذى هاجم قوات ماو أربع مرات ثم انتصر عليه فى الخامسة فاضطر ماو للانسحاب فى إتجاه الشمال الغربى والقيام بالمسيرة الكبرى ثم رأس أمانة الحزب الشيوعى عام ١٩٣٥ ثم اضطر للتعاون مع عدوه الرأسمالى فى مواجهة

(١) ٢٤ شخصية سياسية هزت البشرية ـ ياسر حسين ـ اصدار دار الراية .

اليابان التى احتلت إقليم منشوريا ١٩٣٧ ثم هزمت اليابان ١٩٤٥ وكان السوفيات يضغطون للحل السلمى وإجراء إنتخابات لكن ماو أطلق مقولته الشهيرة «تخلوا عن أوهامكم واستعدوا للنضال» فقاطع الإنتخابات التى نظمها تشانج كاى شيك ليبدأ حرب أهلية (٤٦-١٩٤٩) وانهزم ماو فى أول الأمر لكنه عاد ليشن هجوما رهيبا فى (٤٨-١٩٤٩) واحتل بكين وشنغهاى وكانتون حتى فر منافسه الرأسمالى إلى جزيرة تايوان وفى اكتوبر ١٩٤٩ أعلن ماو فى العاصمة بكين جمهورية الصين الشعبية بعد حرب أهلية استمرت ٣٦ عاما.

حارب ماو الفقر والتخلف والأمية وبدأ مشوار التصنيع واعتنى بالتعليم والصحة وحول البلاد من النظام الرأسمالى إلى النظام الشيوعى اقتصاديا وقاد حملة ضد تعاليم كونفوشيوس وهو فيلسوف صينى قديم حتى تحل محلها تعاليم ماركس التى لا تسمن ولا تغنى من جوع فعاش الشباب فى فراغ عقائدى وأحدث ثورة إجتماعية جعلت الولاء للفرد يتحول من العائلة للدولة.

ألغى ماو البغاء ولما وجد أن الأمر صعبا حاول تقليد تجربة يوجسلافيا وهى جمع العاهرات وإرسالهن لمزارع البطاطس فى موسم الحصاد وفى الصيف يعيدهن للمدن لـ «تسلية السائحين»

وقد خجلت بعضهن ورجعت عن الدعارة والتجربة فاشلة لأن المنطق الذى يحاول أن يسرق مال السائحين بأى شكل حتى ولو كان الثمن هو شرف البلاد هو منطق خاطئ ولو نظر ماو للمبادئ الإسلامية وطبقها لوجد فيها الدواء الناجع.

فى الخمسينات طبق ماو نظام الكوميونات وهى شبيهة بالمستوطنات

الإسرائيلية والكوميونة تحقق النظام الذاتى زراعيا وصناعيا وتصدر فائض إنتاجها للدولة ولا توجد ملكية فردية والمطاعم عامة (بما يشبه نظام الميس فى الجيش) ويفصل الأطفال عن آبائهم وأمهاتهم ويحرم الزوج من زوجته باستثناء العطلة الأسبوعية ومن الواضح أن هذا النظام يعظم قيمة العمل على حساب القيم الأسرية ويحرم الطفل من الحنان والدفء ويحرم الزوجة والزوج من السكن والمودة ويعادى الفطرة الإنسانية المحبة للتملك والخصوصية فى الطعام والأسرار وما إلى ذلك إذ هو يساوى فى غير موضع المساواة.

قاد مشروع القفزة العظيمة للأمام عام ١٩٥٠ ولكنه فشل ثم أعلن الثورة الثقافية فى الستينات كحرب ضد البيروقراطية إذ أصدر «الكتاب الأحمر» شرح فيه فلسفة الثورة وأطاح بالرئيس ليوتشاوش وعددا من القيادات التقليدية معتمدا على الجيش والحرس الأحمر ووقعت مذابح كبرى وكان ماو ديكتاتوريا وحاكما مطلقا كمم الأفواه وقيد الحريات وضيق على المعارضة وأضاع حرية الصحافة وأخرس كل صوت مناهض وقمع المسلمين وأنهى مطالبهم بالاستقلال.

اختلف ماو مع السوفيات فى تفسير ٢٥ بند من النظرية الماركسية وظهر الخلاف واضحا عام ١٩٥٤ أثناء حكم خروشوف للاتحاد السوفياتى ورفض أن يكون الاتحاد السوفياتى هو النموذج الذى يحتذى به فى تطبيق الشيوعية والتبعية له ولم يعتبر موسكو قبلة الشيوعية ونكاية فى الاتحاد السوفياتى أيد قيام كتلة عدم الانحياز وشارك فيها بدور إيجابى.

فكان رد الفعل أن اعترفت مصر بدولة الصين الشعبية بزعامة ماو وتلتها العديد من الدول ففكت الصين بذلك الحصار الدبلوماسى الذى

مارسته عليها أمريكا ونجحت أيضا فى اختراق الستار الحديدى الذى فرضه الاتحاد السوفياتى على دول أوروبا الشرقية.

إذ أقامت علاقات وثيقة مع البانيا فى عهد أنور خوجة وفجرت الصين القنبلة النووية وانضمت إلى الأمم المتحدة كأحد الدول الخمس العظمى وأصبح لها حق الفيتو ولم تتحسن العلاقات مع أمريكا إلا فى نهاية عهد نيكسون بسبب زيارة فريق كرة الطاولة (البينج بونج) الأمريكى للصين.

وكان ماو قد ساعد كوريا الشمالية الشيوعية ضد أمريكا أثناء الحرب الكورية ثم ساعد فيتنام ضد أمريكا نعى ماو على أمريكا والاتحاد السوفياتى مخططات الهيمنة على الشعوب بينما كانت الصين تقمع شعب تركستان المسلم لا بل وتحتل نيبال وتحاول أن تفرض عليها معتقدات مخالفة لدينها واعتقلت زعيمها الدلاى لاما، وكما سقطت الشيوعية فى الاتحاد السوفياتى بسبب الإلحاد أساسا فستسقط فى الصين .

دنج شياو بينج

(الأمبراطور الشيوعى)(١)

ينحدر من أسرة لا يزال يذكرها المسنون فى قريته ويتحدثون إلى الشباب عنها، لأنها فى بداية القرن العشرين كانت تزهو بأنها على صلة بالقصر الإمبراطورى. فجده الأعلى كان من كبار موظفى البلاط، وكذلك كان ابنه ثم الحفيد. ولكى يشغل المرء هذا المنصب آنذاك فى الصين، كان لزاما عليه أن يتخطى بنجاح عددا من الاختبارات القاسية، المؤلمة، الدقيقة، التى لا يتحمل أخطارها ورهبتها إلا من تشربت خلايا جسمه حتى النخاع تعاليم الكونفوشيوسية القديمة، حتى يكون جلدا، صبورا، حصيفا، جديرا بخدمة الإمبراطور «ابن السماء» – كما كانوا يظنون – ولكى يقوى على التصدى لخبائث البرابرة الغربيين الأجانب، الذين «يستجدون فى البداية تجارة مع (المملكة السماوية) ثم يمكرون بها إن استطاعوا».

إن حياة «دنج شياو بينج»، هذا الرجل القصير قامة، المستدير وجها، سارت مواكبة لسنوات القرن كله أو تكاد. فقد ولد فى سنة ١٩٠٤، ومات فى ١٩٩٧. تنقل خلالها بين العصر الإمبراطورى، والهجمة الاستعمارية الشرسة، والحرب الأهلية المستعرة، والمجاعة المهلكة، والبلايا المحدقة، واشترك فى كفاح «ماو» وإقامة نظامه الشيوعى، وشهد ثورة التطهير الثقافى واكتوى بنيرانها، ونجا من الإعدام وكان على بُعد خطوات منه، وأطبقت عليه أحداث ما بعد «ماو» بصراعاتها ومؤامراتها وقلاقلها تبتغى رقبته أو كتم أنفاسه.

لكنه فى كل مرة، كان يشب أو يطفو، ويبرز عاليا ثم يخبو، إلى أن قُدر له فى النهاية أن يقود دولته التى يسكنها خمس سكان الأرض من البشر (أكثر

(١) رجال صاغوا القرن ـ فؤاد شاكر ـ مجلة الأسرة .

من مليار وربع مليار نسمة)، وأن يدخل بهم فى منعطف جديد، يليق بمكان الصين، ونظرتها إلى نفسها وإلى العالم، ونظرة العالم إليها وتوقعاته منها فى القرن الحادى والعشرين.

يكفى أنها حتى الآن - فى ختام القرن ومع نموها المتصاعد وانضباطها النسبى الشديد - تقف بصرامة وصلابة : حدا وندا وغُصة فى حلق الشرطى العالمى الأمريكى المتغطرس، ومن يلوذ به - فى الغرب - أو يستنفره لعدوان.

فى عام ١٩٢٠، ترك الشاب «دنج» قريته ورحل إلى ميناء شنغهاى. فتعلم شيئا من اللغة الفرنسية أتاح له الحصول على منحة دراسية فى فرنسا مع مجموعة من الشباب أقرانه. وعن هذه المنح قال فيما بعد : «كان الشعور السائد فى الصين أن دولتنا ضعيفة، فأردنا أن نجعلها قوية، فسافرنا إلى الغرب واحتملنا متاعب الغُربة لنتعلم». وكانت فى الواقع غُربة قاسية كثيرة المتاعب، لسوء الأحوال الاقتصادية فى فرنسا. إذ لم يكن من الميسور على طالب مثله أن يجد عملا مناسبا لبعض الوقت.

فاضطر إلى قضاء خمس سنوات متنقلا بين أعمال بسيطة مثل: الخدمة فى مصنع للأسلحة، أو بالفنادق، أو بالسكة الحديد، أو فى مصنع للأحذية المطاطية. وهناك - فى فرنسا- أحب لعبة البريدج، وتفوق فى ممارستها، وبلغ حبه لها أن رهن يوما معطفه ليتمكن من شراء تذكرة دخول لمشاهدة مباراة فيها!

وانضم فى تلك الفترة إلى تنظيم البروليتاريا، فأصبح عضوا فى تشكيلات الطبقة العمالية، وتعلم شيئا عن الشيوعية من عمال المصانع اليساريين فى فرنسا.

وفى عام ١٩٢٢، انضم إلى تنظيم الشباب الشيوعى، وتولى مهمة نسخ

وتوزيع نشرات أخبار الحزب، ويسر له ذلك السفر إلى موسكو لدراسة الماركسية اللينينية(١٩٢٦).

فلما عاد إلى الصين، نشط فى الدعوة إلى أفكاره الجديدة بدعم من السوفييت (فى موسكو)، وفى أقصى الجنوب الصينى التقى بماوتسى تونج. فنشأت بينهما صداقة وطيدة، دعمها نفور الإثنين من التدخل المباشر لموسكو فى شئون الحزب الشيوعى الصينى فى شنغهاى، وتوجيه مساره حتى يمضى وفقا لمشيئتها وبأسلوبها.

ولما كان «دنج» رافضا لهذا الأسلوب، فقد آزره «ماو» فى فكره ومنهاجه وهو موقن بصوابه. واشترك الإثنان معا فى تكوين قاعدة للجيش الأحمر بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ فى جنوب منطقة جيانجشى. فقويت أواصر الألفة والصداقة الحميمة بينهما.

لكن الصراع داخل الحزب - الذى كانت تغذيه موسكو - أدى بأنصارها إلى إبعاد كل من ماو وصديقه دنج عن المواقع القيادية. وفى هذه الأثناء انفصلت عنه زوجته الثانية «جين» (ولا يُعرف شىء يذكر عن الأولى)، فارتبطت على الفور بزعيم المناوئين له والمتشددين ضده. وعلى الرغم من اعتصاره فى جلسة نقد وتأنيب وضغط نفسى شديد، إلا أنه لم يوافق على مفارقة ماو أو التخلى عن آرائه وتعضيده. فلقى عنتا مؤلما من أكابر « القوميين» الغُلاة.

ثم تغير الحال والمصير بعد عام ١٩٣٤ على أثر نجاح «المسيرة الكبرى» التى خاضها ماو، وانضم إليها الجيش الأحمر من جيانجسى، وقطع فيها مسافة ١٢٠٠٠كم من الجنوب إلى الشمال فى نحو عام، وهلك فى الطريق من بينهم نحو تسعين ألف جندى. لكن هذه المسيرة ضمت إليها طوال زحفها مئات الآلاف من المواطنين الناقمين على الفساد والأوضاع المتردية فى الصين! وهى

المسيرة التى أفرزت أبطال وقيادات الشيوعيين الصينيين فيما بعد، وصار ماو من بعدها الزعيم القائد الذى لا يجادل ولا يعارض.

التقى دنج فى «ينان» بزوجته الثالثة «زهو- لين» التى أنجب منها ثلاث بنات وغلامين. لكن الحرب الدموية التى دارمت رحاها وامتزج نزيفها بجراح الغزو اليابانى المسلح، لم تترك لدنج وقتا للاستمتاع بدفء الأسرة أو حتى بدفء مكان هادىء يقيم فيه. وفى عام ١٩٤٠ طلب من ماو أن يعود بأسرته إلى مسقط رأسه فى قريته «بيفانجكون» بعد إبلاغه بأن مجهولين اغتالوا أباه واحتزوا رأسه. فلما مُنى اليابانيون بهزيمة كسرت شوكتهم (١٩٤٥)، بادر دنج بالنزوح إلى وسط الصين على رأس فرقة مسلحة، فأجبر «القوميين» على الإنسحاب ممهدا الطريق لماو لكى يُحرز انتصار أكتوبر ١٩٤٩.

بإعلان قيام «الإمبراطورية الشعبية»، علا نجم دنج وتسارع صعوده. وبعد أن كان ترتيبه الثامن والعشرين فى التسلسل القيادى للحزب الشيوعى فى عام ١٩٤٥، أصبح فى عام ١٩٥٦ السكرتير العام للحزب، وأحد النواب الأوائل الإثنى عشر للرئيس ماو. وفى العام نفسه، تولى خروشتشيف سلطة الرئاسة فى الاتحاد السوفييتى بموسكو وانتقد بشدة أعمال ستالين اللاإنسانية أمام الاجتماع العشرين السرى لمؤتمر الحزب.

ومن هذا الموقف السوفييتى تعلم دنج درسا ظل عالقا بذاكرته إلى آخر عمره : نبذ «عبادة الأشخاص» أيًا كانوا ومهما فعلوا أو علوا عُلوا كبيرا.

ونقل هذا الدرس إلى ماو بعد عقد من الزمن ، لكنه دفع هو الثمن ! إذ كان سببا فى تحريك الحرس الأحمر نحو ما عُرف «بالثورة الثقافية» الطائشة الباطشة. وفى الحق، كان دنج إلى ذلك الحين، مخلصا كل الإخلاص لماو ، مصدقا لما معه من فكر ورأى ومنهاج. وبينما كان ماو مشغولا بتجريع منافسيه

المثقفين سم التهطير من «جراثيم» اليمينية المعدية، كان دنج يجمع وينظم حملة بلا رحمة ضد ما يقرب من نصف المليون من «رفاقه العقائديين» المناهضين لسياسة الزعيم.

ولقد أثنى ماو على ما فعل . فعندما كان فى زيارةٍ لموسكو عام ١٩٥٧، انتحى جانبا بخروشتشيف وقال له وهو يشير من بعيد إلى دنج : «انظر إلى هذا الرجل القصير هناك .. إنه مفرط الذكاء، وله مستقبل عظيم يعلو كثيرا فوق قامته»! ومع ذلك، كان من ثمرةِ «الصداقة الحميمة» بين العملاق والقصير الصينيين، واحدة من أكبر المآسى البشرية فى القرن العشرين، وفى تاريخ الصين كله.

فقد أُهلك من الشعب الصينى مابين ثلاثين إلى أربعين مليونا نتيجة «القفزة الكبرى للأمام» التى اختطها ماو ونفذها بكل الجبروت والعنف. وهى القفزة التى حققت ما يعادل إنتاج بريطانيا الصناعى – فى المستوى الإنتاجى العام– فى مدة خمسة عشر عاما. كانت محاولة من ماو لإثبات أن الدولة الغارقة فى الفقر، تستطيع –إن أرادت بحزم وعزم وقوة أن تطفو من القاع وتعلو ثم تعلو إلى مستوى رفيع مرتفع من التقدم والتمدن.

لكن التطبيق العملى غير العلمى فى مجال الزراعة، واستخدام تكنولوجيات عقيمة متخلفة، كانا من العوامل الرئيسية التى شوهت تلك «القفزة»، التى حولت الصين إلى «دولة كبرى» حقا، لكنها تنطوى على مناطق شاسعة متناثرة مُجدبة أو غير منتجة، تئن من الفاقة ومن آلام الجوع، وأهلكت عشرات الملايين.

ولم يستطع أحد من قيادات «القفزة الكبرى للإمام» أن يبرئ نفسه أو يعفيها من المسئولية : لا رئيس الوزراء «شو – إن لاى» الذى كان متشككا فى جدوى التعاونيات فالتزم الصمت المهذب، ولا القيادى المتظاهر بحسن السجايا

ونُبل النوايا : الرئيس : «ليو- شاوكى» الذى انسحب متواريا إلى جزيرة «هيتان» تجنبا للإفصاح عن أسباب المجاعة.

أما «دنج» نفسه، فقد أعلن فى تملق وزعم مداهن : «إننا جميعا نستطيع أن نحقق الكثير بقدر ما نريد، ونتوقع محاصيل وافرة من الحبوب». فأغاظ بقوله الجوعى فى مقاطعته، وهاجموا بيته وكادوا يحطمونه.

ورفض ماو أن يصدق فحوى التقارير التى رُفعت إليه، فجاء تعليقه عليها ساخرا : «حتى ولو كان هناك بعض القصور، فلا بأس .. لأن أسوأ ما سوف يحدث، أن العالم الخارجى كله سوف يضحك كثيرا فى تهكم مما حدث»! وما إن حل عام ١٦١، حتى وقع ما هو أسوأ من هلاك الناس من فرط الجوع..

حدث أن الصين ذاتها كانت على حافة الإنهيار. وحينذاك، أعلن «ليو» أن الوقت قد حان للقيام بقفزة فى إتجاه آخر. وتضامن معه دنج، وساعده فى تنفيذ خطة للإصلاح الاقتصادى. وأعلن فى أثناء زيارة لمدينة «جوانجزهو» على الملأ : «ليس المهم أن تكون القطة سوداء أو بيضاء طالما كانت تمسك بالفئران» . كان يقصد : أن أى طريقة لمعالجة الأمور المتردية يمكن تجربتها إذا كانت ستؤدى إلى طرد المخاوف وإطعام الناس. لكن هذه الكلمات ذاتها التى جاهر بها، سوف تُستخدم ضده فيما بعد.

ظل ماو يُصدر أوامره بتجربة محاولات زراعية أخرى ساذجة، تاركا لكل من «ليو» و «دنج» تصريف الأمور والسياسات فى اتجاه آخر. وذات مرة استشاط ماو غضبا من محاولاتهما البيروقراطية لإرضاء الجماهير، فصاح مُحنقا: «أى إمبراطور قرر هذا ؟!»

ولم يملك فى النهاية إلا الإعتراف بأن الصين تنهشها المجاعة وتوشك على الهلاك. لكنه لم يغفر لهما أبدا تخليهما عن مدافعة النقد الذي وُجه إليه فى تلك

المحنة. فلما زاد سخطه عليهما، لام دنج على أنه يتجنب الجلوس إلى جواره فى الاجتماعات.

وفى عام ١٩٦٢ اتهم ليو، ودنج وصاح متوعدا : «لقد تحملت طويلا دقكما للمسامير فى جسدى!.. والآن سوف أذيقكما مَرة طعم الفزع!». فجاء انتقامه متأخرا بعض الشيء : مع الثورة البلوريتارية الثقافية عام ١٩٦٦.

فقد ارتفعت لافتات ضخمة كُتب عليها بحروف كبيرة : «انسفوا رءوس القيادات العفنة».

فكان هجوم ماو على الحزب، وإبعاد «ليو» و«دنج». فظفرت «جيانجج كينج»- زوجة ماو الراديكالية المتذمرة- بفرصتها لافتراس دنج، بحجة إصلاح الثقافة الصينية وتطهيرها من الفساد. فحولت الأوبرا التقليدية إلى مساخر للدعاية الفجة.

واتهم دنج بالفاشية، والخيانة، وبطائفة من الجرائم الأخرى. وقُدم - مع ليو- للمحاكمة العلنية فى أغسطس ١٩٦٧.

وفى إحدى جلسات المحاكمة كُسرت ساق ليو، ثم مات سنة ١٩٦٩ فى سجن مؤقت بمدينة «كيفنج». وخلال المحاكمة وصف رجال الحرس الأحمر دنج (الذى أنشأ هذا الحرس) بأنه «متسول الرأسمالية»، «خائن وفاشى»، وصاح بعضهم : «عليكم بطهى رأس الكلب فى ماء يغلى» !! وظل الهجوم السافر عليه لبضع ساعات، وهو صامت مُحتقن الوجه من الغيظ. وكل ما فعله، أن نحى عن أذنيه سماعة التقاط الأصوات إذ كان سمعه قد ضعف.

والذى أنجى رأسه من القطع، بقية من الذكريات القديمة -عن مواقفه أثناء الحرب الأهلية- مست مشاعر ماو، فاكتفى بتسفيه معارضة صديقه القديم، لأنها «غلواء رجل طموح جشع طفا من بين مراتب الشعب».

وسمح لدنج وزوجته بالمعيشة فى بيتهما بالعاصمة تحت حراسة مشددة ومراقبة مستمرة. فأذعنا هكذا لمدة عامين، ثم أمر بترحيلهما إلى الجنوب للاقامة داخل القاعدة الثورية القديمة فى جيانجشى. فسكنا جانبا من مدرسة مهجورة للمدفعية، وأُلزما بالعمل نهارا فى مصنع للجرارات.

وأشد ما أحزنهما فى تلك الفترة: موت الشقيق الأصغر لدنج، بعد أن دفعه الحرس الأحمر إلى الانتحار، ثم اصابة ولدهما «دنج بوفانج» طالب الفيزياء بجامعة بيكين إصابة أعجزته، فقد زُعم أنه سقط من نافذة بالدور الرابع بالجامعة– وقيل إن الطلبة الشيوعيين الماويين المتطرفين هم الذين دفعوه نحوها عنوه فأصيب بكسر فى عموده الفقرى أدى إلى الشلل.

أمضى دنج فائض وقته بهذا المنفى الكئيب فى القراءة، والمشى فى ممرات البيت، وفى التفكير المتواصل فيما تحتاجه الصين، ومراجعة الحسابات وسابق التقديرا، للخروج بالبلاد من انتكاستها، والنهوض بها عفية من كبوتها. وواتته اللحظة المناسبة في عام ١٩٧٣ حين ضعفت قوة الحرس الأحمر، وأدرك الجيش أن من واجبه التدخل لتدعيم وحماية المواقع المدنية مع تصاعد السخط العام.

وخشى ماو من تفاقم سطوة جيش التحرير الشعبى الذى أضرم نيران الثورة الثقافية ومحارق التطهير. فرأى أن «دنج» - الذى كان لا يزال يحظى باحترام العسكريين– هو وحده القادر على كبح جماح المتطرفين والحد من غلوائهم.

وفوجىء المدعوون إلى حفل أقيم لاستقبال الأمير الكامبودى سيهانوك، بدخول ابنة أخت ماوتسى تونج إلى القاعة متأبطة ذرا ع دنج شياو بينج، فدوت الأكف بتصفيق حاد متواصل. ومع ذلك، ظل دنج خارج دائرة السلطة المركزية للحزب، وإن استرد منصبه كنائب للرئيس. وعلى مدى عامين قدم عونا كبيرا فى

وضع برنامج عملى للإصلاح أدى تطبيقه إلى دفع الصين نحو نمو سريع. ولكن، فى أوائل عام ١٩٧٦ أعلنت جيانج كينج - زوجة ماو- وجماعتها المتطرفة التى عُرفت باسم «عُصبة الأربعة»، أعلنت إتهامها لدنج بأنه حرض على تنظيم مظاهرات جماعية عدائية. فأسرع دنج مبتعدا إلى مدينة جوانجزهو.

فى ذلك الوقت، كان ماو رجلا مريضا واهنا مترددا فى قراراته، ضعيف الثقة بزوجته وعُصبتها، يكاد يكون وحيدا قد تخلى عنه أنصاره الأقربون. إلا أن ماو رفض أن يطرد دنج من الحزب، واكتفى بالقول: «دعوه، ولا تسحبوا منه بطاقة الحزب لكى نرى من سوف يتبعه». فأصبح الأمر عند الجميع مرهونا بالانتظار حتى تحين ساعة موت ماو، وعندها سيظهر من الأقوى والأقدر على اقتناص السلطة والسيطرة.

ومن جانبه قال دنج: «لقد هيأت نفسى للأسوأ». لكنه فاز بالأحسن . بعد موت ماو (سبتمبر ٧٦) بشهر واحد، كانت جيانج وعصابة الأربعة فى ظلمات المعتقل. وفى العام التالى عاد دنج إلى العاصمة للمرة الثالثة والأخيرة، وظل بها «سيدا» مُطاعا مُهابا إلى أن رحل عن الدنيا (١٩٩٧).

فى قرية «بيغانجكون» مهبط رأس دنج، نوع مُعمر من الصبار الشوكى إذا انبثقت أزهاره كل مائة سنة. تفاءل أهل القرية وتوقعوا حظا سعيدا مبهرا لواحد من بينهم . فى عام ١٩٧٩ أزهر الصبار بالقرية بعد طول انتظار! وفى تلك السنة كان دنج - ابن هذه القرية- يجلس فى بيكين على عرش «إمبراطورية» الصين، قابضا على زمام السلطة العليا بيد من فولاذ، بعد أن أطاح بالماويين ومن كانوا يُعدونه خليفة للزعيم الراحل.

تحت سمع وبصر دنج - ووفقا لسياسته الجديدة - أصبح فى مقدور ملايين الفلاحين الصينيين أن يمتلكوا قطعا صغيرة من الأراضى يزرعونها

بحرية لحسابهم، وأن يبيعوا بحرية الفائض لديهم من المنتجات والمحاصيل، وأن يستثمروا أموالهم فى المصانع والمعامل بالقرية. وسرعان ما تغيرت الصورة فى الريف والقرى، حيث أن ٨٠٪ من سكان الصين يعيشون بها . لم تعد مجاعة ولا شح فى مواد الطعام ، بل صار البعض يملك من المال ما يكفى لبناء بيت يسكنه ويتملكه، ويزوده بأجهزة التليفزيون والثلاجة وغسالة الملابس الكهربائية.

هاهو «ربيع بيكين ١٩٧٩» يُزهر، ويُلقى ظلاله على حطام «القفزة الكبرى» ودمار «الثورة الثقافية»، وتلمع أضواؤه فى عيون مئات الآلاف من «المنشقين» السابقين الذين اكتووا بنيران المعتقلات والسجون.

وفى عام ١٩٨٢ كانت الإصلاحات الاقتصادية تُنضج ثمارها فى جنبات المدن الكبرى، وفى الوقت نفسه كان أعضاء «الحرس الماركسى القديم» يسخرون بشدة من «ملوثات الأذهان والنفوس»، وينتقدون المراقص الشبابية (الديسكو)، والمساحيق النسائية، وأدوات الترف والتزيين. لكن دنج صبر وصمد، وشبه هؤلاء «بالذباب الذى يتسلل عبر النافذة المفتوحة على الهواء الطلق».

ولكن .. فى أواخر الثمانينيات انماعت نتائج التحرر الاقتصادى المحدود، تحت ضغوط الحنين إلى التداعيات السياسية ومتطلباتها البراقة وطموحاتها نحو التغيير المستمر ولو كان غير مأمون العواقب. فكانت القلاقل العمالية، ومظاهرات الطلاب الشهيرة فى ميدان «تيانانمن» المنادين بالحرية، مما ضايق دنج وأوقعه فى حيرة. فترك لرئيس الحزب «هو- ياويانج» تنفيذ الإصلاحات السياسية.

وتنازل (دنج) عن كل الألقاب التى كان يحملها، واحتفظ فقط بلقب، رئيس اتحاد البريدج الصينى». وتخلى فى عام ١٩٨٩ عن موقعه الخطير الدقيق: رئيس اللجنة العسكرية المركزية. ومع ذلك، عندما زار الصين بعد فترة الرئيس

السوفييتى «ميخائيل جورباتشيف»، صرح له رئيس الوزراء «زهاو زيانج» بأن جميع القرارات الكبرى التى يصدرها المكتب السياسى للحزب لا تُعلن إلا بعد موافقة دنج عليها.

فجأة جاء الرخاء، وتسلل مع الفساد وباء!.. أقبلت الدخول الكبيرة، وتولد منها التضخم، ومعاناة المستويات الفقيرة، وأطلت أشباح الرشوة والعمولة والسمسرة وسرقة المال العام، وإن كانت فى نطاق ضيق وليست على شكل وباء كما فى دول كثيرة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. فالأحكام والعقوبات على هذه الجرائم سريعة صارمة وقد تصل إلى الإعدام. (من الطريف: أن الذى ينفذ فيه حكم الإعدام تدفع أسرته تكاليف التنفيذ!).

وبعد حرمان وكبت طويل مرير، تطلعت النفوس إلى رغائب ومطالب وبدائل. وفى أبريل ١٩٨٩، تجمع آلاف من الطلاب فى ساحة «تيانانمن» بالعاصمة، واعتصموا بها، مطالبين بمزيد من الإصلاحات والتغييرات والتطهيرات والحريات. ولم يهدأ صياحهم يوما كاملا وليلة، ولم ينم دنج فى تلك الليلة. فاستدعى الجيش ليكتسح الساحة، وقد جعلها للعسكريين مُباحة، فوقعت مصادمات شرسة وضحايا، وتناثرت أشلاء كثيرة ودماء، ثم خلت الساحة إلا من عشرات الدبابات.. وساد الصمت! (١)

لكن أصواتا أخرى ارتفعت من صفوف المعارضين والمنافسين لدنج، مستغلة فرصة إضراب الطلاب، لكى تنتقد سياسته فى الإصلاح، وتسفه آراءه فى التطوير، وميله نحو الأساليب الغربية الضالة المضللة. فآثر دنج السكوت. لكنه سكوت مقدم العاصفة. فلما ألزم نفسه الانتظار، والترقب، والتأهب للإنطلاق، ظن الناقمون أنهم غلبوا وأحرزوا انتصارا لمآربهم.

---

(١) قيل إن الدبابات دهست ٥٠٠٠٠٠ طالب صينى.

وفى فبراير ١٩٩٢ واتته الفرصة المناسبة للهجوم، فقد أدرك أن مشاعر الغالبية من الجماهير مستاءة من انتقادات المحافظين المتشددين المعارضين لسياسته الإصلاحية والاقتصادية، فخرج من عزلته إلى الناس، مواجها شانئيه بصراحة وصرامة وقوة.

ثم استخدم فى الاقناع وسيلة عملية بسيطة : اصطحب كبار المسئولين فى الدولة إلى جولة بالمدن التى أحسنت تطبيق سياسته وبرامجه للاصلاح والانماء والتحديث، فأبهرهم -وأبهرت منافسيه- ما أطلعهم عليه من إزدهار وتطور اقتصادى متسارع.

كان دنج متقدما فى السن، متقاربا من الصمم الكامل، لكن لسانه ظل منطلقا يدعو الصينيين إلى «اقتناص الفرصة الذهبية» التى أتاحها لكى يمضوا سراعا نحو مستقبل أفضل وأرغد، بلا خوف أو تردد، وعلى نهج السوق المفتوحة أو السوق المتحررة. فكانت النتيجة : تفجر الطاقات البشرية الساعية نحو التحسين، ونمو نسبى مطرد فى الاقتصاد، واقتناع متزايد بآرائه، وعُلو قدره بين الملايين، مئات الملايين من الصينيين، ومئات ملايين غيرهم خارج الصين، أولئك الذين يتوقعون لها دورا قياديا بارزا رائدا ومؤثرا فى القرن الحادى والعشرين.

ثم كانت آخر كلماته وكأنها بلسان حكيم صينى قديم: «إن الزعماء والقادة رجال.. بشر.. وليسوا آلهة» ! أى أنهم عرضة للصواب وللخطأ. فما كان من خطئهم يصحح أو يُترك، وما أصابوا فيه يُصان ويتبع.

وبينما رقد ماوتسى تونج محنطا فى مقبرته الضخمة المطلة على ميدان «تيانانمن» فى قلب العاصمة، إذا بدنج شياوبينج العجوز يوصى بأن تُنتزع عيناه بعد وفاته وتُسلما لدارسى الطب، وأن يُحرق جسده ثم ينثر رماده فوق مياه البحر، ولا يُقام له نصب أو تمثال أو ضريح.

وارتضى لنفسه أن يعيش ما تبقى له من أيام فى بيت خارج العاصمة، شبيه بالمخزن الحكومى الكالح، واسمه يُغنى عن وصفه : «ميليانجلو»، معناه : مخزن حبوب الأرز. وأخيرا هناك، وجد «الإمبراطور غير المتوج» متسعا من الوقت للاستمتاع بدفء الأسرة، ولعب البريدج، والتفكير الهادىء فى معنى الحياة. وإلى الشرق، على مقربة من مسكنه، ربما تراءت أشباح : لآخر أباطرة أسرة «مينج» الذى شنق نفسه فوق تل «كوال» القريب.

ومن الساحة غير البعيدة التى فيها أُطلق الرصاص على الطلاب المتظاهرين فى عام ١٩١٩ احتجاجا على الظلم، والفساد الحكومى، ومساوىء الاستعماريين الدخلاء، فسقط من هؤلاء الطلاب الشباب عشرات القتلى ومئات الجرحى خلال ساعات. وقد تختلط أشباح هؤلاء وهؤلاء بخيالات ملايين الهالكين جياعا نتيجة أخطاء ماو فى تطوير الزراعة والإنتاج، ولربما طافت حول مسكن دنج روح هذا العدو الصديق، الذى سوف يحدد التاريخ - حين يحين الحين - من كان منهما المخطىء ومن كان المصيب ؟ .. من كان الأنسب للماضى ومن كان الأفضل للمستقبل ؟ .. أم يكفى أن يُقال : «كل منهما كان رجلا .. بشرا .. وليس من الآلهة»!.. وما من إله إلا الله !

شي جيفارا[1]

لم يُقدر له أن يرى بعينيه نجاح الثورة التى أشعلها فى كوبا، فقد آثر أن يتركها لرفيقه فيديل كاسترو يرعاها ويواصل تأججها (ثم خمودها) ويمضى هو إلى مناطق أخرى من القارة الأمريكية التى كانت تنتظر بشوق ولهفة مقدمه ليحرر، ويُحرك، ويطيح بأنظمة ديكتاتورية فاسدة قاهرة. وحين ألقى عصاه فى بوليفيا مناضلا مع الثائرين كان اسمه «جيفارا» أو لقبه «شى» على كل لسان بين جماعات وفصائل الثوار حول العالم، ورمزا للبطولة العصرية المكافحة للظلم الاجتماعى والاستبداد حيث كان.

فلما قُتل غدرا فى ٩ اكتوبر ١٩٦٧ (فى بوليفيا)، ونُشرت صورته فيما بعد وهو مسجى مفتوح العينين يلطخه الدم، صارت تلك الصورة ذاتها مطبوعة على الأعلام الحمراء المرفوعة فى باريس، وروما، وموسكو، وفى أمريكا اللاتينية والجنوبية، وكل قارات العالم، وكأنها هى الرمز، والشعار، وصيحة الدعوة إلى التحرر والنضال. وتحول بمقتله إلى ملحمة، إلى أسطورة، أصبح نشيدا شعبيا يُغنى بكل اللغات، مطلعه :VIVA GUEVARA - يحيا جيفارا».

على غرار المتبع فى تقاليد الأسر الثرية التى تبغى تثبيت جذورها فى البيئة والمجتمع عبر الأجيال (وكذلك كان يفعل الملوك قديما مثل لويس الأول إلى لويس السادس عشر)، وُلد جيفارا فى الأرجنتين - بمدينة بيونُس أيرس - لأسرة من كبار المزارعين الأثرياء، فمنحه أبوه اسمه «إنستو»، وفى العام التالى (١٩٣٠) أعطت أمه «سيليا» اسمها إلى شقيقته. فلما بلغ سن الخامسة، بدأت أمه تعلمه القراءة والكتابة.

وعاش إرنستو الصغير طفولته متنقلا بين منازل الأسرة التى أقامتها فوق

---

(١) رجال صاغوا القرن - فؤاد شاكر - مجلة الأسرة .

هضاب عالية، لأنه كان يعانى من آلام مرض الربو. لكن هذا المرض لم يمنعه من ممارسة الألعاب الرياضية، خاصة الرجبى، بل أكسبه إرادة فولاذية، فكان يُطلق عليه لقب: «المرعب»، أو «سرنا» وهو اللقب البورجوازى الذى تحمله والدته «سيليا دو لا سرنا».

كانت أمه - سليلة أسرة ثرية مرموقة منذ سبعة أجيال متعاقبة - تتسم بالرشاقة والجمال، وهى من أوائل الأرجنتينيات اللاتى كن يجرؤن على قيادة السيارة والسباحة فى النوادى القاصرة على النخبة من الرجال ذوى الحظوة والنفوذ. صحبته يوما إلى شاطئ نهر ريو ليسبح معها، وبعد فترة أخرجته من الماء ووضعته على الشاطئ فوق منشفة، ثم عادت تستكمل سباحتها لفترة طويلة دون أن تشعر بهبة رياح جعلت إرنستو الصغير يرتعد بشدة. وعندما عادا إلى البيت كان يسعل بألم حاد.

وقرر الطبيب أنه أصيب بأزمة ربو، ظلت تلازمه طوال حياته. لكن الغريب فى الأمر أنه من بداية مرضه كان يرفض العلاج، ويقاوم التعود على استخدام بالونة الأوكسجين عند تعرضه للأزمة. وكان يظل يسعل حتى يزرق لونه من الإختناق ثم يشير لأبيه بإصبعه نحو فمه ليسعفه بضخ الهواء فيه. ومن هنا لاحظ القريبون منه جرأته المبكرة المشوبة بالإصرار والعناد، مع الثقة المفرطة بالنفس المصحوبة بالتحمل الشديد والصبر واحتقاره للموت فى مواجهة أى قرار يتخذه.

ترتب على ملازمة أزمات الربو أن اضطرت الأسرة إلى التنقل كثيرا بين مواقع بيئية وصحية تلائم حالته فى مقاطعة قرطبة المطلة على سلسلة جبال الإنديز حيث الهواء جاف، مع حقنه بالكالسيوم وغيره من العقاقير. ولم يُشف «تيتى»- كما كانوا ينادونه صغيرا- بل كانت الأزمات تزداد وخطر الموت يلاحقه. فقررت «سيليا» أن تكرس نفسها وحياتها لهذا الصبى الذى يكبر إخوته

وأخواته الخمسة. ومع ضرر الأم الشديد ومراقبتها المستمرة، كان إرنستو الصغير يلهو ويلعب ويمرح، واكتسب مزيدا من قوة الإرادة والشجاعة، وحب مواجهة المواقف الصعبة، تماما مثل والدته.

فى المدرسة الثانوية أقبل على ممارسة الرياضة، ودفعته حالته المرضية إلى الراحة فترات طويلة، فكان عزاؤه القراءة والكتابة ومطالعة نفائس مكتبة الأسرة، فظل طوال حياته قارئا نهما. واكتشف مبكرا القصص والروايات العالمية ومغامرات البطولة، وخاصة فى الأدب الفرنسى والدينى، إذ كانت أمه خريجة المدارس الدينية الفرنسية بالأرجنتين. ولئن كان قرأ لماركس وإنجلز، فإن السياسة لم تكن على هواه. واعترف هو فيما بعد : «لم يكن عندى فى باكورة شبابى أى التفات مطلقا إلى الأمور الاجتماعية». لكن يبدو فى هذا الاعتراف شىء من المبالغة. لأن «سيليا» - الأم الحانية التى كانت تتبعه كظله- كان لها نشاط سياسى معروف وخصومة معلنة ضد ديكتاتور الأرجنتين «بيرون» وحزبه البين الفساد. ولم يخف إرنستو إعجابه وفخاره بموقف والدته وتمنى لو استطاع يوما متابعة نشاطها.

بسبب نشاط الأم السياسى، تعرضت الأسرة لمضايقات متلاحقة، حتى اضطرت إلى السكن فى بيوت صغيرة بسبب الضغوط الاقتصادية المفروضة عليها، ثم الإقامة بالقرب من ضواحى الأكواخ العشوائية، حيث الفقر الرهيب والبؤس المروع. فتفتحت عينى إرنستو على عالم مظلوم منكود كان غافلا عنه. فقرر أن يكتشف أعماقه ومعالمه بنفسه، بالتجوال والرحلات.

فى سنة ١٩٤٧ عادت الأسرة لتقيم بالعاصمة بيونس إريس لتكون على مقربة من كلية الطب التى يدرس بها إرنستو. لقد أصبح شابا مرحا ينم فكره عن ذكاء وفطنة، ويغلب عليه الحياء ودفء المشاعر، مع ميل إلى التفكه والنقد، وكثير من الإعتزاز بالنفس والحزم والعزم.

وفضلا عما اكتسبه من أمه، مثل رفض الإستسلام للواقع الخاطئ أو الخضوع للمظالم، فقد شهد كل المحيطين به بقوة تأثيره ونفاذ جاذبيته الباطنة، وقدرته الفطرية على تحريك أفراد وجماعات نحو هدف يبتغيه وسلاسة إقناعهم به. وحسبه البعض صورة جديدة لاتينية من دون كيشوت، يحلم باكتشاف آفاق البؤس الذى يعيشه أقوام آخرون ومحاولة الإسهام فى إصلاحه.

ولم يكن بمفرده، فقد دبر هذا «الفارس» الكيشوتى رحلة استطلاع بالدراجة، اصطحب فيها صديقه الرياضى القديم «ألبرتو جرانادو» بديلا عن «سانشو بانشا» رفيق السيد كيشوت فى القصة المشهورة. خرجا للمغامرة بعد أن ترك الدراسة الطبية، وبلا نقود على الإطلاق، لا يملك كل منهما سوى دراجة قديمة أضاف إليها محركا صغيرا واعتمدا على مصادفة اكتساب رزق بسيط أو مأوى. فكانا مثلا يعلمان الصغار فى قرية لعبة كرم القدم، أو يصيدان طيورا برية يبيعانها فى الأسواق (وذات مرة قتلا خطأ أثناء الصيد كلب مضيفتهما المفضل!)، أو يحصلان على أجر مقابل عمل عارض (حصلا مرة على مكافأة سخية لإنقاذهما من الحريق قطة أثيرة عند أصحابها).

وكانا ينامان فى أى مكان يُتاح : عند مضيف أو مضيفة، فى محطات قطار، فى المستشفيات، فى أقسام الشرطة، ومرة فى مشرحة! وفى قرية تيموكو بجمهورية شيلى لفظت دراجتاهما الأنفاس الأخيرة، ولم يفلح إصلاحهما، إلا أن زوجة الميكانيكى البائس الساخط لم تستطع مقاومة جاذبية ابن النعمة ووسامته ومرحه، فاستبقت إرنستو وصاحبه كضيفين لبضعة أيام، وتباهت بمرافقته مع زوجها فى حفل القرية السنوى الراقص. فكانت فترة إنتعاش وراحة مجانية قبل أن يستكمل مع رفيقه بقية الرحلة سيرا على الأقدام تماما كالمتسولين.

أتاح لهما المشى الطويل عبر القُرى والمدن النائية عن العواصم والعمران رؤية جديدة- وحقيقية- لأمريكا اللاتينية الغارقة فى البؤس واليأس. وفى مفكرته

كتب جيفارا يصف إدراكه الجديد المفاجيء «للنزيف المفزع الذى اجتاح تلك المناطق، حيث الشرايين مهترئة ممزقة، بينما مصاصو الدماء من السياسيين والمسيطرين والمستغلين الأثرياء، وزمرة من البيض والشقراوات الأمريكيين الإداريين والخبراء، بينما هؤلاء جميعا يعيشون فى الترف والنعيم».

ثم حانت اللحظة الفاصلة فى تفكيُره وفى مسار حياته من لقاءين أو موقفين الأول : فى قرية «فالباريزو» عندما دُعى لمعالجة امرأة عجوز تكاد تهلك من أزمة ربو فى كوخ من الصفيح حقير، فأطلق صرخة مكتومة، وكتب فى مذكرته «إلى متى سوف يبقى هذا الوضع القائم القاتم الذى يفرض بالقهر تزايد طبقة المنبوذين؟ ليس فى قدرتى الإجابة عن ذلك». والموقف الثانى : حدث بعد أيام عند منجم نحاس فى صحراء «أتاكاما» شمال شيلى، وكأنه مشهد من جحيم دانتى، ودون فى مفكرته أن عاملا بالمنجم أخبره أن صاحب المنجم -الثرى الأمريكى- اتهمه كذبا بالشيوعية لمجرد تأففه من حالة البؤس والضعف والمرض التى لا تصدق. وقد عوقب على تلك التهمة الملفقة بالطرد من العمل والسجن ثلاثة أشهر. فاضطرت زوجته إلى الهرب من الجوع والفاقه، وتركت أطفالهما الثلاثة عند الجيران، فإزدادوا هزالا ومرضا.

فزع جيفارا وروعه ما شاهد وما سمع. بدأ يستقر فى فكره ووجدانه كراهية ناقمة على «الإمبرياليين». وشعر فى فترة من ترحاله أنه مواطن هندى (من الهنود الوطنيين الأصليين الأمريكيين بالقارة). وزاد من غيظه وسخطه «رؤية السياح القادمين بزهو واستعلاء من الشمال الأمريكى إلى قرية ماشوبيشكو وهم يتهكمون بإزدراء على أفراد قبيلة هندية أجبروا على تقديم استعراض لا أخلاقى- على غير طبيعتهم لإرضاء هؤلاء الغرباء الأثرياء».

تصادف فى ذكرى ميلاده الرابعة والعشرين أن كان فى منطقة الأمازون. كان قد قرر مع صديقه الأرجنتينى البقاء فترة لعلاج مرضى الجذام الذين

يعيشون فى ضنك على هامش الحياة. وفى احتفاله البسيط بتلك المناسبة الشخصية خطب قائلا أمام المعالجين القلائل والمرضى: «إننا جميعا ننتمى إلى جنس واحد مخلط من المكسيك شمالا إلى مضيق ماجلان فى أقصى الجنوب الأمريكى».

وعندما بلغ نهاية الرحلة -أو المغامرة- فى مدينة كاراكاس عاصمة فنزويلا، كان قد قطع مسافة عشرة آلاف كيلو متر فى ثمانية أشهر، وكانت كافية -كما كتب- «لفترة الحمل الثورى»، ثم تفجرت بعدها الصيحات والمشاعر السافرة : «أدرك الآن- بعد ما أبصرته مكتوبا فى ظلمات الليل- أننى سألزم جانب الشعب. سوف أعمل جاهدا على إزالة ما أستطيع من حواجز وعواتق. لسوف أخضب أسلحتى بالدم. وإذا أذهلنى السخط، فلسوف أجز رقاب من يقع فى يدى من الجناة الآثمين، وأرانى سوف أموت فى تيار العمل الثورى ضد الديكتاتورية والاستغلال والظلم الاجتماعى». وهنا يبدو «جيفارا» جليا، بكل أبعاده، لا ينقصه سوى الموقع، أو ساحات المعارك المقبلة.

بعد عودته إلى الأرجنتين بستة أشهر ، حصل على دبلوم الطب فى زمن قياسى. أصبح الآن حرا. وبعد شهر واحد ودع أسرته (٣ يوليو ١٩٥٣) وقالت أمه سيليا فى ذلك اليوم : «سأفتقده هذه المرة إلى الأبد»! وعندما دمعت عيناها وهى تحييه - للمرة الأخيرة- عند رصيف القطار، صاح فى سمع التاريخ : «إن هنا مسرى جندى نحو أمريكا».

حط رحاله فى جواتيمالا. فرئيسها الجديد - جاكوبو- شاب متحمس طموح ، يقود نهضة زراعية شاملة ، لكن نظرة فاحصة متأنية أقنعت دكتور إرنستو جيفارا دو لا سيرنا، أنها نهضة ثورية حقا لكن يحيط بها شك وخوف. وسرعان ما أظهرت الأحداث صدق توقعه: فقد أطاحت المخابرات الأمريكية (CIA) التى كان يرأسها آنذاك «دالاس» بإصلاحات جاكوبو عن طريق إشعال

ثورة مضادة راح ضحيتها تسعة آلاف على الأقل من مواطنى جواتيمالا المسالم. فاستوعب جيفارا الدرس : إن الشعب المسلح هو وحده الذى يستطيع تحقيق الإصلاح إذا كان مهددا بقوى مضادة فى الخفاء وأصبح هذا المبدأ ركيزة نشاطه فيما بعد.

كان عليه أن يفر من جواتيمالا سيرا على الأقدام إلى المكسيك ليعيش بين الفلاحين. ولحقت به مناضلة ماركسية جواتيمالية تدعى «هيلدا جاديا». فنشأت بينهما علاقة عاطفية أثمرت الطفل «فلاديميرو إرنستو»، ثم تزوجها رسميا فى أغسطس ١٩٥٥. وفى يوليو التالى التقى «بفيدل كاسترو» خلال حفل عشاء عند صديقة كوبية. فكان لقاء حاسما، إذ أعجب كل منهما بثورية الآخر. وبعد نقاش امتد عشر ساعات إلى ما بعد الفجر فى تلك الليلة، قال جيفارا لصاحبه: «لسنا فى حاجة إلى إضاعة وقت للاتفاق».

فسألت هيلدا : «وماذا ستفعلان ؟» . أجاب إرنستو على الفور : «غزو مسلح للجزيرة الكوبية». ثم أضاف : «فلنهجر الاستماع لكلامى المثبط للهمم، ولنقترن بالأفكار العملية». وفى الغداة، بدأ يجمع المتطوعين المتحمسين، ويضع خطة تدريبهم دون حذر من عيون الشرطة المكسيكية.

وفى ليلة ٢٤/٢٥ نوفمبر ١٩٥٦، أبحر مركب قديم -اشتراه المناضلون- إلى كوبا وعلى متنه اثنان وثمانون رجلا مسلحا يتقدمهم فيدل كاسترو وشقيقه راءول، والطبيب جيفارا الذى كتب قبيل رحيله رسالة إلى والدته يقول فيها : «لقد قضيت حياتى كلها باحثا عن الحقيقة دون جدوى. الآن عرفتُ طريقى. أقفلت الدائرة. ومن الآن فصاعدا لن أعتبر موتى إحباطا بلا طائل».

وصل المركب إلى الساحل الكوبى ليلة الثانى من ديسمبر، ونزل ركابه خطأ عند شاطىء موحل تغمره المستنقعات والبعوض. كان بانتظارهم جنود

باتيستا- حاكم كوبا الديكتاتورى - الذين كانوا يترقبون قدومهم. فأمطروهم بوابل من النيران شتت جمعهم.

وقبل أن يموت رجل من الغزاة، ألقى نحو جيفارا صندوقا ثقيلا مملوءا بالأدوات والمعدات. قال جيفارا «ففكرت للحظة، هل التقط الصندوق وأترك حقيبتى وما بها من أدوية وأدُوات طبية؟ لم أتردد، فقد حدثتنى نفسى بأننى ثورى مكافح قبل أى شىء آخر.

فحملت الصندوق وتركت الحقيبة. فكان الصندوق سببا فى حمايتى من رصاصة أُطلقت نحوى فأصابتنى بجرح بسيط». وفشلت الحملة فشلا ذريعا : إذ قُتل فيها سبعون ، ونجا اثنا عشر كان من بينهم جيفارا وكاسترو وشقيقه. لم تكتمل الأسطورة بعد، وإن استمر نسيجها يتكون. ولجأ كاسترو ومن معه من الناجين إلى جبال كوبا الشمالية.

٢١ يوليو ١٩٥٧:

فى كوخ بسيط فوق جبل «سبيرا مايسترا»، اجتمع ضباط الجيش الشعبى الثورى الكوبى يوقعون برقية عزاء لأسرة زميل لهم قُتل. وكان على كل منهم أن يوقع اسمه ورتبته. فلما جاء الدور على «شى» - أى جيفارا- تردد لحظة بعد أن كتب اسمه، وإذا بفيدل كاسترو يأمره : «اكتب : قائد الجيش الثانى للثوار». وقدم له ساعة يد ذهبية. ونجمة ذهبية، علقها القائد الأرجنتينى - شى- فى مقدمة غطاء رأسه الأسود (البيريه)، وظلت ملازمة له باستمرار.

ولاحظ الحاضرون أن كاسترو قدم فى الرتبة جيفارا على شقيقه هو راءول كاسترو. وذلك اعتراف منه، وتعريف للجميع، قيمة المناضل الأرجنتينى ومكانته من الحملة الثورية الكوبية القادمة؛ وقال فيدل حسما للتقولات : «إن شى لا يهاب الأخطار مطلقا . وإنه مهندس فنى للثورة».

والحق، أن جيفارا كان على درجة من البساطة والزهد أدهدشت كاسترو. فهو فى سن التاسعة والعشرين مقتصد فى طعامه المتواضع، ويفضل المعيشة الخشنة، ويؤمن بمقولة البير كامو :« ليست الثورة فى ذاتها التى توصف بالنبل، وإنما الذى تهدف إليه». ولهذا، كان جيفارا يهاجم « ثورة الكذب المضادة». وكان مثالا ممتازا للمناضل صاحب الهدف، فى معيشته وفى كل سلوكه. ولم يتردد أن يقتل بنفسه أحد زملائه المقربين بعد أن اكتشف خيانته وأنه عميل لمخابرات باتيستا وكُلف باغتيال كاسترو.

حصص باتيستا عشرة آلا جندى بأسلحتهم تدعمهم مدفعية ثقيلة وطيران حربى، لمعركة هجومية أطلق عليها : «نهاية فيدل»، بينما كان مع فيدل كاسترو فقط مائتان وعشرون من الجنود المدربين، يضاف إليهم جيفارا! قال «شى» : «دعوا طابور جنود الأعداء يتقدم، وسوف نحيط بهم بغتة من أربع جهات عند المنتصف لنجهز عليهم». وقد كان ! فقُتل منهم خمسمائة، وأُسر أربعة وخمسون، وتفرق الباقون مذعورين. واهتزت هافانا– العاصمة– ورقص الناقمون على حكم باتيستا الطاغية.

كان على جيش الثوار الشعبى الذى كونه كاسترو (ومعظمهم من الفلاحين الأميين المسلحين ببنادق عتيقة وعصى غليظة) أن يهبط من الجبال ويجتاز ستمائة كيلو متر إلى العاصمة، عبر طرق ومسالك وعرة، ومستنقعات صعبة، مع الجوع والمشقة. فاستغرقت المسيرة المتوارية نحو شهرين، ولم يهلك من أفرادها سوى تسعة رجال.. كانت معجزة!

أول يناير ١٩٥٩:

بتدبير من القائد «شى» سقطت مدينة سانتاكلارا عاصمة الإقليم المتاخم لهافانا وفقا لخطته المحكمة. كان انتصارا رائعا للثوار وبنسبة خسائر قليلة.

وأصبح جيفارا بلا منازع البطل الذى لم يحرز النصر فقط، بل صان «جيش» الثوار من الإبادة. ولكن .. هل كان كاسترو يخشى - فى قرارة نفسه- من تزايد شعبية «شى» ؟ ربما أدرك الشاب الأرجنتينى ذلك، إذ إنه عند دخوله العاصمة الكوبية - هافانا- مع الثوار الفاتحين، آثر أن يقيم بعيدا عن الأضواء ومركز السلطة، فى قلعة كابانا الأثرية المطلة على الميناء. وعُهد إليه بمهمة «التطهير» فكان إعدام مائتين من العسكريين السابقين - من الجيش والشرطة- رميا بالرصاص، وكتب إلى صديق له فى الأرجنتين يقول : «إن إعدامهم لم يكن ضرورة واجبة التنفيذ وحسب، وإنما كان أيضا دينا للشعب الكوبى محتم الأداء». وفى تلك القلعة العتيقة الرطبة احتبس نفسه، وعكف يعمل ما يُطلب منه فى عزلة، وفى متناول يده على الدوام مضخة الأوكسجين، إذ إن أزمات الربو عاودته وجعلته قلقا ضيق الصدر.

أخذ «البطل الثورى» يرسم برنامجا للإصلاح يفيد النظام الجديد.

وارتاب أصحاب الإتجاه الفكرى المتحرر فى ميوله، وزعموا أنه ماركسى فكان جوابه :«ليست المسألة فى الماركسية أو غيرها. فقد يكون المرء ماركسى أو غير ماركسى، لكنه واقعى تماما مثل نيوتن فى الفيزياء وباستير فى الأحياء». إلا أن صراحته التلقائية فى التعبير عن صدق ما يعتقد من مشاعر وأفكار، جلبت عليه كثيرا من العداوات خاصة من جانب كبار مُلاك الأراضى والصناعات، ومن الإمبرالية الأمريكية.

وإذ لم يستطع كاسترو أن يسيطر على إندفاعات هذا الأرجنتينى الشغوب بحب الصراحة والتكلم بلا مواربة، فقد اختط له طريقا يسير فيه ويقول ما شاء من آراء للعالم أجمع. فأرسله فى رحلة عمل طويلة كأول مبعوث للثورة إلى الشرق الأوسط وآسيا، فى يونيو ١٩٥٩. وقبل سفره بعشرة أيام ، تزوج «أليدا مارش» بعيدا عن الأضواء، واقتصر الحفل على عدد قليل من الأصدقاء.

ولما كان هؤلاء يعملون جيدا أنه محدود الدخل قليل المال (طلب - وهو الرجل الثانى فى الدولة الجديدة أن يكون مرتبه ١٢٠ دولار أى خمس أصغر راتب لوزير) .

فقد أحضر كل منهم معه إلى الحفل شهريا طعامه وشرابه.. وقُبيل هذه الفترة، كتب إلى أمه -موضع ثقته الكاملة- رسالة قال فيها : «لازلت كما أنا .. وحيدا أبحث عن طريقى دون طلب عون من أحد. إلا أننى أدركت معنى واجبى التاريخى. لم يعد لى فى حياتى اليومية دفء مسكن، ولا زوجة، ولا أولاد، ولا آباء. سيظل أصدقائى أصدقاء طالما كانوا يفكرون مثلى. ومع ذلك ، فإننى سعيد، لأن الشعور برسالتى التى فرضها قدر محتوم، يحول بينى وبين الخوف».

بعد عودته من رحلته الديبلوماسية إلى كوبا، لم تعجبه خطة الإصلاح الزراعى التى بدأ تطبيقها، ولم يرض أن يتخذ موقف الناقد المُعارض، فعُين رئيسا للبنك الوطنى. فقاد من موقعه الجديد «ثورة» اقتصادية مثل تلك المسلحة التى خطط لها فى جبال مايسترا. ولكى يقطع الطريق على المناهضين لكاسترو، فقد تزعم حملة لتأمين مزارع السكر والطباق (التبغ)، فتضايق الأمريكان وأعلنوا عن تخفيض حصتهم من استيراد السكر الكوبى، فكانت بداية الإشتباك مع الولايات المتحدة. فاحتبس كاسترو نفسه لثلاثة أيام كاملة مع رئيس البنك الوطنى، ثم خرج بعدها ليعلن فى ٦ أغسطس ١٩٦٠ تأميم معامل تكرير البترول، والسكر، والبنوك، ومعظم الممتلكات والمصالح الأمريكية فى الجزيرة.

وسواء طوعا أم كرها، كان لا مندوحة عن إرتماء كوبا فى أحضان موسكو. وفى اليوم التالى نشرت مجلة «تايم» الأمريكية أن «فيدل كاسترو هو قلب وروح وصوت كوبا، وشقيقه راءول هو القبضة الحديدية للثورة، وجيفارا العقل المدبر المسئول الأول عن انعطاف هافانا نحو اليسار». وأكد ذلك ، أنه فى موسكو أفلح فى انتزاع وعد من خروشتشيف (فى سرية كاملة) بتحريك

الصواريخ الروسية ذات الرءوس النووية إذا تعرضت كوبا لعدوان أمريكى.

وكان «شى» يدرك مدى خطورة تنفيذ هذا الوعد إقليميا وعالميا. فلما فشلت محاولة الغزو الأمريكى للساحل الكوبى، أصيبت السياسة الأمريكية بنكسة ومعرة، ثم تبع ذلك عدوان الحرب الاقتصادية.

رأت واشنطن أن الذى لم تستطع تحقيقه بالسلاح، تستطيع إنجازه عن طريق تضييق الخناق بالاقتصاد. فكان الحصار الاقتصادى الذى فرضته حول كوبا. وسرعان ما ظهرت نتائجه السيئة على الجزيرة. فالمصانع التى وعدت بها موسكو تأخر وصولها وتركيبها وتشغيلها. وهى إذا رُكبت لم تشتغل، وإذا اشتغلت لم تُنتج على المستوى المطلوب كمية وجودة، أو أنتجت بضاعة سيئة غير مرغوبة.

وانطلق الأرجنتينى - إرنستو جيفارا وقد أصبح وزيرا للصناعة - يتنقل فى كل المواقع، يشرف ويقرر ويؤازر. وإذا اتيح له قدر وفسحة من الوقت ذهب إلى مصانع النسيج أو مزارع القصب بزيه العسكرى، يعمل بيديه أو يجمع المحصول. كان يقضى عشرين ساعة من اليوم فى العمل المتواصل. ومنذ نجاح الثورة، لم يضع قدميه فى ملهى أو دار سينما أو مسرح أو على شاطىء مصيف.

وكان أطفاله الصغار ينادون كل واحد من مساعديه الذين يترددون عليهم لقضاء احتياجاتهم، كانوا ينادونه «بابا»، لأنهم يخالطونهم باستمرار فى غيبة الأب الحقيقى المشغول بلا انقطاع. وهذا القائد الثورى النموذجى ظاهرا وباطنا، كان يرفض أن يُحضر لصغاره من سفراته، العديدة هدايا أو مشتريات، لا بُخلا وإنما نزاهة. كان يعتبر أن إحضار مثل تلك الأشياء من الخارج «امتيازا» لا يليق، وأطفال الشعب كلهم محرومون منها.

أما البيت الذى كان يسكنه مع أسرته، فكان خاليا تماما من وسيلة للترف والدعة، وأثمن مافيه : منضدة خشبية بسيطة، وعدد قليل من المقاعد الشعبية، وكمية ضخمة من الكتب. وهو فى محيطه العائلى أو الوظيفى الميدانى لا تتغير طباعه : يمزح بلا ابتسام كالإنجليز، ويعمل بدقة وانضباط شديدين مثل السويسريين والألمان، ويميل إلى الواقعية العملية مثل الفرنسيين. أما فى نظر الأوروبيين والعالم الخارجي، فهو فريد فى نزاهته وقيادته.

كان يشغل فكره دائما : التعجيل «بصياغة الإنسان الجديد»، ويقول: «كما أن الحوافز والأجور فى النظام الرأسمالى تستميل العاملين، فلابد أيضا من استمالة أخلاقية». وهاجمه الشيوعيون خُفية وجهرة. وتكونت تحالفات لإبعاده عن السلطة وموقع الصدارة. لكن المناضل الأمين مع نفسه، الصريح كل الصراحة والصدق مع الأخرين، لم يستسغ أسلوب المداراة والتحايل والكذب على الناس، وهذا الأرجنتينى الثورى المتفوق فى لعبة الشطرنج، لم يرض لنفسه أن يكون مجرد واجهة أو لافتة تستر الأنظار وتحركها الرياح كيفما تشاء. كم آلمه -ولم يغفر لروسيا- موقفها المهين من سحب صواريخها التى أرسلتها إلى كوبا عقب الإنذار الأمريكى من كنيدى، واعتبر ذلك نذالة وخيانة، تماما مثلما هاجم بشدة العدوان الروسى بالدبابات على المطالبين بالحرية فى براج.

من الآن فصاعدا، يجد نفسه -مرة أخرى- وحيدا فى معزل، خاصة بعد موت صديق حميم له (كاميلو)، والزج بصديق آخر فى السجن لإنتقاده تصرفات بعض الانتهازيين الشيوعيين داخل الحكومة الكوبية. من جانب آخر، لم يتحمل كاسترو انتقاداته المستمرة للنظام السوفييتى، وأغضبه هجومه الصارخ فى الجزائر (أثناء زيارة جيفارا لها فى ٢٤ فبراير ١٩٦٥) على الدول الاشتراكية، واتهامه لها بأنها «متواطئة مع رءوس الاستغلال والاستنزاف الرأسمالى» بتجارتها مع الدول النامية الفقيرة بمبدأ أسعار السوق.

فى هذا اليوم ذاته، أعطته «أليدا» إرنستو الصغير، آخر أبنائه الخمس. إلا أن «شى» لم يكن يفكر إلا فى مصيره الذى كان يناديه بإلحاح فى مكان آخر. وفى لقاء عاصف مع كاسترو، صارحه الرئيس الكوبى - رفيق الكفاح والثورة - أن بقاءه فى كوبا غير مرغوب فيه. وفى تلك الفترة، ضاعف جيفارا من تصريحاته وأحاديثه، وكأنه تعمد أن يترك للتاريخ أثرا من العسير طمسه أو محوه.

وفى لقاء مع الرئيس المصرى جمال عبد الناصر -فى مارس ١٩٦٥- سأله فى دهشة : «لماذا تتحدث دائما عن الموت؟ إنك مازلت شابا. وإذا ما اقتضى الأمر، فإننا نموت من أجل الثورة، ولكنه من الأفضل الحياة أيضا من أجلها». لكن ذلك الحوار لم يمنع إرنستو جيفارا من كتابة خطاب إلى والديه، وكأنه وصيته الأخيرة : «مرة أخرى أشعر أن عصا قابض الأرواح تقتفى أثرى وتقترب من موقع قدمى فى عودتى لمتابعة الطريق. إن درعى تحت إبطى. كثيرون يظنون أنى مغامر. ربما أكون واحدا من هؤلاء، لكننى من طراز مختلف، من أولئك الذين يخاطرون بأرواحهم دفاعا عن حقائقهم. من المحتمل أن يحدث ذلك للمرة الأخيرة.

ثم اختفى ...

قيل إن المناضل الثائر فى فيتنام ، وقيل فى الأرجنتين، أو هو سجين الروس، أو فيدل كاسترو، وزعم البعض أنه أصيب بالجنون واحتجز فى مصح منعزل بالمكسيك، وسرت شائعة بأنه سافر للمشاركة فى تحرير الكونغو مع مجموعة من المقاتلين. وتعجب المناضلون الكونغولون وقالوا: «لا نستطيع أن نفهم كيف يتسنى لجماعة من البيض أن تأتى للمشاركة معنا فى الكفاح المسلح لتحرير بلدنا، فى حين أننا نقاتل الدخلاء والمستعمرين البيض؟!».

ثم ظهر فجأة أنه فى بوليفيا..!

فى أحد معسكرات التدريب الثورى المسلح فى بوليفيا التى كانت تنظمها «الحركة الثورية اليسارية»، ألقى القبض مصادفة فى ٨ أكتوبر ١٩٦٧ على «شى»، وكان متخفيا شكلا وشخصية وباسم مستعار. فلما وشى به أحد «الثوار» المقبوض عليهم لينجو بنفسه، أُعدم جيفارا رمُيا بالرصاص (وقيل حُزت رقبته وظهر ذلك واضحا فى بعض الصور) فى اليوم التالى داخل فناء مدرسة ريفية بقرية «هجيرا». ثم رُبط جثمانه فى المساء بذراع طائرة هيليكوبتر حملته إلى مشرحة مستشفى قريب.

ولما شهدت إحدى الممرضات وجهه مفتوح العينين قليلا، صرخت وصدرت منها كلمات تلقائية : «يا إلهى.. إنه ينظر إلى اللانهائية»!. وأرجع البعض فتح عينيه بعد مقتله إلى إهتزاز جسمه بشدة مع إهتزازات الطائرة المروحية وسمحت السلطات الحاكمة فى بوليفيا بعرض جثمانه على الصحافة والجمهور الذى تدفق لمشاهدته للمرة الأخيرة وهو مسجى بعد إزالة بعض بقع الدم من رأسه وملابسه. كان غرض العسكريين إظهار انتصارهم على الثوار الشعبيين المناوئين لهم، والزهو بفوزهم برأس جيفارا، لكى يهابهم الناس.

لكن النتيجة جاءت عكسية تماما، إذ تعاطف الملايين داخل بوليفيا، وفى أمريكا اللاتينية كلها، وفى دول العالم أجمع، مع منظر البطل الشاب الذبيح، وهو فى صورته الأخيرة «ينظر إلى اللانهائية». الآن .. والآن فقط اكتملت- بهذه الصورة الأخيرة- معالم الأسطورة، فى خيال الشعوب، وفى ذاكرة الأجيال.

يقول البعض - وصدقوا- أنه كانت له أخطاء واندفاعات .. وربما كانت أخطاء واندفاعات سن الشباب، وحماس الشباب، الذى يتوق كثيرا إلى تحقيق المحال. لكنه فى غفلة عن «الواقع» وخباياه، لم يدرك مثلا أن بوليفيا- التى

شارك «عمليا» ثوارها المناضلين وسال دمه على أرضها من أجل «تحقيق» الديموقراطقية والحرية والعدالة الاجتماعية لشعبها البائس الخاضع للديكتاتورية «هوجو بانزر» وزملائه العسكريين، هى بوليفيا ذاتها التى أعيد فيها انتخاب هذا الديكتاتور لفترة رئاسة ثانية بطريقة «ديمقراطية» وبمساعدة من «مناضلين ثوريين» سابقين من أعضاء «الحركة الثورية اليسارية»!

قلت : لو صح إن «شى جيفارا» شيوعى لكان أفضل شيوعى على وجه الأرض ، ولو كان مسلماً لترحمنا عليه .

دليل الأسماء

ادلر فريدريك (ولد عام ١٨٧٩)، من زعماء الإشتراكية ـ الديموقراطية النمساوية فى عام ١٩١٦ ، قتل الوزير النمساوى شتورك ، احتجاجاً على الحرب ، فحكم عليه بالاعدام فى ايار ـ مايو ـ ١٩١٧ . أخلى سبيله عند قيام الثورة فى النمسا عام ١٩١٨ ، موقف موقفاً عدائياً من ثورة اكتوبر الاشتراكية فى روسيا .

ادلر فكتور (١٨٥٢ ـ ١٩١٨) ، من الزعماء الاصلاحيين فى الحزب الاشتراكى ـ الديموقراطى النمساوى والاممية الثانية .

اكسلرود بافل بوريسوفيتش (١٨٥٠ ـ ١٩٢٨) ، من زعماء المناشفة ، خصم عنيد للماركسية . اشتراكى ـ شوفينى أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

بارفوس (غولفاند أ . ل .) (١٨٦٩ ـ ١٩٢٤) ، مهاجر روسى ، عمل فى أواخر سنوات العقد العاشر من القرن الماضى فى الحزب الاشتراكى ـ الديموقراطى الألمانى وانضم إلى جناحه اليسارى. اشتراكى ـ شوفينى متطرف أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

بانيكوك انطون (ولد عام ١٨٧٣) اشتراكى ـ ديموقراطى هولندى يسارى.

برانتينغ كارل يالمار (١٨٦٠ ـ ١٩٢٠) زعيم الحزب الاشتراكى ـ الديموقراطى الاسوجى ؛ من قادة الاممية الثانية ؛ انتهازى .

برغر فكتور (١٨٦٠ ـ ١٩٢٠) ، اشتراكى امركى يمينى متطرف ، من مؤسسى الحزب الاشتراكى الامريكى . فى عام ١٩١٦ أيد بنشاط

الاستعمار الامريكى فى نضاله ضد المكسيك .

بريسمان ادريان (ولد عام ١٨٧٩) اشتراكى وسطى فرنسى .

بلغوغر باول (ولد عام ١٨٦٥)، اشتراكى - ديموقراطى سويسرى يمنى.

اشتراقى - شوفينى فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١١ - ١٩١٨).

بلاتن قريتز (ولد عام ١٨٨٣) اشتراكى سويسرى ، ثم شيوعى .

بلان لويس (١٨١١ - ١٨٨٢) اشتراكى فرنسى بورجوازى ضغير .

بلانكى اوغست (١٨٠٥ - ١٨٨١)، ثورى فرنسى، شيوعى - طوبوى.

بلخانوف غيورى فالنتينوفتش (١٨٥٦ - ١٨١٩) ، منضل شهير فى الحركة الاشتراكية الروسيه والعالمية ؛ نظرى وادع فذ للماركسية؛ فيما بعد، منشفى. وقف منذ بداية الحرب العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) موقفاً اشتراكياً شوفينياً .

بوتريسوف الكسندر نيقولاييفيتش (١٨٦٩ - ١٩٣٤)، اشتراكى - ديموقراطى روسى، منشفى. اشتراكى شوفينى اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

بورديرون البر اشتراكى فرنسى؛ من زعماد الجناح اليسارى فى النقابات الفرنسية اثناء الحرب العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨)؛ سرعان ما تطور نحو اليمين .

بيسولاتى ليونيد (١٨٥٧ - ١٩٢٠) ، من مؤسسى الحزب الاشتراكى

الايطالى . قاد جناحه اليمنى. اشتراكى - شوفينى اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

ترولسترا بيتر (ولد عام ١٨٦٠)، من مؤسسى حزب العمال الاشراكى - الديموقراطى الهولندى وزعيمه. انتهازى . شوفينى فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

ترير غرسون عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى - الديموقراطى الدانماركى فى عام ١٩١٦ ، حين قرر الحزب الاشتراكى - الديموقراطى الاشتراك فى الحكومه البورجوازية ، ترك ترير اللجنة المركزية معلناً انه لا يريد ان يكون عضواً فى الحزب البورجوازى .

تريفيس كلافديو من اقدم اعضاء الحزب الاشتراكى الايطالى. نظرى الاصلاحية الايطاليه . وسطى فى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

تسيريتيلى غيورغييفيتش (ولد عام ١٨٨٢)، من زعماء المناشفة . فى ايار - مايو - ١٩١٧ ، وزير فى الحكومة البورجوازية الموقتة .

تشيخييدزه نيقولاى سيمينوفيتش (١٨٦٥ - ١٩٢٦)، اشتركى - ديموقراطى جورجى، منشفى. اشتراكى - سوفينى فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ؛ وزير فى الحكومة البورجوازية الموقتة عام ١٩١٧ .

تشيرنوف فكتور ميخائيلوفيتش (١٨٧٦ - ١٩٥٢) زعيم حزب الاشتراكيين - الثوريين ، وزير الزراعة فى الحكومة البورجوازية الموقتة .

توارتى فيليب (١٨٥٧ - ١٩٣٢) ، زعيم الجناح اليمينى المتطرف

الانتهازى فى الحزب الاشتراكى .

توره ذرمان راجع ذرمان توره .

تيشكو ليو (يوعيهيس ل. ج.) (١٨٦٧ - ١٩١٩)، مناضل نشيط فى الحركه العامله البولونية ، ناضل مع روزا لوكسمبورغ ضد الشتراكية - الشوفينية فى الاشتراكية الديموقراطية الألمانية.

دافيد ادوارد (١٨٦٣ - ١٩٣٠) من زعماء الاشتراكية - الديموقراطية الالمانية اليمينيين ، محرف ، اشتراكى - سوفينى .

رسل راجع وليامس رسل .

رولاند - هولست هنرييت (ولدت عام ١٨٦٨) ، اشتراكيه يساريه هولنديه ؛ كاتبة . قامت بدعاية ضد العسكرية فى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

روله اوتو (ولد عام ١٨٧٤) اشتراكى - ديموقراطى المانى يسارى . اممى ثورى فى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . نائب فى الرايخستاغ ؛ رفض التصويت بالموافقة على الاعتمادات الحربية .

رومانوف سلاله روسيه حكمت من ١٦١٣ الى ١٩١٧ واسقطتها ثورة شباط - فبراير - البورجوازية الديموقراطية .

رينوديل بيار (١٨١٧ - ١٩٣٥) اشتراكى فرنسى يمينى . اشتراكى شوفينى فى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

سامبا مارسيل (١٨٦٢ - ١٩٢٢) من قادة الحرب الاشتراكى الفرنسى . اشتراكى وطنى عنيد فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤

ـ ١٩١٨) . اشترك فى الحكومه البورجوازية .

ستاونينغ تورفالد (ولد عام ١٨٧٣) ، زعيم الاشتراكية ـ الديموقراطية الدنماركية. قام بدور هام فى صفوف الاممية الثانية . وترأس الجناح اليمينى المتطرف. اشترك مراراً عديدة فى الحكومة البورجوازية الدنماركية، وترأسها مرتين .

ستوليبين بيتر اركاديفيش (١٨٦٢ ـ ١٩١١) رئيس مجلس وزارة روسيا من ١٩٠٦ إلى ١٩١١ ؛ رجعى متطرف . ارتبط باسمه سحق الثورة الروسية الاولى (١٩٥٠ ـ ١٩٧٠) والردة الرجعية السياسية الوحشية التى عقبتها .

سيتكلوف ى. م. (ولد عام ١٨٧٣) اشتراكى ـ ديموقراطى ، روسى .

سكوبيليف ماتفيى ايفانوفيتش (١٨٨٥ ـ ١٩٧٣) اشتراكى ـ ديموقراطى، منشفى؛ اشتراكى شوفينى فى سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . فى ١٩١٧ ، وزير العمل فى الحكومة الموقتة .

سنودن فيليب (١٨٦٤ ـ ١٩٧٣)، سياسى انجليزى، من زعماء حزب العمال المستقل انتهازى .

سيراتى دجاتشينو (١٨٧٢ ـ ١٩٢٦) ، من زعماء الجناح اليسارى فى الحزب الاشتراكى الايطالى .

شتروم فريديديك (ولد عام ١٨٨٠) ، اشتراكى ـ ديموقراطى اسوجى يسارى .

شيدمان فيليب (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) من زعماء الجناح اليمينى الانتهازى فى الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية . من شباط ـ فبراير ـ الى

حزيران - يونيو - ١٩١٩ ، رئيس الحكومة البورجوازية الالمانية . قمع شيدمان الحركة العمالية بوحشية .

غريم روبرت (ولد عام ١٨١٨) ، اشتراكى - ديموقراطى سويسرى ، اممى ابان الحرب العالمية الاولى . تحالف ، عام ١٩١٧ ، مع الشوفينيين .

غروليغ غرمن (١٨٤٢ - ١٩٢٥)، مناضل فى الحركة الاشتركية السويسرية. اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وقف موقف تزييد لامانيا ، وانضم الى الجناح اليمينى فى الاممية الثانية .

غليوم الثانى (١٨٥٩ - ١٩٤١)، امبراطور المانيا وملك بروسيا (١٨٨٨ - ١٩١٨) .

غوتشكوف الكسندر نيقولاييفيتش (١٨٦٢ - ١٩٣٦) ممثل البورجوازية الصناعية والتجارية الضخمة، ملكى ، زعيم حزب الاوكتوبريين.

غورتر غرمان (١٨٦٤ - ١٩٧٢) اشتراكى هولنى يسارى .

غولدنبرغ ى (١٨٧٣ - ١٩٢٢) اشتراكى - ديموقراطى روسى ، من انصار « الدفاع عن الوطن » .

غيد جول (١٨٤٥ - ١٩٢٢) من مؤسسى وزعماء الحزب الاشتراكى الفرنسى، قاد الجناح اليسارى ، الثورى فى الحزب حتى الحرب العالمية الاولى. وحين شبت للحرب ، اشترك فى الحكومة البورجوازية الفرنسية .

غيلبو هنرى (ولد عام ١٨٨٥) ، شاعر وصحافى فرنسى ، شيوعى.

فاندر فلده اميل (١٨٦٦ - ١٩٣٨) ، من زعماء الجناح الانتهازى فى حزب العمال البلجيكى والاممية الثانية. فى بداية الحرب الاستعمارية

(١٩١٤ ـ ١٩١٨) اشترك فى الحكومة الاشتراكية البلجيكية .

فينكوب (ولد عام ١٨٧٧). شيوعى هولندى ؛ من مؤسسى الصحيفة الماركسية « دى تريبون » .

كارلسون ك. من زعماء التيار اليسارى فى قلب الاشتراكية الديموقراطية الاسوجية ، المسمى « حزب الشباب » أو حزب اليساريين» ، اثناء الحرب . العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، اممى .

كاوتسكى كارل (١٨٥٤ ـ ١٩٣٨)، نظرى شهير وقائد فى الاشتراكية ـ الديوقراطية الالمانية والاممية الثانية، مفكر الوسطية والتحريفية .

كيرنسكى الكسندرى فيدوروفيتش (ولد عام ١٨٨١)، اشتراكى ثورى، رئيس الحكومة البورجوازية الموقتة المعادية للثورة فى روسيا عام ١٩١٧ ؛ طبق سيسة البورجوازية الاستعمارية .

لازارى قسطنطينو (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧)، اشتراكى ايطالى بارز. اسس حزب العمال الايطالى الذى اصبح فيما بعد الحزب الاشتراكى الايطالى .

لفوف غيورغى افغينييفيتش (١٨٦١ ـ ١٩٢٥) ، امير روسى ، ملاك عقارى كبير، رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية فى الحكومة البورجوازية الموقتة من آذار ـ مارس إلى ـ وليو ١٩١٧ .

لريو فرنان (١٨٧٠ ـ ١٩٣٠) اشتراكى فرنسى اممى اثناء الحرب العالمية الاولى .

لوكسمبورغ روزا (١٨٧١ ـ ١٩١٩)، مناضلة كبيرة فى الحركة العاملة الالمانية والاممية، من مؤسسى الحزب الشوعى الالمانى . اغتالتها بوحشية عصابة من الضباط من كانون الثانى ـ يناير ـ ١٩١٩ .

لونغية جان (١٨٧٦ ـ ١٩٣٨) ، من الزعماء الاصلاحيين فى الحزب الاشتراكى الفرنسى والامية الثانة، وسطى اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

ليبكنخت كارل (١٨٧١ ـ ١٩١٩)، مناضل كبير فى الحركة العمالية الثورية الالمانية والعالمية : من مؤسسى الحزب الشيوعى الالمانى؛ قام بنضال نشيط

ضد العسكرية . اغتالته بوحشية من الضباط فى كانون الثانى ـ يناير ـ ١٩١٩ .

ليديبور جورج (١٨٥٠ ـ ١٩٧٤) من زعماء الاشتراكة ـ الديموقراطية الالمانية وسطى .

ليغن كارل (١٨٦١ ـ ١٩٢٠) مناضل اصلاحى فى الحركة النقابية الالمانية والعالمية ـ شوفينى متطرف اثناء الحرب العالمية الاولى .

ليندهاغن كارل (ولد عام ١٨٦٠) سياسى اسوجى .

مارتوف ل . (زيديربوم يولى اوسيبوفيتش (١٨٧٣ ـ ١٩٣٢) ، من زعماء المنشقية . عدو لدود للحزب الشيوعى والسلطة السوفييتية .

ماكدونالد جيمس رمسى (١٨٦٦ ـ ١٩٣٧) سياسى رجعى انجليزى، من مؤسسى وزعماء حزب العمال . رئيس الوزارة فى الحكومات العمالية فى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ .

ماكلن دوجن (١٨٧٩ ـ ١٩٢٣)، من زعماء حزب العمال الاشتراكى ـ الديموقراطى الاسكتلندى ؛ اممى .

مرهايم الفولنس (١٨٨١ ـ ١٩٢٥) ، مناضل فى الحركة النقابية الفرنسية . فى بداية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وقف موقفاً اممياً ، ثم انزلق الى الاشتراكية ـ السوفيتية .

موديلياني جوزبية ايمانويله (ولد فى ١٨٦٨)، من زعماء الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الايطاليين. اصلاحى. قاد مع تواتى الكتلة اليمينية المتطرفة فى الحزب الاشتراكى .

موللر غوستاف (ولد فى ١٨٦٠) اشتراكى شوفينى سويسرى .

مونترنبرغ ولهم (ولد عام ١٨٨٩) من موسسى حركة الشباب الشيوعية فى المانيا. فى (١٩١٤ ـ ١٩١٩) ، سكرتير اتحاد الشباب الاشتراكى الاممى ثم سكرتير الشباب الشيوعى .

ميليوف بافل بيقولاييفيتش (١٨٥٩ ـ ١٩٤٣) زعيم البورجوازية الاستعمارية الروسية ، زعيم حزب الكاديت .

ذرمن (نوريمان) تورة (ولد عام ١٨٨٦) اشتراكى اسوجى يسارى . اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١١ ـ ١٩١٨)، انضم الى الجناح الزيميرفالدى اليسارى؛ وفيما بعد من مؤسسى الحزب الشيوعى الاسوجى.

نقولاى الاول رومانوف (١٧٩٦ ـ ١٨٥٥) امبراطور روسى (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) .

نقولاى الثانى رومانوف (١٨٦٨ ـ ١٩١٨) آخر امبراطور روسى (١٨٩٤ ـ ١٩١٧) .

هآزه هوعو (١٨٦٣ ـ ١٩١٩) احد زعماء الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية ، وسطى .

هارتشتين (ليفى ، باول) (١٨٨ ـ ١٩٣٠) ، سياسى المانى ، محام .

هانيتكسى باكوف ستانيسلافوفيتش (ولد عام ١٨٧٩) ، من ساسة الاشتراكية ـ الديموقراطية فى بولرنيا وليتوانيا .

هايلمان ارنست (ولد عام ١٨٨١) اشتراكى ـ ديموقراطى المانى يمينى .

هوغلوند زيت (ولد عام ١٨٨٤)، زعيم الجناح اليسارى فى الاشتراكية ـ الديموقراطية وحركة الاحداث فى اسوج ، اممى فى سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

هويسمانى كميل (ولد عام ١٨١٧)، من زعماء الاشتراكيين البلجيكيين اليمينيين .

هيلكويت موريس (١٨٦٩ ـ ١٩٣٣)، مؤسس الحزب الاشتراكى الامريكى. اعتنق اولا الماركسية، ثم انزلق الى الاصلاحية والانتهازية .

هيندمان هنرى مارس (١٨٤٢ ـ ١٩٢١) من ساسة الحركة العمالية الانجليزية؛ من مؤسسى الاتحاد الاشتراكى ـ الديموقراطى؛ اشتراكى ـ شوفينى .

وليامس رسل ، اشتراكى انجليزى . اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، وقف ضد الحرب ، وانتقد زعماء الاممية الثانية .

جورباتشوف

راقص الاستربتيز(1)

تدمير الاتحاد السوفياتى :

من هو جورباتشوف ؟ هل هو شخصية غيرت وجه التاريخ؟ هل غيرته للأفضل أم للأسوأ ؟ هل حقق الفائدة لبلاده أم العالم ؟ وما هى الأساليب التى استخدمها فى تغيير مسار التاريخ ؟ لقد رقص الاستربتيز أى خلع قطعة قطعة من ملابسه حتى أصبح عاريا تماما .

لمح جورباتوشوف أن الشيوعية مجرد أساطير أيدلوجية وهكذا تخلى عن عقيدته وأصبح بدون هوية.

وفى اكتوبر ١٩٨٦ أثناء قمة ريكيافيك قدم جورباتشوف تنازلين هامين الأول التخلى عن شمول المعادلة الاستراتيجية الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى والثانى تجاهل القوات النووية الانجليزية والفرنسية من المعادلة ولكن ريجان لم يتنازل وأصر على بقاء برنامج حرب النجوم وكان جورباتشوف دائما هو البادئ باقتراح لنزع التسلح فى مجال الصواريخ بعيدة المدى فتضع أمريكا شرطا صعبا هو التفتيش على الصواريخ ضمانا لعدم الخداع وبعد نقاش وجدل طويل يوافق جورباتشوف على الشرط الأمريكى.

فى بلغاريا وجه السفير السوفياتى انذارا بضرورة خلع الدكتاتور جيفكوف وفى رومانيا هنأ جورباتشوف قادة الإنقلاب على نجاحه وفى بولندا تخاذل جورباتشوف عن تقديم أى معونة للنظام الحاكم هناك .

(١) ٢٤ شخصية سياسية هزت البشرية - ياسر حسين - اصدار دار الراية .

وعندما هاجر الآلاف من المجر إلى النمسا لم يتحرك جورباتشوف وكانت هذه هى إشارة النهاية لسقوط كل النظم الشيوعية.

كان جورباتشوف قد أطلق صيحة البيت الأوروبى المشترك ولهذا كان لابد من إزالة الحواجز التى تمنع البيت من الاتحاد وكان سور برلين هو أقوى حاجز لذا كان من الضرورى سقوطه ولهذا ضغط جورباتشوف على هونيكر زعيم المانيا الشرقية لتطبيق البيروسترويكا فلما رفض وجه جورباتشوف خطابه للشعب قائلا« إذا أردتم الديمقراطية خذوها بأنفسكم» فكان أن اشتعلت المظاهرات ثم حذر مبعوث سوفياتى من قمع هذه المظاهرات فوقع السور وإنهار النظام الشيوعى.

كان قبول توحيد المانيا مقابل رشوة بعدة مليارات بمثابة تنازل سوفياتى ولكن التنازل الأعظم هو قبول انضمام المانيا الموحدة لحلف الأطلنطى فقد كان يمكن لجورباتشوف طلب إلغاء حلف الاطلنطى وحلف وارسو مقابل الموافقة على توحيد المانيا وبناء نظام أمن جماعى قائم على اتفاقيات الأمم المتحدة وهكذا أضاع فرصة السلام للعالم وجعل أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم تتحكم فيه كيف تشاء.

بعد سقوط الشيوعية فى أوروبا الشرقية تحول جورباتشوف إلى بلاده فقد قدم تقريرا للجنة المركزية للحزب وافق فيه على التعددية الحزبية وعرض مسألة الدور القيادى للحزب للنقاش. ثم ألغى الدور الرائد للحزب ثم حل الحزب نهائيا.

انقلاب مدبر :

فى ١٩٩١/٨/١٩ وقع انقلاب فى موسكو هز العالم إذ تساءل الناس هل تلتزم موسكو بتعهداتها أم تعود أيام ستالين والحرب الباردة؟

وهل تحيد موسكو عن سياسات السلام أو الاستسلام؟ ولكن بعد ٣ أيام فشل الإنقلاب فقد كانت ميزة جورباتشوف الوحيدة هى أنه أعطى الشعب الحرية بعد ٧٠عاما من الكبت وعندما وقع الإنقلاب أيقن الشعب عودة القهر فاختار الحرية ولكن هل كان اختيار الشعب هو العامل الوحيد فى فشل الإنقلاب.

كانت حجة اقصاء جورباتشوف التى أوردها قائد الإنقلاب هو مرضه ولكن نائب وزير الدفاع بعد نهاية المؤتمر الصحفى الذى عقده قادة الإنقلاب قال للصحفيين «بالطبع جورباتشوف ليس مريضا أليس هذا واضحا لكم؟» أى تمثيلية سخيفة وأى تناقض فاضح؟

وكان يلتسين قد أعلن أن مدير المخابرات الضالع فى الإنقلاب اقترح عليه الذهاب لإحضار جورباتشوف ووافق نواب البرلمان على أن يذهب بعض النواب لإحضاره.

والسؤال هنا هل يذهب هؤلاء النواب فى نزهة ؟ وأين الحرس المحيط بالرئيس المعزول ؟ وهذا يشكك فى جدية الإنقلاب خصوصا أن الاتصالات التليفونية لم تمنع جورباتشوف كما ادعى هو ذلك.

كانت وكالات الأنباء قد تناقلت خبرا مفاده أن يلتسين ونواب البرلمان يحتمون به وأن ٣٠ ألف من المواطنين وقفوا سدا بين قوات الإنقلاب واقتحام البرلمان مما أدى لوفاة بعض المواطنين.

ولكن الحقيقة أنه عندما تراجعت بعض الدبابات التى لم يكن بها ذخيرة مات ٣ مواطنين، كما أن كثيراً من الذين دافعوا عن البرلمان تم شراؤهم بالمال وكان يلتسين قد زعم أن غالبية قوات الجيش قد انضمت له إلا أن أحد الجنرالات كذب هذا الادعاء.

ماهو رأى جورباتشوف فى كل هذا؟ قال « كانت ثلاث طائرات تكفى.. وتزيد لتحطيم كل شئ !!!»

عجبا هذا هو الانقلاب أى أن المقاومة الشعبية هى أسطورة واحتماء يلتسين بالبرلمان أسطورة أخرى وخوفا من افتضاح سر الانقلاب قال للصحفيين «لن أقول لكم أبدًا كل ما أعرفه» ولم يكن أعضاء البرلمان من الأغبياء ليصدقوا هذه التمثيلية فقال أحدهم لجورباتشوف « نحن على قناعة تامة أنك كنت على علم بالإنقلاب» وتسائل شيفر نادزة مهندس البيروسترويكا اليهودى عما إذا كان جورباتشوف قد شارك سلبا أو إيجابيا فى عملية الإطاحة به.

من فجر مشكلة القوميات :

فى ١٩٨٩/٥/٢٨ حمل المتظاهرون فى أرمينيا أعلام أرمينيا فى إشارة لطلب الاستقلال عن روسيا وعندما اتخذ الأذربيجان إجراءات مشابهة أمر القاتل جورباتشوف بدخول الدبابات السوفياتية إلى باكو عاصمة الجمهورية وداست على المدنيين فى مذبحة كبرى واتهم السفاح القوميين هناك بأنهم كانوا على وشك قلب السلطة السوفياتية وتشكيل دولة أذربيجانية إسلامية موحدة

وقال أن التدخل العسكرى كان ضروريا لتوطيد النظام وسد الطريق أمام المؤامرة التى تستهدف اعطاء السلطة للمتطرفين.

حض كورباتشوف من خلف الستار على إفشاء البروتوكولات السرية للمعاهدة السوفياتية النازية فى عام ١٩٣٩ التى تنص على جعل ليتوانيا تابعة للاتحاد السوفيتى هذه الملاحق السرية وأذيع أن هذه البروتوكولات باطلة فبأى حق يحتفظ الاتحاد السوفيتى بليتوانيا ودول البلطيق؟

سعت بعض الجمهوريات للحصول على الاستقلال العسكرى فتوجه وزير خارجية استونيا لموسكو للحصول على أكبر قدر من المجندين الاستونيين فى كافة أنحاء الاتحاد ليضمهم للشيات تم تكوينها فى استونيا وكانت المفاجأة هى موافقة موسكو على الطلب.

لم يكتف جورباتشوف بكلُ هذا التهاون والتواطؤ بل أعطى ليتوانيا إشارة البدء بطريق الاستقلال عندما قآل من خلال ألفاظ متلاعبة أنه «يجب إعطاء حرية عمل أكبر للأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات» فالتقط الحزب الشيوعى الأصلى الاتحادى وعندما ذهب جورباتشوف لليتوانيا هذه الجملة،

وأعلن انفصال الحزب عن الحزب الشيوعى الأصلى الاتحادى وعندما ذهب جورباتشوف لليتوانيا لم يؤكد على ضرورة بقاء ليتوانيا فى الاتحاد السوفياتى بل حذر ليتوانيا من الفقر فى حالة انفصالها عن الاتحاد.

ولاشك أن هذا الأسلوب يعطى نتيجة عكسية. وهذا ما يعلمه جورباتشوف جيدا فيهود أمريكا من أصل ليتوانى على استعداد لدفع الإتاوة التى طلبها جورباتشوف حتى يعطى ليتوانيا الاستقلال .

أعلن مسئول سوفياتى أن استخدام القوة أمر مستبعد وبعد فوات الأوان اتخذ جورباتشوف قرارا بالحصار الاقتصادى على ليتوانيا ولو اتخذ هذا القرار مع أول بادرة انفصالية لاختلف الأمر ولكن هذا القرار فى هذا التوقيت أثار مزيدا من التحدى فى نفوس الليتوانيين ففشل الحصار وأعلنت استونيا ولاتفيا استقلالها أيضا .

ثم طلب جورباتشوف من هذه الدول تجميد الاستقلال وهو اعتراف ضمنى به إذ لايمكن تجميد إلا ماهو قائم فعلا.

وأخيرا قرر جورباتشوف التدخل العسكرى وقاد مذبحة جديدة ولكنها طبعا أصغر كثيرا من مذبحة أذربيجان وكانت النتيجة كالعادة هى الفشل الذريع والانسحاب ثم انتقلت عدوى الاستقلال إلى أوكرانيا التى تمثل القوة السكانية الثانية بعد الروس فى الاتحاد السوفياتى.

الروس قادمون :

فجأة وفى أواخر الثمانينات انفتح الصنبور ليضخ الشحنة البشرية المكونة من عشرات الآلاف من اليهود السوفيات ليتجهوا فورا لإسرائيل فى أكبر هجرة يهودية فى التاريخ منذ طرد اليهود (والمسلمين) من أسبانيا عام ١٤٩٢ . ووقع جورباتشوف اتفاقية سرية مع أمريكا وإسرائيل بشأن الهجرة وتم التصديق عليها فى مؤتمر مالطة عام ١٩٨٩ على أن تظل سرية وتنص على:

١- فتح حدود الاتحاد السوفياتى للهجرة اليهودية.

٢- السماح لإسرائيل والمنظمات التابعة لها بتنظيم الهجرة والإشراف عليها .

٣- العمل على تقليص المهاجرين المتجهين لأمريكا (اين حقوق الإنسان).

٤- تقديم بعض المزايا الاقتصادية للاتحاد السوفياتى (الرشوة).

ما أن بدأ تنفيذ الاتفاقية السرية حتى تدفق السيل العرمرم وفتحت أبواب الجحيم لتسير الشحنة البشرية الملعونة فى إتجاه واحد من الاتحاد السوفياتى لـ .. إسرائيل وأمسى جورباتشوف سعيدا لـ.... إنتهاك حقوق الإنسان.

جاء جورباتشوف بنغمة البيروسترويكا والوفاق وحقوق الإنسان واتفق مع أمريكا وإسرائيل على إجبار يهود الاتحاد السوفياتى على الهجرة لإسرائيل تحت بند حقوق الإنسان وهو فى الحقيقة أبشع إنتهاك لحقوق الإنسان لأنهم يرغبون فى التوجه لأمريكا.

ولعلاج هذه المشكلة الأزلية فإن غير الراغب فى الهجرة لإسرائيل يتم توجيهه إلى النمسا أولا قبل التوجه لأمريكا ويقيم هناك لمدة أسبوعين ثم يتجه لايطاليا ليقيم لفترة تتراوح بين الشهرين والستة شهور فى الوقت الذى تواصل الدعاية الصهيونية بث سمومها وسط اليهود المقيمين فى تلك المعسكرات فيضطر أغلبهم للتوجه لإسرائيل تخلصا من الملل ومن سوء حالتهم النفسية من جراء عدم الاستقرار.

وأدلى الاتحاد السوفياتى بدلوه فى المؤامرة وذلك لمزيد من إحكام الحصار على المهاجر. فبينما تستمر رحلة المهاجر لأمريكا ٨ شهور فإن إسرائيل والوكالة الصهيونية رغبوا فى تقليل فترة الأسبوع التى يتوجه فيها المهاجر من الاتحاد السوفياتى.

أعلن جوربى عن قيام أول اتحاد للمنظمات اليهودية فى الاتحاد السوفياتى ويهدف الاتحاد لأداء دور سياسى بإبداء الآراء حول مشروعات القوانين التى يصدرها مجلس السوفيات الأعلى التى ترتبط بأوضاع اليهود كما فى القوانين المنظمة لعملية الهجرة أى أن جورباتشوف سمح بقيام لوبى يعترض على قراراته ويضغط عليه لإجباره على إتخاذ قرارات معينة!

وشكل الاتحاد الصهيونى المذكور فرقًا عسكرية «ميليشات» تحت قناع فرق الدفاع اليهودية وقامت هذه الفرق بالاعتداء بالسلاح على بعض المواطنين السوفيات المعادين للصهيونية وهكذا تشكلت دولة داخل الدولة

وأصبح هناك جيشان داخل الاتحاد السوفياتى جيش سوفياتى وآخر إسرائيلى.

تولى جورباتشوف السلطة ولأنه يدرك قوة اللوبى الصهيونى فى أمريكا -الذى ينكره الجهلاء- فقد تراجع عن شرط ضرورة إعادة الأراضى المحتلة لإعادة العلاقات مع إسرائيل بل اشترط مجرد قبول إسرائيل لعقد مؤتمر السلام الدولى بعد أن أعلن بمجرد توليه الحكم عن ضرورة عقد مؤتمر السلام بين العرب وإسرائيل حتى يعيد الاتحاد السوفياتى علاقاته مع إسرائيل.

كان الاتحاد السوفياتى يشترط ثم أخذ يتنازل عن شرط تلو الشرط فإن أمريكا هى التى اشترطت - بناء على أمر إسرائيل- إعادة العلاقات السوفياتية مع إسرائيل حتى يمكن للاتحاد السوفياتى الاشتراك فى مؤتمر السلام!!.

تقوم العناصر الصهيونية بتشويه أى موقف عربى وبتحريض إسرائيل وساعد على هذا تأييد بغداد وطرابلس لإنقلاب أغسطس ١٩٩١ الذى فشل سريعا فوضح أن للعرب علاقات قوية وحلف مع النظام الشيوعى السابق المكروه شعبيا وشكل ما سبق جوا عدائيا ضد العرب.

وأخذ الإعلام السوفياتى يركز على طرد السادات للخبراء السوفيات- بعد ١٤ عاما من الحادث- باعتباره نكرانًا للجميل كما ركز الاعلام على مقولة أن الديون الربوية للاتحاد السوفياتى هى سبب الأزمة الاقتصادية التى أدت لتفكك الامبراطورية.

عندما أعلنت السعودية فى ذروة المواجهة الأمريكية العراقية فى عام ١٩٩١ عن اقراض الاتحاد السوفياتى ٤ مليار دولار أذيع الخبر فى نشرة

اخبارية واحدة لمدة تكاد لا تتجاوز الثانية وتكرر الأمر بالنسبة للتغطية الإعلامية للمساعدات العربية التى قدمت لمنكوبى زلازل أرمينيا فى الاتحاد السوفياتى أما الطائرة الإسرائيلية التى أقلت مساعدات لهؤلاء المنكوبين فقد بث عنها خبر مصور تكرر فى عدد غير مبرر من نشرات الأخبار.

من هم نجوم الإعلام الذى يبث هذه السموم؟ ومن هم رموز النظام الجورباتشوفى الذين حولوا دفة النظام السوفياتى من التأييد الكامل للعرب إلى الحياد؟

يعترف جورباتشوف فى كتابه الشهير البيروسترويكا أن شيفر نادزة - اليهودى هو مهندس البيروسترويكا وأنه قال له أن كل شىء عفن ويجب أن يتغير أما يفجينى برماكوف اليهودى فقد عاد من العراق ليقنع جورباتشوف بضرورة موافقة الأمم المتحدة وأمريكا على ضرب العراق.

عندما تم تعيين بريماكوف مديرا للمخابرات السوفياتية بعد إنقلاب أغسطس ١٩٩١ استقال ٢٦٠ من كبار ضباط المخابرات احتجاجا على هذا التعيين ليس لأنه يهودى ولا صهيونى بل لأنه عميل للموساد الإسرائيلى واعتبر هؤلاء أن تعيين بريماكوف فى هذا المنصب الهام حلقة من حلقات التآمر على الاتحاد السوفياتى إلا أن بعض «الدكاترة» المؤرخين فى مصر ينفون هذا(!!).

كان بريماكوف مراسلا للبرافدا فى مصر ولبنان خلال الستينيات ويعتقدون أن الموساد جنده خلال تلك الفترة ومن خلال خبرته العربية عمل متخصصا فى الشئون العربية ومديرا لمعهد الاستشراق فأقدم على إلغاء قسم الدراسات الصهيونية وعرقل عمل كل من أراد البحث فى الحركة الصهيونية أى أنه عمل على حرمان القيادة السوفياتية من الدراسات

والتقارير التى تبين حقيقة إسرائيل والحركة الصهيونية.

وبعد قليل من توليه المسئولية أصبح كافة رؤساء أقسام معهد الاستشراق من اليهود فضلا من غالبية العلماء العاملين في المعهد أى أن القيادة السوفيتية أصبحت تستقى معلوماتها من اليهود (!).

الصهيونى جورجى ارباتف عميد معهد دراسات أمريكا وكندا وتخصص فى شئون نزع السلاح ووصل لعضوية مجلس السوفيات الأعلى ثم تولى منصب مستشار اندريوف ثم جورباتشوف وكانت مهمته هو تزويد الرئيس بتقارير يومية عن آخر الأحداث أى أنه كان بإمكانه توجيه قراراته بشكل غير مباشر من خلال المعلومات المقدمة له.

من هو المستفيد من إصلاحات جورباتشوف؟ هل هو الاتحاد السوفياتى؟ لا شك أن حرية التعبير هى ميزة كبرى حصل عليها الاتحاد السوفياتى ولكنها فى بلد كهذا ظل مكبوتا لمدة ٧٠ عاما انقلبت إلى فوضى ومقابل هذه الميزة الوحيدة التى تغيرت لعيب كان عهد جورباتشوف هو الخراب السياسى والاقتصادى والاجتماعى والتعليمى للاتحاد السوفياتى.

هل أمريكا المستفيدة؟ هل إنهيار القوى العظمى التى حاربتها لمدة٤ عقود يشكل انتصارا لأمريكا؟ يقوم الاقتصاد الأمريكى على إثارة الحروب فى العالم وذلك لتشغيل مصانع للسلاح وتصنيع المواد الخام ولو اختفت الحروب لانهار الاقتصاد الأمريكى وأصيب العمال بالبطالة ولهذا ما إن انتهت الحرب الباردة حتى دخلت أمريكا فى حرب ساخنة مع العراق وباردة مع ليبيا وايران وكوريا الشمالية وهايتى فأين هى الفائدة التى جنتها امريكا إن كانت ستظل تحارب إلى الأبد؟

المستفيد الوحيد هو إسرائيل. فقد العرب حليفهم الاستراتيجى بينما ظلت أمريكا تؤيدها بشراسة كما فتح جورباتشوف أبواب الهجرة للخزان البشرى اليهودى ليشكل واقعاً ديموجرافيا جديدا فى الأراضى المحتلة يساعد على تثبيت الاحتلال وإنهاء أى أمل في تحرير الضفة الغربية وبالتالى فجورباتشوف ليس إلا عميلا .. لإسرائيل.

ولكن التاريخ سيظل يذكر أن الامبراطورية السوفياتية التى عاثت فى الأرض فسادا طوال ٧ عقود (فى سدس الكرة الأرضية من عام ١٧ حتى ١٩٣٩ ثم نصف الكرة الأرضية من عام ٣٩ حتى ١٩٩١) هذه الامبراطورية جاء شخص من داخلها ليحطمها وانهار هذا البناء فجأة كهرم من ورق ونحن نقول لجورباتشوف لا تفرح كثيرا بالشحنة البشرية المرسلة لإسرائيل فأحقاد هؤلاء سيبادون فى يوم سينطق فيه الحجر والشجر قائلا « يامسلم يا عبد الله هذا يهودى ورائى فتعال اقتله».

وبعد جورباتشوف تولى ليتسين رئاسة روسيا على طريقة أسلافه أباطرة الشيوعية الملاحدة وشن حرباً شرسة على الشيشان المسلمة حتى سقطت تحت سطوته وآلة حربه الفتاكة، ولجأ أهل الشيشان ومازالو يلجأون إلى حرب العصابات .

ولقد كبر سن ليتسين وأصيب بأمراض عديدة فظل يحاول الاستمساك بالسلطة رغم تدهور صحته حتى أنه كان يسقط فى المؤتمرات والندوات ، وكان لابد من وحيله فخله بوتن الذى سار على طريقه فى قهر شعب الشيشان .

وانفرد الولايات المتحدة بزعامة العالم بعد تدهور الاقتصاد الروسى أو بالأحرى ظهور هذا التدهور بعد أن سقط القناع على حقيقة الشيوعية ،

وقهرها وإلحادها وتوزيعها للفقر على شعوبها وكبتها للحريات .

وأصبحت روسيا تحديدها طالبة معونة الأمريكان وتركت لها الساحة لتنفرد لقيادة والسيطرة ، وصارت الولايات المتحدة هى القطب الأوحد والقوة العظمى الأولى والمنفردة فى هذا العالم فزاد تمكينها لإسرائيل ودعمها بلا حدود وكالت بمكيالين ودمرت أفغانستان وأعطت الضوء الأخضر لإسرائيل لتدمير البنية الأساسية للسلطة الفلسطينية والعمل على إبادة الشعب الفلسطينى بحجة مقاومة الإرهاب .

وإليك أخى القارئ العزيز فصولا تبسط أقوال أباطرة الشيوعية منذ تأسيسها وسياستها وممارساتها ومؤمراتها بشئ من الاستفاضة ثم نختتم الكتاب بنقد الشيوعية وبيان تأثيرها فى العالم وسيرة قادتها ورجالها .

النظم الإشتراكية (١)

عرف الإنسان وهو يكافح فى سبيل تحقيق معاشه أنماطاً مختلفة من التنظيم الاقتصادى، وعلى الرغم من تباين هذه النظم فان الهدف الأساسى منها هو إشباع الحاجات غير المحدودة بالموارد المحدودة المتاحة .. ويختلف الشكل والأسلوب الذى يحاول به الإنسان تحقيق هذه الأهداف ، من زمان إلى زمان ومن مكان الى مكان ..

وقد تباينت النظم التى مارسها الإنسان تبايناً شديداً، فمنها ما يؤمن بالحرية الفردية ليتابع الفرد إشباع رغباته كمستهلك أو منتج أو عامل كالنظام الرأسمالى، ومنها ما يؤمن بالنظام الذى يحل الجماعة مكان الفرد، ويعهد إليها بالدور القيادى فى تنظيم وتخطيط النشاط الاقتصادى والقيام به.

ويقتصر دور الفرد فى الحصول على مقابل لقاء عمله والقيام به لحساب احدى المؤسسات أو التنظيمات فى المجتمع ، ولا حاجة فى ظل هذا النظام لقيام نظام الأجور بأخذ الحافز فى الاعتبار، ذلك لأن الفرد إنما يعتاد العمل ليساهم فى الناتج الاجتماعى وفقاً لمقدرته ويستهلك من هذا الناتج وفقاً لحاجاته، ويسمى هذا النظام الشيوعية الكاملة .

وهذان النظامان برغم اختلاف عقائدهما المذهبية ، يتفقان على شئ واحد هو : محاولة اسعاد الإنسان وبناء مجتمع أفضل .

وبين النظامين الرأسمالى والشيوعى توجد عدة نظم تمتزج فيها مقادير متباينة من الحرية الفردية ومع التنظيم والتوجيه الجماعى، وهى النظم الإشتراكية .

(١) بحوث سياسية ـ د. عبد القادر حاتم .

أولا. إشتراكية الدولة :

كان أول من نادى بها بروسيا والولايات الألمانية ، ويرى أصحاب هذا المذهب تأميم كل وسائل الإنتاج ، فالتأميم فى نظرهم معناه الإشتراكية ، ولكن تأميم بعض نواحى النشاط لا يعتبر سوى خطوة نحوها . فانتقال الملكية للدولة - فى رأيهم يمنع وسائل استغلال العمال أو المستهلكين.

واشتراكية الدولة تجعل الدولة محور التنظيم الجماعى، ويرى بعض أنصار الإشتراكية الحكومية أنه يجب أن تؤمم المشروعات الكبرى فقط ، أما الزراعة والصناعات الصغيرة والمتوسطة فتترك للأفراد على أن يقوموا بتنفيذ أهداف الدولة ، وهم فى هذا الرأى يتفقون مع ماركس ولينين فى عدم ضرورة تملك الدولة فى البداية للمشروعات الصغيرة .

ويقول «كوتسكى» أنه ما من إشتراكى يطلب أن تصادر أملاك المزارعين بل يجب أن تدعها تصادر نفسها بنفسها ، كما أن كوتسكى لا يقترح مصادرة الملكيات الصغيرة فالمزارع الصغير والعامل الصغير يمكن توجيهه وإدخاله ضمن أدوات المجتمع الإشتراكى بطريقة تضمن أن يكون إنتاجه موجهاً بوساطة الإدارة الحكومية فى حين يحتفظ كل منهما بملكيته.

ثانيا. الإشتراكية المسيحية :

وتقوم على الدعوة إلى مجموعة من القيم الأخلاقية تنهى الإستغلال وتحث على تحقيق العدالة الإجتماعية، كما تقوم على تحقيق إقتصاد كفائى قوامه الأسرة ، أو التنظيم الإشتراكى للصناعة ، والفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا النظام هو عدم وجود المنظم أو المضاربة أو الربح الفاحش وتكون الأجور والأثمان عند المستوى العادل بحيث يصبح كل فرد راضياً

قانعاً بنصيبه، وإلا فإنه يعتبر خارجاً على القوانين الإلهية والوضعية ، بيد أن الكتاب فى بحوثهم عن الثمن العادل والربح العادل والأجور العادلة لم يوضحوا لنا كيفية تحديد ذلك .

وقد انتشرت هذه الآراء فى العصور الوسطى ، ثم تبناها بعد بعض الكتاب من المصلحين الإجتماعيين مثل سان سيمون .

يقول «ج. هـ . كول» فى كتابه «تاريخ الفكر الإشتراكى» أن سان سيمون يرى : « أنه يجب ألا يحظى أحد بالتقدير إلا بقدر ما يؤدى من الخدمات ، وبهذه الروح تصور أن حق الملكية باق فى صورة واحدة ، فقط هى الحق فى التصرف فى الممتلكات بقدر ما يستطيع المالك إستخدامها فى أغراض طيبة ، فالعامل الفنى والمنظم الماهر يكون لهما من السيطرة على ممتلكاتهما ما يتفق وقدراتهما المختلفة التى يضاعفها فى خدمة المجتمع ، وكل المنتجين ـ من هؤلاء العمال غير المهرة ـ تكون لهم حقوق مدنية بمقتضى ما يقومون به من عمل ، ولم يلجأ سان سيمون الى الطبقة العاملة ضد أصحاب الأعمال ، بل على النقيض من ذلك كان نداؤه موجهاً إلى مجموع المنتجين كلهم لقبول أوضاع الإنتاج المنظم علمياً والتعاون وظيفياً حسب قدراتهم المختلفة فى زيادة الإنتاج الإجتماعى .

وقد أصر باستمرار على أن زعامة الطبقة الصناعية ستبقى فى يد كبار رجال الصناعة ، أى أولئك الذين أثبتوا قدرتهم كمنظمين للإنتاج ، وجعل الدور الرئيسى بين هؤلاء لرجال البنوك الذين اعتبرهم أكثر من لديه القدرة العامة على تخطيط الشئون الإقتصادية . ولم تكن لدى سان سيمون أية فكرة عن عداء جذرى بين العمال وأصحاب الأعمال فهو يتحدث عنهم باستمرار باعتبارهم يكونون معاً طبقة واحدة ذات مصلحة مشتركة ضد كل من يدعى الحق فى أن يعيش دون أن يقوم بعمل مفيد..

ثالثا. الإشتراكية الغاية :

تستهدف الإشتراكية الفابية المساعدة على إعادة بناء المجتمع بما يتفق والامكانيات الأخلاقية السامية والمثل العليا المتمثلة فى الحب والأخاء . وكان وليم موريس وسيدنى ويب ، وشو ، وجراهام والاس ، ووليام كلارك ، أبرز الدعاة إلى الإشتراكية الفابية فى بداية عهدها سنة ١٨٨٣ ، خصوصاً حينما بدأ البؤس المتزايد والفقر المدقع فى الظهور فى لندن سنة ١٨٨٩،

وحينما اشتدت وطأة الأزمات الإقتصادية وظهر عدم الإستقرار و «وحشية وضراوة النظام الرأسمالى» على حد تعبيرهم ، وكان الأساس الفابى يؤكد مبدأ التدرج فى تحقيق الإشتراكية عن طريق الاقناع ونشر المعرفة، والمعلومات والبيانات والتقدم العلمى الواقعى ، وهم يرون تعويض من يفقد حق الملكية ولا يؤمنون بالمصادرة . ولذلك نشر زعماء هذا المذهب المقالات الفابية فى سنة ١٨٨٦ والتى توضح عرضاً للفكر الإشتراكى كما يتصوره الفابيون .

ويرى أنصار هذا المذهب أن التغير ينبغى أن يكون ديموقراطياً يقبله الشعب، وأن يكون تدريجياً دون اضطراب أو قلاقل وأن يكون غير متعارض مع الأخلاق كما يجب أن يكون دستورياً سليماً .

ومن رأى أنصار هذا المذهب الأوائل، أنه لا ضرورة للتأميم الشامل وأن كان الفابيون فيما بعد قد وسعوا نطاقه، وهم يعنون بالادارة الديموقراطية أن تكون بواسطة ممثلين منتخبين من المجتمع .

والديموقراطية تتحقق فى المجتمع إذا حدث وضع حد أدنى للأجور ، ورقابة ديموقراطية على الصناعة، وثورة فى أساليب التمويل وانفاق فائض الثروة والدخل فى تحقيق الصالح العام .

بيد أن الفابية الثورية انتهت فى سنة ١٩٢٥ باعتبارها حركة سياسية تنادى بالإشتراكية ، وفقدت قوتها الدافعة على الرغم من تأييد حزب العمال لها، وعانت الفابية فترة من الركود إلى أن كان عام ١٩٤١ حيث لاقت ازدهاراً حقيقياً على يد بعض الإقتصاديين مثل كول وبعض المفكرين الأحرار .

ونلاحظ أن المبادئ الفابية والعمل بها إنما كتبت بطريقة قاطعة ، وإذا كان من فضل حققته الفابية فهو تبديد نمو الماركسية ومحاولتهم القضاء على آثار الفقر والدعوة إلى قيام التأمينات الإجتماعية .

رابعا. الإشتراكية المثالية :

ظهرت بذور الإشتراكية المثالية فى كتاب أفلاطون «الجمهروية» وهى إشتراكية مثالية أرستقراطية أخلاقية، فإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا كتاباً خياليين أو مثاليين هداهم تفكيرهم الى تخيل مجتمع إشتراكى .. رأوا أن فى الامكان بناءه بين يوم وليلة بمجرد إنتشار فكرته ودون الحاجة الى تنظيم قوة ينبعث منها هذا التغيير لإعتقادهم أن بنى الإنسان سيرحبون بتلك الفكرة السامية ، فكرة المجتمع الإشتراكى الأمثل .

هؤلاء الكتاب أمثال روبرت أوين الإنجليزى وفورير الفرنسى لم يتكلموا عن التطور الإجتماعى أو وجوب تغيير النظم بتدبير معين، وإنما صرفوا جهودهم الفكرية إلى محاولة إيجاد جماعات مثالية تقوم على القيم الأخلاقية الرفيعة وتعم بينها العدالة ، فيشرق على العالم بأسره ، ويصلح الفساد ويزول البؤس عن البائسين، ويرتد الملوك المستبدين عن غيهم بعد أن تستيقظ ضمائرهم فيحققوا المساواة والعدالة لشعوبهم . هذا النوع من الفكر الاشتراكى يسميه بعض الكتاب بالطوبية نسبة إلى النقد التهكمى

الذى أصدره سير توماس مور واسماه باسم "utopia" وفيه انتقد نظام التكالب على الثروة وفساد الدبلوماسية الإنجليزية المادية ودعى إلى ايجاد مجتمع تضامنى أشبه بما تخيله أفلاطون فهو تفكير إشتراكى أقرب إلى الفلسفة منه إلى دراسة علمية للعلاقات والأسس الاجتماعية .

خامسا : الشيوعية :

يرجع ظهور الإشتراكية الماركسية إلى المنشور الشيوعى الذى أصدره كارل ماركس أبان وجوده فى لندن سنة ١٨٤٨ وجاء فى ختامه العبارة المشهورة : « أيها العمال من كافة أنحاء العالم اتحدوا ولا تتفرقوا ».

على أن هذا المنشور لم يظهر أثره فى الحال ، وإنما اتجهت الأفكار إلى مذهب قائله عندما نشر فى سنة ١٨٦٧ كتابه «رأس المال» وفيه يرى : أن الجماعة إنما تتحول رغماً عنها وبقوة الأشياء إلى النظام الجماعى ، فالمصالح المادية هى التى تحرك الأفراد، ومن ثم تؤثر فى النظم القائمة والأخلاق المتوارثة والمكتسبة وأن النظام الرأسمالى لابد سينتهى تقدمه عند حد ، وأن تكون نهايته فى محيط أعظم الدول تقدماً فى الصناعة وهو يعنى إنجلترا ، وذلك العهد إنتهى .. غير أن النظام الرأسمالى شاهد مطلع القرن العشرين وأكثر من نصفه وهو لا يزال واقفاً على قدميه متين البناء.

ثم جاء بعده لينين» وهو من حواريى ماركس» فأدخل بعض التعديلات على آراء استاذه، لكى يستبق الحوادث ويظهر العالم على أن ثورة ١٩١٧ إنما ظهرت فى الروسيا دون أعظم الدول فى الصناعة .. والماركسية أو الشيوعية ليست مجرد نظام إقتصادى أو إتجاه إشتراكى، بل إنها مذهب وعقيدة مكتملة تشتمل على قواعد جامدة لتنظيم حياة المجتمع ، إنها عقيدة استبدادية تدعى أنها تظهر للفرد كنه حياته ووجوده ، وتدعى إنها توجد له

حلا عملياً لجميع المشاكل الأساسية التى يواجهها فى الحياة . فدعاة الشيوعية يقولون أن مذهبهم يطغى على جميع المعتقدات والتقاليد والقيم الإجتماعية ويحل محلها ، فالمذهب الشيوعى إذن يتعارض مع كل عقيدة دينية أخرى طالما أنها تفرض على الفرد ولاء يفوق ولاءه للعقيدة الشيوعية، وليس هذا الإلحاد الذى يصر عليه الماركسيون بنتيجة تأتى أثر التطور الاجتماعى الذى يحدث فى ظل نظام شيوعى ، وإنما هى ركن أساسى ونقطة ابتداء للدخول فى المذهب الشيوعى ..

وواضح أن شيوعية ماركس[1] لم تقم على أساس تنظيم اقتصادى أو إجتماعى فحسب، بل إنها إتخذت لتبرير أسلوبها فلسفة جدلية غيبية . فماركس يعتقد أن الفرد يبتعد ويتحول عن حقيقة ذاته باغراء الملكية الخاصة وباعتقاده فى وجود الله أو فى الديانات المختلفة التى تستغرق شخصيته وكيانه، فإذا أزيلت تلك العوامل - على حد قول ماركس - تيسر للفرد أن يعود إلى الحياة الإنسانية الحقة، وتمهد له الشيوعية أن يتحرر من قيود الدين والمادة معاً ..

أن الماركسية ترى الغاء الدولة لكى تتحقق الديمقراطية ، وهى تقرب الإنسان من نهايته المحتومة ، أن ماركس يهدف لإقامة فكرة براقة ، ومن ثم تقوم نظريته على العنف والصراع الطبقى الدموى وتعد الماركسيين بقرب ساعة الخلاص وبالجنة على الأرض، ولكنها جنة مخضبة بالدم، تعدهم بالسعادة والمساواة فى الفقر وتعدهم باذلال الأقوياء والأغنياء، وتتطلب من الفرد أن ينساق لحكم الجماعة ، ويفقد شخصيته وسمعه وبصره ويجمد تفكيره ، ورغم مطالبته بالغاء الدولة سياسياً فإنه لا يوضح ما هو التنظيم الذى يجب أن يسود فى المجتمع بعد إلغاء الدولة .

---

(١) ماركس كان يهودياً خبيثاً .

مقـــالات

فى الإشتراكية الفاية (١)

الفو ضوية الشيوعية :

يقول المستر تاكر : أن إشتراكية الدولة والفوضوية «تقومان على مبدأين، وتاريخ الصراع بين هذين المبدأين يكاد يشابه تاريخ العالم منذ أن ظهر فيه الإنسان ، أما الأطراف الوسيطة - بما فى ذلك مؤيدو المجتمع الراهن - فتقوم على أساس التوفيق بين هذين المبدأين» وهذان المبدأن هما: السلطة (مبدأ الدولة الإشتراكية)، والحرية (المبدأ الفوضوى) ثم يعرف اشتراكية الدولة بأنها «العقيدة التى تنادى بادارة الحكومة لجميع شئون الناس، بصرف النظر عن الإختيار الفردى»، أما الفوضوية فعقيدة تنادى «بوجوب إدارة الأفراد، أو الهيئات الاختيارية لشئون الناس، وبإلغاء الدولة».

سيعترف معظم الثوريين بأنهم صادفوا، فى تطورهم الفكرى ، مرحلة بدت فيها الإتجاهات السابقة بمثابة الحلول الوحيدة الموجودة ، غير أننا رأينا كيف أن الفوضوى الفردى يصل لا محالة إلى برنامج المستر تاكر ، وذلك عندما يشرع فى وضع مبدئه موضع التنفيذ، ومشروع المستر تاكر قائم على «المنافسة فى كل مكان وفى كل وقت » بين الملاك المحتلين ، وهذه المنافسة لا تخضع إلا لقانون أخلاقى واحد : عليك أن تهتم بشئونك أما الآخرون فلا شأن لك بهم ، وما أن يصاغ هذا المبدأ حتى يدرس رجل الاقتصاد أثره فى توزيع الثروة ، وما أيسر ما يدين الاقتصادى هذه الثروة - فى ظل قانون الإيجار الاقتصادى - فيتهمها بالانتهازية، والاحتكار، وعدم

---

(١) جورج برنارد شو.

المساواة ووجود ضرائب ظالمة غير مباشرة ويرميها بكل ما يثير اشمئزاز الفوضوية . أن هذا الإنحراف المفاجئ قد يجعل الفوضوى غير واثق من مشروعه، غير أنه لا يجعله، مع ذلك، يتقبل إشتراكية الدولة، وكل ما فى الأمر أن هذا الإنحراف يغير نظرته من زاوية واحدة ، فعندما كان راضياً عن مشروعه كان يعترف بأن إشتراكية الدولة هى الحل الوحيد الذى يمكن أن يحل محل الفوضوية الفردية - بل لقد أصر على هذا الحل ، ذلك لأن الشرور الناجمة عن الحل البديل لإشتراكية الدولة تحفز إلى قبول الحل الآخر .

ولكن ما أن يتضح أن الحلين سيئان من الوجهة الإقتصادية حتى يؤمن الفوضوى الفردى - اليائس - بأن تحليله للمشكلة الإقتصادية غير كامل ، وهو يمضى فى تحليله عنه يثير على نظام ثالث يجمع ريع البلاد ويوزعه بطريقة عادلة ، ويحول بين جهاز الجمع والتوزيع وبين اكتساب سلطات الحكومة العاتية، كما نعرفها.

وأمام عالم اليوم نظامان من هذا القبيل : الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية، والآن ليس هناك شئ نستطيع أن نقول عنه أنه ديمقراطية اجتماعية فوضوية، غير أن هناك شيوعية فوضوية أو فوضوية شيوعية، صحيح أن «المستر تاكر» لا يعرف أن الفوضوى الشيوعى فوضوى بالمرة، وهو يندد بالشيوعية بشدة باعتبارها أكبر نقيض للفوضوية الحقة ، وهو لن يعترف بوجود فترة انتقال ، منطقية ، بين إشتراكية الدولة الكاملة ؛ والفوضوية الفردية الكاملة.

ولكن، لماذا نفرض على فرد اللجوء إلى فترة إنتقال منطقية ؟ يلذ لنا، جميعاً أن نثبت أن هناك نقطتين مأمونتين فقط فى أى موضوع من

الموضوعات، أحداهما تتلخص فى الإتفاق معنا ـ وأما الأخرى فضرب من الحمق المتطرف، غير أن النقد الحالى يقتضى منا نبذ هذا التبرير الفج، ولذا نقول : إننا لن نعطى الفوضوية حقها ما لم نتحدث عن «بيتر كروبوتكين» مثلما تحدثنا عن المستر تاكر .

ثمة عقبة رئيسية تصادفنا فى نقدنا لكروبوتكين . فنحن إذا بحثنا فى توزيع الإنتاج الذى يحتاج اليه الناس وجدنا أن شيوعية كروبوتكين تجعل هذا التوزيع رخيصاً وعاجلاً ، أما نزعة المستر تاكر الفردية فتجعل هذا التوزيع باهظاً ومستحيلاً آخر الأمر، وحتى لو تحققت الديمقراطية الإجتماعية فى أكمل صورها فإننا سنظل نعيش ، من غير الشيوعية ، كالخنازير، كل ما فى الأمر أن الخنازير ستحصل على نصيب عادل من الطعام ، وقد يبدو هذا المثل الأعلى بعيداً عن الشخص الذى يقبل النظام الإجتماعى الراهن بسذاجة ، غير أن هذا المثل الأعلى نفسه لا يرضى الشخص الذى تطورت عنده الغريزة الاجتماعية.

وسيظل الإختلاف بين اللا إشتراكية والإشتراكية إختلافاً بين الأنانية غير العلمية والأنانية العلمية ـ طالما أننا نبدد طاقات ضخمة فى وزن وقياس نصيب كل شخص من هذه السلعة أو تلك ـ وطالما أننا نبدد طاقات ضخمة فى المراقبة، والتجسس، كى نمنع قوماً من الحصول على مزيد من الفتات ، أو نمنع دُيك من الحصول على كمية من اللبن أقل من حقه بملعقه ، ولست راغباً فى التهوين من شأن الإختلاف الشاسع بين اللا إشتراكية والإشتراكية .

وطالما أننا خنازير فاجعلوا منا، على الأقل، خنازير سمينة، موفورة الصحة، نافعة ـ بدلاً من الحال التى نحن فيها الآن، ولكن، لن يكون هناك

ما يدعونا إلى التمسك بكرامتنا كبشر إلا حين يوزع الخبز والسمك بطريقة تلقائية عادلة ، ونوفر الجهود المضنية التى تبذل فى التوزيع القانونى - مهما بلغت هذه الجهود من عدالة ، وفيما يتعلق بى ، أريد مجتمعاً لا أشغل فيه نفسى بحفنة مضحكة من العملات النحاسية ، أو أضيع وقتى فى تبادلها - بعمليات حسابية معقدة - مع المحاسبين، وسائقى التاكسى، والباعة، وغيرهم من الوسطاء - لكى أحصل بعد ذلك على ما أريد ، أننى أطمح إلى العيش فى مجتمع يستطيع على الأقل أن يوحد المعاملات القائمة بيننا حتى استطيع أن أعرف قدر العمل الذى يتعين علىَّ انتاجه كى أحصل على ما أريد من ضروريات الحياة ومستلزماتها ، وأن تنظيما كهذا سيحول دون التوتر ، ونستطيع أن نلمس هذا حين نعرف أن المتخصصين فى علم الإجتماع وحدهم هم الذين يعرفون حالات كثيرة نضطر فيها الى الحل السابق لأن أى حلول أخرى غير سليمة.

وسيقول لك معظم الناس أن الشيوعية تعد فى هذا البلد مشروعاً خيالياً يحبذه حفنة من المتهورين الظرفاء ، وسيتنزهون فوق جسر مشترك، على طول ضفة مشتركة تحت ضوء مصباح الغاز المشترك الذى ينير للعادل والظالم سواء بسواء، وسيدخلون ميدان الطرف الأعر المشترك ، فإذا بدرت منهم إشارة عابرة إلى أن الشيوعية محتملة فى بلد متمدين، فسرعان ما يقبض عليهم رجال شرطة مشتركة ، ليزج بهم فى السجن المشترك .(١)

فإذا قلت لهؤلاء الناس : أن تطبيق الشيوعية على الخبز لا يعدو أن يكون امتداداً لتطبيقها على إضاءة الطرق وأنه لا يتضمن قانوناً جديداً ،

---

(١) هذا الكلام مكتوب فى الفترة من عام ١٨٨٧ إلى عام ١٨٩٢ ، عندما أوصدت حكومة سالزبورى - بالقوة - ميدان الطرف الأغر فى وجه الإجتماعات العامة .

أصابهم الإرتباك، وبدلاً من أن يتصوروا الرجل الشيوعى يدخل متجرا مشتركاً ويحمل منه خبزه ويذهب به إلى البيت يتصورونه بغريزتهم وقد إقتحم، عنوة، بيت جاره، وانتزع الرغيف من فوق مائدته ، مستنداً إلى مبدأ «أنه ملكى مثلما هو ملكك» - غير أن هذا المبدأ يطبق أيضاً على رقبة اللص إذا ما صيغ على النحو التالى :

«أنه ملكك مثلما هو ملكى» والواقع أن الإنجليزى العادى لا يستطيع أن يفهم الشيوعية إلا إذا قيل له أنها تنفق من الضرائب على كل شئ، وأن الضرائب تدفع فى صورة جهد مبذول ، وحتى إذا قلت له هذا فإنه يسألك : «فماذا عن الأعمال الذهنية» ؟ ويشرع فى هذا النقد الساذج للإشتراكية عامة .

والآن نقول : أن الفوضوى الشيوعى قد يتردد أمام هذا التعريف الذى أوردته للشيوعية، فواضح أنه فى حالة وجود ضرائب لا بد من وجود سلطة لجمعها ، ولن أصر على هذه الكلمة المقيتة : الضرائب ، ولكنى اعترف بأننا إذا أردنا تطبيق الشيوعية على مادة من الموارد (كالخبز مثلاً) بأن فتحنا متاجر عامة للخبز ، متاجر تكفى لإشباع الجميع ، يدخلها الجميع ويأخذون منها ما يحتاجون دون تردد ودون ثمن.

إذا حدث هذا وجب أن نزرع القمح وأن تدور المطاحن وأن يعرق الخبازون يومياً لكى يدبروا الكمية المطلوبة ، وواضح إذن أن متجر الخبز المشترك سيشهر إفلاسه ما لم يسانده المستهلكون بأن يبذلوا من الجهد ما يعادل تكاليف انتاج الخبز الذى يستهلكونه ، وسواء أكان المستهلك يعيش فى ظل الشيوعية أم لا يعيش فإن عليه أن يدفع الثمن، أو يترك غيره يدفع بدلاً منه .

أن الشيوعية ستجعل الخبز الذى يشتريه رخيصاً - وستوفر عليه تكاليف الموازين والمكاييل، والمحاسبين، والمساعدين، والشرطة، وغير ذلك من النفقات التى تتطلبها الملكية الخاصة : غير أن الشيوعية لن تقضى على تكاليف الخبز والمتجر، والآن لنفرض أن التعاون الإختيارى، والروح الجماهيرية، اضطلعت بأعباء الزراعية : والطحن؛ وإعداد الرغيف، فكيف يستعيد هؤلاء المتطوعون تكاليف نشاطهم ويأخذونه من الجمهور الذى يستهلك الرغيف ؟ .

فلو خولنا لهم سلطة جمع تكاليف الإنتاج من الجمهور وفرض مطالبهم فرضاً عن طريق معاقبة الهاربين من الدفع، جزاء وفاقاً لخيانتهم، فإنهم سيتحولون على الفور إلى جهاز حكومى يفرض الضرائب من أجل الأغراض العامة، وهكذا فإن شيوعية الرغيف ليست بأكثر فوضوية من شيوعية الإضاءة الموجودة حالياً فى شوارعنا .

ولن يحقق الفوضوى مثله الأعلى إلا حين يصبح المستهلك حراً فى عدم الدفع ، دون أن يناله عقاب ، اللهم إلا تأنيب ضميره ؛ وتأنيب جيرانه ، والآن، لا يمكن أن نهون من شأن الضمير وسطوته؛ والرأى العام وسطوته، وهناك ملايين من الرجال والنساء الذين يدفعون من جيبهم لمساعدة مختلف المظاهر (دون أن يلزمهم القانون بذلك) من كنائس الى قبعات مرتفعة . وثمة دافع يدفعهم إلى هذا ، هو حاجتهم الى الوقوف مع جيرانهم على قدم المساواة .

ولكن يجب أن تلاحظوا أن سطوة الرأى العام تستمد معظم قوتها من صعوبة شراء الخبز ما لم تكن محترماً بين الناس ، أما فى ظل الشيوعية فإن المواطن يستطيع أن يحتقر الرأى العام دون أن يجوع بسبب

ذلك ، وإلى جانب هذا لا نستطيع أن نعتمد على الرأى العام بوصفه قوى تلزم الناس - على طول الخط - بالتصرف السليم . فالأغراض الواقعية تجعل نشاطه مجحفا تماماً ، وكثيراً ما يفتقر الى الوازع الأخلاقى الذى يتمتع به أحياناً .

أن الرأى العام يعادى المصلح مثلما يعادى المجرم، وهو يشنق الفوضويين ويعبد ملوك النيترات ، وهو يصر على أن يضع المواطن على رأسه قبعة مرتفعة ويذهب الي الكنيسة ، وعلى أن يتزوج المرأة التى يعاشرها ، وعلى أن يتظاهر بأنه يؤمن بالأشياء التى يتظاهر الآخرون بأنهم يؤمنون بها، والرأى العام يفرض هذه اللوائح ؛ فى كثير من الحالات ، دون الرجوع إلى القانون، والواقع أن استبداده ساحق للغاية، لدرجة أن خنصره يصبح، فى كثير من الأحيان ، أوقع من القانون ، ولكن ليس هناك رأى عام مخلص يقول أن على الإنسان أن يعمل ليحصل على خبزه اليومى،

لا يقول الرأى العام المخلص هذا إذا وجد أن الإنسان يستطيع أن يحصل على الرغيف دون عمل ، والواقع أن العكس ، تماماً ، هو الذى يحدث ، فالرأى العام قد تعلم كيف ينظر إلى العمل اليدوى اليومى على أنه من نصيب الطبقات المحتقرة، والجميع يطمحون إلى الحصول على أملاك، وترك العمل، بل أن أصحاب المهن أدنى مرتبة من الأعيان المستقلين ، وقد سموا بهذا الإسم لأنهم لا يعتمدون على عمل ، وليس هذا التحيز قاصراً على الطبقة المتوسطة والطبقة العليا وإنما يتفشى أيضاً فى أوساط العمال.

أن الرجل الذى يعمل تسع ساعات يومياً يحتقر الرجل الذى يعمل ست عشرة ساعة ، والجنتلمان الذى يعيش فى الريف قد يعتبر نفسه أرفع - من الناحية الإجتماعية - من محاميه أو طبيبه غير أن العلاقة بينهما أوثق

من العلاقة بين رجال المتاجر وسائقى العربات، والعلاقة بين سائقى القطارات والسعاة فى عربات السكك الحديدة ، والعلاقة بين البنائين وحاملى المونة ، وبين الساقيات فى البارئوعموم الخدم .

ويكاد المرء ، فى هذا البلد ، أن يعلن أنه كما ازداد الشخص فقراً ازداد حذلقة، إلى أن تصل إلى طبقة بلغ من هوانها أنها فقدت إحترامها لنفسها، ومن ثم لم تعد متحذلقة، وهؤلاء يستطيعون أن ينتزعوا من أعماق بؤسهم روح الإستهتار واللا مسئولية ومن العبث أن نعتبر هذه الروح من قبيل الصراحة الصادقة أو الحرية الحقة ، وما أن ترقى إلى مرتبة أعلى وتحصل على جنيه فى الأسبوع حتى تجد أن الحسد، والتظاهر، والمجاملات المملة المزيفة وحب الألقاب الرخيصة ، والمجاراة والإحترام ، وكل الثمار البغيضة الناجمة عن الفوارق ، كل هذا يتفشى بين الذين يخسرون والذين يكسبون ، وواضح أن فكرة إقتران الفقر بالفضيلة قد اخترعت لكى تقنع الفقراء بأن ما خسروه فى هذا العالم سيربحونه فى العالم الآخر[1] .

واعتقد أن كروبوتكين كان متفائلاً من اللازم عندما تخلص من الرجل العادى بقوله : أن عدم إشتراكيته يرجع الى ضغط النظام الفاسد الذى يئن تحت وطأته ، يقول كروبوتكين أزح عنه هذا الضغط وإذا به يفكر بطريقة سليمة، ولكن إذا كان الرجل الطبيعى اجتماعياً وتجميعاً ، فكيف ينشأ الفساد والضغط اللذان يئن تحتهما ؟ هل كان من الممكن أن تظهر الملكية، بالصورة التى نعرفها. ما لم يكن الجميع تقريباً راغبين ، بل ومتحمسين

(١) قال رسول الله ﷺ : «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة ، وهذا حق لا ريب فيه

(بصراحة وبلا خجل) للعيش ، دون عمل على حساب الآخرين ، والتحكم فى هؤلاء الأخرين كلما ساعدهم فى ذلك الأسلوب الغامض للقوانين الإقتصادية ؟ .

من العبث أن نعتبر الإنسان ملاكاً هوى .

وإذا جاز لنا أن نعترف، فى المناقشة، ببطلان الخلق المطلق ، فلا شك أن الإنسان شيطان أنانى عنيد، وشيئاً فشيئاً تفرض عليه الطبيعة جبروتها الصارم، فتجعله يعترف بأنه إذا أهمل سعادة جاره فإنه سيضحى، لا محالة، بسعادته.

ولا يستطيع الإنسان ، فى ظل النظام الحالى ، أن يتعلم هذا الدرس تماماً ، ذلك أنه مقامر مدمن، وهو يعرف أن النظام الحالى يتيح له الفرصة (١٠٠ ألف إلى ١) لكى يصبح مليونيراً ، وهو يرى فى هذا الوضع قمة النعم الدنيوية، إذ عندما يصبح مليونيراً فإنه يستطيع النظر ، من عل ، إلى أناس كانوا يهينونه ويعطفون عليه.

وقد يبدو هذا الكلام قاسياً وخاصة للذين يعرفون أن العامل يعرف ما هى الحياة ، بعكس الجنتلمان ، وأنه لذلك أكثر تعاطفاً من الجنتلمان . وواضح أنه إذا اعتاد أربعة أخماس السكان ارتكاب أسوا الأمور بدافع من الأنانية التى يدفعهم إليها النظام الراهن فإن المجتمع لن يحتمل هذا التوتر ستة أسابيع ، وإلى هنا نستطيع أن ندعى أننا أفضل من منظماتنا صحيح أننا أفضل من أن تسودنا اللا شتراكية الكاملة .

غير أن هذا لا يعنى أننا صالحون للشيوعية ، وسيظل السؤال الواقعى معلقاً : هل يمكن أن نطمئن إلى أن الرجال الذين تربوا فى ظل نظامنا الحالى سيدفعون ثمن طعامهم بأمانة مع أنهم يستطيعون أخذه دون

مقابل ودون عقاب؟ وواضح أنهم إذا لم يدفعوا فإن الشيوعية الفوضوية ستصاب بالإفلاس فى مدى يومين، والجواب هو أن كل الشرور التى تكافحها الفوضوية مبعثها أناس يستغلون نظام الملكية فى الإقدام على هذا الإجراء بالذات : الإستيلاء على لقمة العيش دون بذل أى جهد فى الحصول عليها .

فما الذى يجعلنا نشك فى قدرتهم على إستغلال نفس الامتيازات فى ظل الشيوعية الفوضوية ؟ وما الذى يجعلنا نشك فى أن المجتمع - حين يشهد إفلاس محال الخبز - سيجعل مذهبه الفوضوى إدراج الرياح ، ويضرب المخطئين بيد القانون القوية كى يجبرهم على الدفع ، مثلما يضطرون اليوم إلى دفع ضريبة دخلهم ؟

إننى أعترف إذن - أمام أصدقائنا من الفوضويين الشيوعيين - بأن الشيوعية تقتضى وجود الزام خارجى للعمل ، أو أخلاق اجتماعية لم نصل اليها حتى الآن - وهذا واضح إذا ما نظرنا الى شرور المجتمع الراهن ، وأنا لا أنكر إحتمال الوصول فى النهاية إلى هذا المستوى من الأخلاق غير أننى أؤمن بأن الوصول إليه يسبقه نظام انتقالى .

هذا النظام لن يتيح فرصاً جديدة أمام العاطلين الذين يحصلون على دخلهم دون جهد، بل سيقضى على هذه الفرص تماماً وسيجعلنا نكف عن القول بأن هذا الشذوذ ممكن ، وشريف .

ويجب ألا يفترض أحد أن العقبات الاقتصادية التى قلت أنها تهدم الفوضوية الفردية - هذه العقبات ستزيلها الشيوعية تماماً صحيح أنه لو جمعنا كل خبز البلاد وفحمها ووضعناهما فى مستودع واحد يستطيع أن يأخذ منه الفرد كل ما يحتاجه وقتما يريد - دون أن يدفع شيئاً مباشراً -

فإن الإمتيازات ستختفى ، تلك الإمتيازات الناجمة عن تفوق بعض المزارع والمناجم عن الأخرى.

وصحيح أنه إذا صار فى مقدور الجميع أن يستقلوا القطار ويذهبوا إلى أية جهة شاءوا دون تذكرة فإن المرء لن يفكر فى إستغلال الفارق بين مواصلة من تشيرينج كروس إلى مانشن هاوس ومواصلة من ريد حتى فينتنور، ومن بين المزايا الهائلة للشيوعية أنها ستطبق الأسلوب الإشتراكى على كميات هائلة من الريع الإقتصادى ـ وسيتم هذا بطريقة آلية.

وهناك ريع ينشأ عن قيمة السلع عادة وهى سلع يمكن انتاجها ، وإستهلاكها. واستبدالها وفقاً لمشيئة الإنسان ، ووفقاً لمدى الحاجة إليها ، من الممكن تحرير هذه السلع من الريع بإخضاعها للملكية العامة، ولكن يجب أن نستثنى من هذا الحل السلع التى لا تستخدم على نطاق واسع ، والتى يجب ـ لذلك ـ عدم إخضاعها للملكية العامة .

ويجب أن نستثنى الأشياء التى يتسبب إغراق السوق بها فى إثارة الضيق، كشراب الجن أو الطباعة ، ثالثاً : الأشياء التى يطغى فيها الطلب على العرض، وبالنسبة للبند الثالث نواجه مشكلة الريع ثانية ، فنحن إذا أردنا أن نجعل كل مسكن فى لندن مشابها لمساكن بارك لين أو مواجهاً لحديقة ريجينت ومطلا على حدائق الجسر لاقتضى هذا جهوداً غير عادية فى الهدم ، والتعمير ، وغرس الحدائق.

ونظراً لأن هذه الأمكنة الرائعة ليست متاحة لكل شخص، فإن الأشخاص المنعمين الذين يشغلونها يجب أن يدفعوا للمحرومين ما يوازى هذه الامتيازات، وبدون هذا لا يمكن أن تصبح مساكن لندن إشتراكية ، ومعنى هذا ، فى واقع الحياة ، أن على احدى المصالح الحكومية أن تؤجر

المنازل لمن يعرض سعراً أكبر . على أن تصرف الإيجارات المجموعة فى الأغراض العامة .

ولا يمكن أن نعتبر هذه المصلحة « فوضوية » على الإطلاق ، مهما بلغ من طابعها الديمقراطى ، وفى مقدورى أن استطرد وأبين مدى إستحالة تطبيق الشيوعية المباشرة تطبيقاً عملياً ، وتختلف هذه الإستحالة من سلعة إلى أخرى ، ولكن عندما تكون هناك عقبة يستحيل حلها فإنها لا تختلف ، حينئذ ، عن عشرين عقبة .

ويكفى، فى مجالنا هذا ، أن نثبت أن الشيوعية لا يمكن أن تصل الى الفوضوية بصورتها المثالية ، ذلك أنها تضطر الى إجبار الناس على دفع ثمن الأشياء التى يستهلكونها، وحتى حين تزول هذه العقبة بعد تطور الشخصية الإنسانية ، ستظل مشكلة ـ مشكلة تتعلق بالسلع التى لا ينطبق عليها المنهج الشيوعى البسيط ، منهج «التوزيع الحر» .

وهناك نقطة عملية أخرى تقتضى التعليق : لا يمكن صبغ أى فرع من فروع التوزيع بالصيغة الشيوعية ما لم نبد. أولاً ، بصبغة جماعية .

مثال هذا أننا نستطيع ، بسهولة ، تطبيق الشيوعية فى البريد ، بأن نعلن بكل بساطة أن الرسائل ستنتقل بدون طوابع بريدية وأن ضرائب المستعمرات هى التى ستغطى النفقات ، ولكن لنتصور أن جهاز البريد فى يد آلاف من التجار المتنافسين ـ شأنه شأن معظم أجهزتنا التوزيعية : حينئذ لا نستطيع أن نحدث التغيير السابق بطريقة مباشرة ،

يجب أن تنبع الشيوعية من المذهب الجماعى ، لا من الإستثمارات الخاصة الفوضوية ، ومعنى هذا أن الشيوعية لا يمكن أن تنبع ، مباشرة ، من النظام الحالى .

ولكن ، هل يلزم إذن أن يكون النظام الإنتقالى قائماً على القمع المستبد ؟ لو حدث هذا لتحطم بسبب رغبة الناس، الجارفة، فى الهرب من تحكم إخوانهم، فى عام ١٨٨٨ وقف مواطن روسى للشهادة زمام مجلس اللوردات أثناء التحقيق فى الإرهاق الواقع على العمال ، فأعلن أنه تخلص من التحكم السوفيتى ، حيث كان يعمل ثلاث عشرة ساعة يومياً ليعمل فى إنجلترا ثمانى عشرة ساعة يومياً، لأن إنجلترا أكثر حرية.

أن العقل يقف جامداً أمام رجل ترهقه ثلاث عشرة ساعة فيبحث عن خمس ساعات أخرى من الإرهاق ، لكى يستطيع بعدها أن يقول - دون خوف - أن المستر جلادستون أفضل من اللورد سالزبورى، ولكى يستطيع بعدها أن يقرأ جون ستيوارت مل ، سبنسر ، وصحيفة «رينولدز» خلال الساعات الست التى بقيت له لينام فيها .

أن هذا يذكرنا بقصة القاضى الأمريكى الذى حاول أن يغرى عبداً هارباً بالرجوع إلى المزرعة بأن بين له أن المعاملة التى كان يلقاها هناك أفضل من المعاملة التى يلقاها الأسود الحر الذى يتقاضى أجراً فى الولايات المطالبة بالغاء الرق، فما كان من الهارب ألا أن قال : «نعم ، ولكن، لو كنت مكانى فهل ترجع ؟ » .

وسرعان ما تحول القاضى الى رجل ينادى بالغاء الرق. أن مثل هذه الأشياء لا يمكن ابطالها بالرجوع إلى المنطق .. أن الإنسان يستسلم للمصير، والظروف، والمجتمع ، وأى شئ يتسلط عليه بطريقة غير شخصية، غير أنه يتمرد دوماً على المستبد إذا كان شخصاً ، سواء ظهر فى صورة الأب، أو المدرس، أو الأسطى، أو الزعيم الرسمى، أو الملك، وهو، مثل الروسى، يفضل أن يضطر «بالضرورة» إلى العمل ثمانى عشرة ساعة

يومياً ، على أن يأمره سيد بالعمل ثلاث عشرة ساعة، والأمة الحديثة التى تحرم من الحرية الشخصية أو الإستقلال الذاتى الوطنى لن تتوقف هنيهة لتفكر فى وضعها الاقتصادى ، ولتفرض نظاماً اشتراكياً يحرم الناس من إحساسهم بالحرية الشخصية، أن هذا النظام قد يضاعف من أنصبتهم ويخفض من ساعات عملهم إلى النصف، غير أنهم سيشرعون فى التآمر على خذا النظام، ولما يبلغ العام الأول من عمره. لماذا نعترض على الإحتكاريين فقط ، أننا نكره السادة أيضاً .

والآن لقد بلغ من عدم اخلاصنا أن الشيوعية - بدون ضرائب وبدون عمل إجبارى - لا تصلح لنا ، وبلغ من عدم احتمالنا للتبعية أننا نرفض العمل تحت سلطة فرد إجبارية ، فكيف إذن نطالب بفترة الإنتقال كى نحقق التوزيع العادل بدون شيوعية، ونحافظ على الحافز إلى العمل بدون سيادة ؟ الجواب هو : بتطبيق الديمقراطية، والآن ، وقد اتخذت فى النهاية موقفاً إيجابياً ، يجدر بى أن أكف عن انتقاد الفوضويين، والدفاع عن الديمقراطية وحمايتها من انتقاداتهم .

ولهذا أعود الآن إلى نقد المستر تاكر لإشتراكية الدولة ، وإذا شئنا الدقة اسميناها بـ «الديمقراطية الإجتماعية» . ذلك أن هناك نوعاً من الاشتراكية التى لا تعد من الديمقراطية الاجتماعية فى شئ - كاشتراكية بسمارك ، واشتراكية حزب انجلترا الشاب، المنقرض ، واشتراكية الدعاة إلى الإقطاع النزيه ، والذين يحتقرون الرعاع عادة.

ليست هذه ديمقراطية اجتماعية، وإنما هو استبداد اجتماعى، وقد نرفضه قائلين أنه ليس أفضل من الإجرام النزيه، أو الجشع المتقشف، أو الكذب الصادق. أن المستر تاكر، بوصفه أمريكيا، يستهين بالمسألة بإعتبارها لا تستحق طلقة نار، وواضح أنه يشير إلى دولة ديمقراطية، فهو يعود دائماً إلى مبدأ الأغلبية، ويؤكد - بصفة خاصة - أنه «لن تكون هناك سوى مادة واحدة فى دستور الدولة الإشتراكية . تقول هذه المادة : يعتبر حق الأغلبية حقاً مطلقاً » ، وإذ يجعل الديمقراطية تهرب إلى قلعتها، يشرع فى توجيه مدافعه الثقيلة نحوها، وذلك على النحو التالى :

«أن النظام الخاص باشتراكية الدولة يجعل المجتمع مسئولاً عن صحة الفرد، وثروته، وحكمته، وستصرف المجتمع معتمداً على الغالبية، فيزداد أصراره على فرض الشروط الصحيحة، والظروف الخاصة بالثروة، والتصرفات الحكيمة، وبهذا سيسئ المجتمع إلى استقلال الفرد، ويقضى عليه فى النهاية، وبضياع الاستقلال الفردى تضيع المسئولية الفردية .

«إذن ، فمهما أكد الداعون إلى إشتراكية الدولة ومهما نفوا ، فإن نظامهم - إذا طبق - سيتحول إلى دين رسمى ، دين يسهم الكل فى نفقاته ، ويركع الكل عند هيكله ، ويتحورل إلى كلية طب حكومية يجب أن يعالج كل

المرضى عند أطبائها، كما يصبح نظاماً صحياً حكومياً يحلل ويحرم المآكل والمشرب والملبس والسلوك، ويتحول إلى لائحة حكومية للمعايير الأخلاقية، لائحة لا تكتفى بمعاقبة المجرم، وإنما تحرم الأشياء التى تعتبرها الغالبية رذيلة.

وسيصبح النشاط التعميرى تابعاً للدولة، وبهذا تختفى جميع المدارس الخاصة، والاكاديميات، والكليات، وستصبح دور الحضانة حكومية، وعلى الأطفال جميعاً أن يلتحقوا بهذه الدور، على أن يتكفل المجتمع بالنفقات، وفى النهاية ستصبح الأسر حكومية ، إذ ستكون هناك محاولات لإنجاب السلالات المنتقاة ، أو الإنجاب بطريقة علمية ، وفى هذه الحالة لن يسمح لرجل أو امرأة بإنجاب أطفال إذا لم ترد الدولة أطفالاً ، ولا يستطيع رجل أو امرأة أن يرفض إنجاب الأطفال إذا أمرته الدولة بإنجاب أطفال ، وبهذا يبلغ التسلط ذروته ويبلغ الإحتكار منتهى سطوته» .

حين أقرأ هذا الكلام أتذكر عادة المستر هربرت سبنسر حين كان يفترض الإفتراض التالى : إذا لم يكن الشئ أبيض فلابد أنه أسود . أن المستر تاكر يستند إلى أن السلطة « تميل دائماً الى تدعيم مركزها ، وتوسيع رقعة نفوذها ، وتخطى الحدود المرسومة لها ، ولذلك لا يرى بديلاً للسيطرة الشاملة على الفرد سوى الغاء الدولة نهائياً . فإذا وصلت الأمور إلى هذا الحد بالفعل فسيان - فى نظرى - أن يعيش الفرد فى ظل هذا النظام أو ذاك ، ذلك أن الإلغاء الشامل للدولة معناه القضاء على القوة الجماعية للمجتمع - فإذا قضينا على هذه القوة تحتم علينا أن نلغى المجتمع نفسه.

وهناك طريقتان لتنفيذ هذا :

أولاهما : القضاء على الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع ، ولا يمكن تنفيذ هذا الإجراء دون تدخل فى مطالبهم الشخصية ، وهو تدخل أكثر خطورة من التدخل الذى تطلبه الديمقراطية الإجتماعية (حتى بالصورة التى يريدها المستر تاكر) .

ثانيهما : توزيع الجنس البشرى على الكرة الأرضية على هيئة نساك مستقلين، على أن يشغل الميل المربع خمسة وعشرون ناسكا،

غير أن هذا الوضع سيخلق تفاوتاً فى الظروف والفرص بين النساك الموجودين فى تيرا ديل فويجو أو المناطق القطبية، والنساك الموجودين فى فلوريدا أو الريفييرا ولن يوافق هذا كثير من الأمزجة ، والوحدات المنتشرة سرعان ما تتجمع من جديد ،

فإذا حدث هذا فوداعاً للسيادة ! فإذا كانت الغالبية تؤمن باله غاضب غيور فإنها لن تسمح لفرد (بصرف النظر عن وجود الدولة أو عدم وجودها) بأن يغضب هذا الاله أو يجعل غضبه ينصب عليها، أنها تفضل رجم هذا الفرد بالحجارة ، أو حرقه، لكسب رضا الرب، ولن تسمح الغالبية للفرد بأن يسير وسطهم عارياً ، فإذا ارتدى ملابس تبدو فى نظرهم مدعاة للسخرية أو الفضيحة ضحكوا منه ، ورفضوا أن يستقبلوه فى ولائمهم واعترضوا على التحدث معه فى الطريق ، وربما أوصدوا دونه الأبواب واعتبروه معتوهاً، ولن يسمحوا له بإهمال الإحتياطات الصحية التى يعتبرونها لازمة لحمايتهم من المرض .

وإذا قام بينهم النظام الأسرى مثلما يقوم اليوم بيننا ، فإنهم لن يسمحوا له بالتزوج من بنات بعض الأسر، وسيتحكم طلبهم فى السوق لدرجة أنه لن يجد فى معظم المحال سوى السلع التى تفضلها غالبية

المستهلكين ، ولن يجد سوى المدارس التى تسير وفقا لمثل معظم الآباء العليا ، ولن يجد من الأطباء المدربين سوى النفر الذى تثق بكفايته دائرة كاملة من المرضى.

ليس هذا من قبيل «العبودية» التى تبشر بها الديمقراطية الاجتماعية، ذلك أن هذه العبودية قد جاءت بالفعل، وأكثر من هذا أن أكبر برنامج عملى سلبى تفصيلى وضعته الفوضوية حتى الآن لا يتضمن أى تخفيف من هذه العبودية ، ولا يستطيع أن ينكر أحد أن هذه العبودية عبودية بالفعل إذا ما قورنت بالحرية المطلقة المثالية ، تلك الحرية التى لا تعترف بمسئولية .

أما إذا قورنت بعبودية روبنسن كروزو، وهى أكبر بديل فوضوى ، فإن الطبيعة - سيدتنا الآمرة - تسمح لنا بأن نسميها «حرية» والواقع أن روبنسن كروزو على استعداد دائم للتنازل عن حقوقه غير المحدودة ، وسلطاته المحدودة مقابل حقوق محدودة وسلطات هائلة نسبية ، تلك السلطات التى يتمتع بها «عبد» الأغلبية . ذلك أن المرء إذا اختار (وكثيراً ما يختار) الإيمان بما يؤمن به زملاؤه، وعبادة ما يعبد زملاؤه ، فإنه يجد المعابد تبنى والطقوس تنظم على حسابه، وهو لا يكاد يدرك هذا ، والمأكل، والمشرب ، والأثاث الذى يفضله - كل هذا ينتظره فى المتاجر، وعلى مسيرة خمس عشرة دقيقة من باب بيته توجد المدارس التى يتلقى فيها أطفاله المعارف التى يحددها إخوانه المواطنون .

أما المصباح الأحمر الذى يتصدر عيادة أشهر طبيب فيلمع، فى ثقة ، عند منعطف الطريق ، وهو حر فى معاشرة نساء أسرته دون خوف من ريبة أو فضيحة .

فإذا لم يكن حراً فى التزوج منهن فإن هذا لا يضيره ، فهو لا يريد

أن يتزوج منهن، ما اسعد حظ هذا الإنسان ، بالرغم من عبوديته .

ويصبح فرداً شاذاً : نعم ، غير أن هذا كله لا يصدق على . أنا أريد أن أتزوج شقيقة زوجتى المتوفاة ، وأنا على إستعداد لأن أثبت لكم أن نظامكم الصحى المعتمد ليس إلا رواسب من السحر والشعوذة ، أما مدارسكم فأجهزة لفرض المعارف المزيفة على الأطفال ، كى تستطيع الجامعات بعد ذلك أن تدمغهم بطابع المثقفين بعد أن فقدوا فى النهاية قدرتهم على التفكير المستقل ، أما القبعات الحريرية المرتفعة، والقمصان الكتانية المنشاة، فانكم تجبروننى على إرتدائها، وبدونها لا استطيع أن أمارس، بنجاح، عملى فى الطب، أو الكنيسة، أو المدرسة، أو المحاماة، أو التجارة. غير أنها غير مريحة ، وغير صحية، كما أنها قبيحة، ومتباهية ، ومؤذية ، ومعابدكم مخصصة لاله أو من به .

وحتى لو آمنت به فإنى سأظل اعتبر طريقتكم الشعبية فى العبادة مجرد بقايا من الأوهام والخزعبلات يدل على ذلك عدم صدقها واخلاصها . والعلم يقول لى : إن طعامى المناسب يتألف من الخبز والفاكهة الجيدة، غير أنكم تفاخرون بطعامكم ، هذا الطعام الذى يقدم إلى الأبقار والخنازير بدلاً من الخبز والفاكهة ، وتتلخص عنايتكم بصحتى فى توصيل المجارى المشتركة - بأبخرتها المميتة الحاملة للتيفود - إلى منزلى ،

ثم تتخلصون من حمولة المجارى فى النهر، الذى استحم فيه وأشرب منه ، وأنتم تتظاهرون بأنكم تحموننى وتحمون ما أملك ، ومن أجل هذا تأخذون نقودى بالقوة كى تنفقوها على جيش من الجنود ورجال الشرطة ، من أجل تنفيذ قوانين وحشية مكروهة ، ومن أجل الإشتراك فى حروب أمقتها ، ومن أجل إخضاعى لحقوق الملكية القانونية ، تلك الحقوق التى

تجبرنى على أن أبيع نفسى ـ مقابل أجر ـ لطبقة اعتبر بقاءها أكبر شر يتهدد عصرنا . أن جبروتكم يجعل فرديتى نفسها عقبة فى طريقى ، لقد قضى على ، وسبقنى التافهون ، والسذج ، والإنتهازيون ، والتطور ، فى ظل ظروف كهذه ، معناه التحلل ، من أجل هذا أطالب بالغاء كل هذه الإجراءات المتطفلة وأعلن نفسى فوضويا .

والإعلان، فى ظل هذه الظروف، لا يدعو إلى الدهشة، غير أنه لا يصلح الأمور بأية حال من الأحوال، ولا يمكن أن يصلحها إذ ظل كل شخص يردده بحماسة ، وإذا لجأ كل الناس الى الفوضوية .

إن الغالبية لا تجد من استبدادها مناصا، حتى لو فتحت أمامها السبل، ولا شك أن العملاق وينكل مبير يجد مداخل بيوتنا غير مريحة، شأنه شأن الأشخاص الذين لا يتجاوز طولهم خمسة أقدام ، فهم يقولون : أن إنحدار أرضية المسرح ليس كافياً، ولا يمكنهم من الرؤية بسبب الجالسين أمامهم، ولكن، طالما ظل إرتفاع المرء خمسة أقدام وثمانى بوصات تعذر الحصول على مخرج.

أن البنائين سيجعلون الأبواب والأرضيات ملائمة للغالبية ، ولن يلقوا للأقلية بالا ، ونظرا لأن أمامك أحد أمرين ـ أما إن تخدم الغالبية أو تخدم الأقلية ـ فإن الطرف الأقوى هو الذى سيعيش ، وقد يكون سبب استمراره فى العيش مدعاة للاعتراض ، غير أنك لا تعدم محافظاً ذكياً يقدم لك أسباباً وجيهة تدعم موقف الغالبية، غير أن الواقع سيظل كما هو : أن هذه الغالبية ستعيش ، سواء كان ذلك مشروعاً أو غير مشروع.

هذه النقطة هى التى تحسم الأمر بين الأغلبيات الديمقراطية والأقليات الديمقراطية ، وحينما اشتبكت مصالح الطرفين وجب أن يتراجع

الطرف الأضعف. ذلك أن المساوئ التى ستنجم عن هذا الإجراء ليست بأخطر من المساوئ التى ستنجم عن استسلام الطرف الأقوى[1]. ومن أجل هذا لا تجد الأغلبية غضاضة فى إجبار الطرف الأضعف على الإستسلام .

فإذا نظرنا الى الواقع وجدنا أن هذا الوضع لا يعنى أن السلطة المطلقة للغالبية ، ولا يعنى أيضاً «أن الرجل الشاذ معصوم من الخطأ» ، وهناك حالات تفضل فيها القلة شيئاً ، غير أن تفضيلها لا يعوق الطريق الذى تفضله الغالبية، وهناك حالات أكثر يسهل فيها احتمال التعويق ، فهو أيسر من الثمن الذى ندفعه إذا نحن قمعنا هذا التعويق ذلك أن القمع يكلف، حتى ولو كان موجهاً ضد الأقلية .

وأقرب مثال لهذه القلة المعتوه الذى يتوهم شيئاً ، ومع ذلك فليس من الخطر أن تقع فريسة دستة من الأوهام وتصبح عبيطاً أنانياً للغاية، ومتعباً، ليس من الخطر أن يحدث هذا بالرغم من سلطان الغالبية ، ذلك أن الغالبية لن تكلف نفسها عناء اجراءات تتخذ ضدك إلا حين تكتشف أن حبسك أرخص من تركك طليقاً. بهذا نضمن - للأقلية القليلة - حداً أدنى من الحرية، فى ظل أى نظام. صحيح أن الأقليات قد تتضخم وتفقد أحياناً الحماية التى يتمتع بها الضعفاء، وفى هذه الحالة تفقد ، من حصانتها، ما يربى على مكاسبها العددية.

(١) من المؤكد أن المساوى هنا أقل خطورة إذا نحن أعددنا التقدير بالطريقة المعروفة ، بأن نعتبر الشرور التى يعانى منها مائة شخص ضعف الشرور التى يعانى منها شخص واحد ، غير أن هذا التقدير عبث فى عبث ، أن مائة رجل جائع ليسوا أكثر جوعاً من الرجل الواحد بمقدار مائة ضعف ، وإذا كان هناك مائة رجل من فئة الخمسة أقدام والثمانى بوصات طولاً ، فليس معنى هذا أن طول الواحد منهم مائة وست وستون قدماً وثمانى بوصات ، غير أنهم أقوياء ، مائة مرة ، من الناحية السياسية وبالرغم من أن الشر قد لا يتجمع إلا أن القدرة على مقاومته تتجمع .

وهكذا نستطيع أن نقول أن أضعف الأقليات ليست بالضرورة أقلها عدداً. فالأقليات تصبح ضعيفة حين يبلغ من ضخامتها أن الغالبية تدرك وجودها، ويبلغ من ضعفها أن الغالبية لا تخشاها ، غير أن الأقليات تمارس على العموم نفوذاً ملحوظاً قبل أن تصل هذه المرحلة الخطرة ، وبعد أن تجتازها .

ورب قائل يقول : أنهم فى حكم الأصفار، لأن الغالبية ستسحقها عندما تمتحن قوتها غير أنه ينسى هنا الخسارة التى يلحقها الصراع بالظافرين.

وعادة ما نجد أن الرجل الأعزل الذى يزن ثلاثة عشر حجراً يستطيع أن يهزم رجلاً زنته أحد عشر حجراً فقط ، غير أن الأمر لا يستحق هذا إلا فى الحالات الطارئة النادرة ، ذلك لأن الرجل الأضعف قد يقاوم ما وسعته المقاومة (وهو أمر محتمل على الدوام) ، ولهذا سيخرج المنتصر من المعركة وهو أسوأ مما كان قبل المعركة .

وفى عام ١٨٦١ تحاربت ولايات الشمال وولايات الجنوب الأمريكية ، تحاربت حتى آخر رمق ، ونجح الشمال ، غير أنه دفع الثمن كبيراً ، الأمر الذى يجعلنا نقول : أن ولايات الجنوب لم تصبح أصفاراً على الإطلاق ، ذلك أن الغالبية المنتصرة أحست منذ ذلك الحين أن من الأفضل لها أن تستسلم (اللهم إلا فى المسائل الحيوية للغاية) بدلاً من إثارة معركة أخرى كهذه ، ولكن ، لا يحدث كثيراً أن ينشب صراع حاسم بين الغالبية والأقلية على مستوى الأمة كلها . فنحن نجد ، فى معظم الحالات ، أن شطراً ضئيلاً فقط فى الأمة هو الذى ينعم بمصلحة أو بأخرى ، والرجل الذى يجد نفسه وسط غالبية بصدد إحدى المسائل قد يجد نفسه وسط أقلية عند

التعرض لمسألة أخرى - وهكذا يعرف ، بالتجربة ، أن للأقليات حقوقاً تجب مراعاتها . وإلى جانب هذا تحفظ الأقليات التوازن بين الأغلبيات التى تعترف بحقوقها ، والأغلبيات التى لا تعترف بهذه الحقوق .

مثال هذا : الحزب الإيرلندى فى البرلمان الإنجليزى ، وأكثر من هذا أن اللا مركزية تجعل سلطة - الغالبية - فى الأمة كلها - مقصورة على أمور يعد الإختلاف فيها تصرفاً غير واقعى - لذا نجد أن من الممكن ، بل ومن الضرورى ديمقراطياً ، أن يكون الإتحاد بين مجالس إنجلترا البلدية من المرونة بحيث يسمح لبلدية ليسستر أن تحرم التطعيم ، على حين تجعله كل مدينة أخرى فى الجزيرة إجبارياً .

بل إننا نجد، فى الوقت الحالى، إن التطعيم ليس إجبارياً فى ليسستر، بالرغم من أنه إجبارى فى نص القانون ، فإذا تكلمنا على المستوى النظرى قلنا: إن ليسستر استحالت الى صفر على يد باقى مناطق انجلترا ، غير أن ليسستر تساوى ، فى الواقع ، مائة فى المائة فيما يتعلق بالشئون المحلية المحض .

موجز القول أن الديمقراطية لا تعطى للغالبيات سلطة مطلقة ، كما أنها لا تساعدها على إحالة الأقليات الى أصفار . أن الديمقراطية لا تسمح للغالبية بتلك السلطة المحدودة التى تساعدها على قمع الأقلية - فى الوقت الذى تسمح لها الفوضوية بهذه السلطة ولا تنزعها منها . أن الرجلين أقوى من الرجل الواحد - هذا هو كل ما فى الأمر . وليس هناك سوى سبيلين لتصفية هذه الحقيقة الطبيعية . أحداهما : أن تقنع الناس بأن الإستهانة بسلطان الأغلبية أمر مناف للأخلاق ، ثم نجعلهم بعد ذلك اخلاقيين يبتعدون ، بطبيعتهم ، عن هذا الخطأ . السبيل الآخر : تنفيذ فكرة ليتون الخيالية ،

بأن نبتكر وسيلة يستطيع بها الفرد أن يدمر كل زملائه بلمحة خاطفة من فكره ، وبهذا تجد الغالبية ما يدعوها الى الخوف منه مثلما يخاف هو من الغالبية ، غير أننا لا نعثر على وسيلة تحقيق أى مطلب من المطلبين سواء لدى الفوضوية الفردية أو لدى الفوضوية الشيوعية ، وهكذا نجد أن هذين النظامين .

ونحن نتكلم هنا عن شرور طغيان الغالبية ـ ليسا أفضل من البرنامج الديمقراطى الإجتماعى الخاص بحق الإنتخاب للبالغين مع الإنفاق على النواب ودفع نفقات الانتخابات من ميزانية الدولة ، أنها أساليب خاطئة دون شك، غير أنها تستطيع تحقيق الأشياء التى يستطيع الإنسان اليوم بفضلها أن يجعل الدولة ممثلة للأمة ، ويجعل الحكومة مدعاة للثقة ، ويحقق أكبر قدر من السلطة لكل فرد ، ومن ثم للأقليات .

هل هناك ما هو أفضل من هذا ـ طالما أن الإجراء الجماعى محتوم؟ والواقع أن الفوضويين القديرين بحق يعترفون ، بلسانهم ، بأن الفوضوية تعنى تحقيق أكبر قدر من الديمقراطية وكروبو تكين ـ على سبيل المثال ـ يتحدث عن التطور الحر من البسيط إلى المركب ، وذلك عن طريق «إتحاد حر بين جماعات حرة» ، ويضرب أمثلة لذلك ، فيتحدث عن «جمعيات الدراسة والتجارة ، والمتعة والترفيه» تلك الجمعيات التى ظهرت كى تلبى مختلف الاحتياجات التى يطلبها الفرد فى عصرنا الحديث .

ولكنا نجد فى كل جمعية من هذه الجمعيات حكومة فى شكل مجلس ينتخب سنوياً بأغلبية المصوتين، ولهذا لا يخشى كروبوتكين مطلقاً الجهاز الديمقراطى وسلطان الغالبية ، وإذا كان المستر تاكر يتحدث عن «الارتباط الاختيارى» إلا أنه لا يسوق أمثلة ، والواقع أنه يؤكد أن «الفوضويين

يختلفون عن الديمقراطيين من إتباع جفرسون فى أن الفريق الأول لا يخاف» وأكثر من هذا أنه يقول إذا كان من حق الفرد أن يحكم نفسه ، فان أى حكم خارج عنه يعتبر استبدادا .

ولكن إذا كان حكم الفرد لنفسه معناه أن يفعل ما يشاء دون مراعاة لمصالح جيرانه فليس له أذن هذا الحق . فإذا كان الأمر كذلك، فإن جيرانه سيتدخلون لكى يجبروه على التصرف الاجتماعى السليم ، وبالرغم من أن هذا التدخل يعتبر «حكماً خارجاً عنه» إلا أنه ليس استبداداً ، وحتى لو كان استبداداً فإن الغالبية لن تحجم عنه بسبب هذا .

ومن ناحية أخرى : إذا كان حكم الفرد لنفسه معناه إجبار نفسه على التصرف مع مراعاة مصالح جيرانه ، فان التجربة أثبتت عجز الناس عن ممارسة هذا الحق دون وجود حكومة خارجية عنهم . وأيا كانت الزاوية التى ننظر منها الى عبارة «يحكم نفسه» فان هذه العبارة لا تؤدى إلى شئ.

فنحن نستطيع أن نتلاعب قليلاً بهذه العبارة فنقول : ان الإيثار هو فى الواقع حكم خارجى أو أن سلطان الدولة الديمقراطى هو فى الواقع حكم ذاتى .

وإذا طبقنا صفة المستر تاكر (فى حديثه عن الارتباط الإختيارى) على الهيئات الدفاعية، أو الهيئات الخاصة بادارة دفة الأمور، وجدنا أنها لا تعنى أن باب الاختيار مفتوح على مصراعيه فى هذه المسائل . ذلك أن هذه الهيئات ذات طابع إجبارى فى الواقع ، إذ لو انصرف عنها الناس فان شئونهم ستعانى من الفوضى ، وستفتقر مجتمعاتهم إلى جيش للدفاع .

أن الطبيعة تفوت علينا فرصة الافلات من العقاب ، وهى لا تترك للمجتمعات حرية العمل والحكم المستقلين . فأما أن يطيعوها أو يجوعوا

ويعانوا من الفوضى ، وهى قد حددت مهامها بطريقة صارمة ، أما عقابها فلا مهرب منه، وهى دقيقة، لا تدفع إلا بعد أن ترى النتائج وكل ما يستطيع الفرد أن يفعله آنذاك هو أن يتملص من واجبه ويلقيه على عاتق الآخرين ، أو ينتزع جزءاً من «أجرهم الطبيعى» ويضيفه إلى أجره ، فإذا كانوا من الحمق بحيث يحتملون هذا فأنهم أحرار، فذلك حكم الطبيعة، غير أن الديمقراطية الاجتماعية تهدف إلى إراحة هؤلاء الحمقى، ذلك أنها تلقى على عاتق الكل أعباء متساوية من العمل الحتمى الذى فرضته الطبيعة بطغيانها الأبدى، وهكذا تحقق لكل فرد نصيبه العادل من نتاج الأمة فى مقابل الجهد العادل الذى يبذله .

تلكم أفضل شروط تستطيع الإنسانية أن تعدها مع الطبيعة المستبدة وفى القرن الثامن عشر كان طبيعياً أن يعتقد الفلاسفة وآدم سميث أن حكم الطبيعة يعبر عن «حرية طبيعية» حرية تختلف تماماً عن الطغيان الشاذ الأحمق الذى تفرضه العشائر والقساوسة، والملوك ـ تلك الرذيلة الممقوتة «سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان».

غير أننا كشفنا عن خطأ «الروشتة» التى وضعها آدم سميث للحرية الطبيعية ممثلة فى الملكية الخاصة وعدم التدخل فى شئون الفرد الاقتصادية.

وبدأ أنه ليس هناك حرية سياسية غير أنه ليس هناك فى الوقت نفسه حرية طبيعية وإنما هناك قانون طبيعى يفرض بالقوة ، دون ندم، ومن أجل هذا نهز رءوسنا حين نلمح كلمة «الحرية» مكتوبة بالخط العريض ، عنواناً لبحث المستر تاكر، مثلما نضحك حين نقرأ عبارة «العبودية القادمة» فى مبحث المستر هربرت سبنسر «الإنسان والدولة» .

بدانا الآن نجمع خيوط المناقشة ، لقد رأينا أن الملكية الخاصة للأرض - سواء قصرتها الفوضوية على الملاك المحتلين أو لم تقصرها- معناها التوزيع الظالم لكمية هائلة من الثروة الإجتماعية التى تدعى : الريع، ولا يمكن أبداً أن تعد هذه الثروة حقاً لجهد يبذله فرد معين أو طبقة من الأفراد ، وقد رأينا أن الفوضوية الشيوعية تتجنب عقبة الريع ، ولكن بطريقة جزئية - وبطريقة جزئية فقط ، غير أن الفوضوية الشيوعية غير عملية فى كل الظروف الأخلاقية التى خلقتها الاشتراكية الحالية .

وقد رأينا أن تفويض السلطات الفردية عن طريق التصويت ، وتكوين هيئات عامة ذات سلطان، وسيادة الأغلبية فى نهاية الأمر، وايجاد (بل وفرض) أساليب تقليدية فى الدين، والطب، والتعليم، والمأكل، والملبس والقانون الجنائى - سواء بطريقة رسمية مباشرة أو بطريقة لا شعورية وغير مباشرة - رأينا كيف أن هذه الأشياء كانت كامنة فى المجتمع نفسه (سواء كانت شراً أو لم تكن)، وأن الخضوع لها أمر ضرورى،

وأن هناك ما يحول دون الاستهانة بها، وذلك عن طريق المنظمات الديمقراطية التى تستطيع، أكثر من غيرها، تحقيق هذا المطلب ، وعندما تفشل الديمقراطية يتفشى عدم التسامح ، ولا نجد له ترياقا إلا فى انتشار التعقل، ولم يظهر إلى الآن شكل من أشكال الفوضوية الذى يقدم لنا مخرجاً، أن عدم التسامح يشبه الطقس السيئ فى فصل الشتاء ، أنه يسبب أضراراً جسيمة، غير أننا نبذل فى الشتاء قصارى جهدنا عن طريق ارتداء المعاطف والاحتماء بالمظلات واشعال مدافئ سخية، وهكذا نتقى شر الشتاء، وبالمثل إذا بذلنا قصارى جهدنا عن طريق الأسلوب الديمقراطى، واللا مركزية وما شاكل ذلك ، استطعنا أن نتقى شر الدولة .

الروح الفوضوية (١)

اعتقد أن من واجبى عدم ترك الموضوع دون الإشارة إلى قيمة ما اسمية بالروح الفوضوية ، كعنصر من عناصر التقدم ، ولكن دعونى قبل ذلك ابرئ نفسى من العزم على ازعاج أصدقائنا الفوضويين الموجودين هنا، بأن أعبر عن تعاطفى مع هذه الروح، وجدير بالذكر أن السجال بين الفوضوية والديمقراطية الإجتماعية كثيراً ما ينتهى فى القارة الأوربية يتبادل الضرب بالعصى وأرجل المقاعد ، بل وبالمسدسات .

ولكن شيئاً من هذا لا يحدث فى انجلترا، لأن غالبية الجمهور الإنجليزى يرفض اتخاذ موقف متطرف، ويستحوذ على هذا الجمهور حب استطلاع عابث يجعله شغوفاً بسماع الجانبين. فإذا حدث شئ استفزه للغاية فسرعان ما يطرد أصحاب النظريات الذين حدث شئ استفزه للغاية فسرعان ما يطرد أصحاب النظريات الذين أثاروا المتاعب وهو يطردهم دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من عدالة آرائهم.

وقد حدث - منذ فترة مضت - أن أتيحت لى فرصة الدخول مع المستر «جـ. و. فوت» فى مناقشة علنية بشأن موضوع العمل لثمانى ساعات، وكان أن ظهرت صحيفة فرنسية تتحدث عن المناسبة باسهاب ، وقد خصصت مقالة كاملة للتعبير عن دهشتها (المشوبة بالحسد) لأن المستر فوت وأنا ابتعدنا عن تبادل الشتائم ولم نتماسك بالأيدى فى النهاية ، ولأن المتشيعين لنا اقتفوا أثرنا المجيد ولم يمنعوا أصوات كل طرف من الإرتفاع .

ولكن إذا كنا لا نسمح لأنفسنا بأن نزج بالإشتراكية والفوضوية

(١) مزال الكلام لبرناردو شو.

وغيرهما من المذاهب فى الشجار والعراك، إلا إننا نعبر عن خلافاتنا أحياناً بإنفعال شديد، يحدث هذا حتى فى هذه الجمعية الفابية التى تتمتع باحترام كبير، ولن أقدم مطلقاً على نزع سلاح المتناظر الفوضوى عن طريق اطرائه.

أن العكس هو الصحيح فإذا كان من بين الحاضرين اليوم أناس كل همهم التنديد بدعاة الديمقراطية الإجتماعية، واعتبارهم مضللين للشعب ومهادنين، وإذا كان هناك من يعترض على جميع المشروعات الوطنية والبلدية، ويصرخ مطالباً بالغاء البرلمانات ومجالس المقاطعة، وإذا كان هناك من يطالب بشن مقاومة يائسة ضد الإيجار، والضرائب، والحكم النيابى، وجميع أشكال الإجراءات الجماعية المنظمة ،

فإننى ادعو هؤلاء جميعاً أن - يعتبرونى خصمهم العنيد، وأن يعتبرونى رجلاً يرى أن نظريتهم - مهما بلغ من اخلاصهم فى عرضها - تشجع العمال على أن يهملوا أنجاز الأعمال الممكنة ، بحجة انتظارهم لأعمال غير ممكنة .

أما الجانب السيئ فى هذه النظرية ، فيتلخص فى أنها تزود صحف انجلترا الرجعية ، ورجال الأمن فى القارة الأوربية - بأدلة تساند مزاعمهم عن حماقة الإشتراكية وأخطارها ، ولكن يجب أن يكون مفهوماً فى الوقت نفسه أننى لا أدافع هنا عن الدولة بالصورة التى نعرفها ، وقد كان باكونين يطمح ، بشدة الى ابادة جميع الدول والكنائس الرسمية ، بكل ما فيها من قوانين وأنظمة دينية ، وسياسية ، وتشريعية ، ومالية ، وجنائية ، وأكاديمية ، واقتصادية واجتماعية.

وتبدو لى هذه المطامح جد معقولة ومفهومة إذا نحن نظرنا إليها من زاوية «الرجل المتعلم» العادى ، الذى يعتقد أن المنظمات تصوغ الناس بدلاً

من أن يصوغ الناس المنظمات ، وأنني اعترف تماماً واؤكد بشدة ، أن الدولة - في الوقت الحالي - مجرد جهاز ضخم لسرقة الفقراء واذلالهم عن طريق القوة الغاشمة .

وقد يخيل اليك إذا كنت أحمق أو منعما - أن الشرطي الواقف عند منعطف الطريق حامي حمى القانون والنظام ، وأن السجن بكل ما فيه من وسائل تعذيب (من هراسه ، إلى سرير خشبي ، وزنزانة منفردة ، وسوط - متشعب ، ومقصلة) مكان لتعويد الناس على الكف عن الشر والتعرف على الخير ، غير أن هناك وظيفة أساسية لرجل الشرطة ، وظيفة تختفي وراء استار وظائفه الأخرى.

وتتلخص هذه الوظيفة في التأكد من أنك لن ترقد وتنام في هذا البلد دون أن تدفع للعاطل ثمن هذا الإمتياز ، وإنك لن تتذوق طعم الخبز إلا بعد أن تدفع نصيب العاطل من ثمن الرغيف ، وانك لن تقاوم العامل البسيط الذي ينحدر بك الى مستواه لكي يربح العاطل وذلك بأن يعرض إنجاز عملك مقابل أجر لا يسد الرمق .

حاول أن تفعل شيئاً من هذا وسترى كيف يقبضون عليك ويعذبونك باسم القانون والنظام، والأمانة، والتوازن الاجتماعي، وحماية الملكية والأفراد، والواجب الاجتماعي، والمسيحية ، والأخلاق ... إلخ. وسيعتبرونك صعلوكا ، ولصاً ، ومثيراً للشغب .

أن جنديك يدافع عن وطنه ببطولة ، ووطنية ، وبعناد ، أنه رجل سيئ الحظ حقاً ، لقد اضطره العوز الى أن يجعل من نفسه طعاماً للبنادق ، لكي يحصل على تموين منتظم ، ومأوى ، وطعام ، وعليه أن يفعل أي شئ يؤمر به ، وكان يقف بمعطفه الأحمر في صالة الأوبرا كمجرد حلية ، أو يضرب

زميله بالعصا، أو يرتكب جريمة قتل . أن لم يفعل هذا ألقى به في غياهب السجن ، أو أنزل به عقاب مضحك وكأنه صبى مشاكس ، أو ضرب ، أو أطلق عليه الرصاص.

يحدث كل هذا باسم «النظام» المبارك، وتتلخص وظيفة جنديك، الأساسية، فى الخف الى نجدة زميله الشرطى عند ما تلحق به الهزيمة.

وإليكم قائمة بالمادة الحية الفعلية لتلك التجريدات المفروضة علينا فرضاً ، والتى تطلق عليها أسماء الدولة، والكنيسة والقانون، والدستور والتعليم، والفنون الجميلة، والصناعة، أن هذه التجريدات تعتمد على القائمة التالية: أعضاء دخلوا البرلمان لسبب واحد ، وهو أنهم دخلوا الانتخابات ومعهم ١٠٠٠ جنيه نقداً، إلى جانب دخل «مستقل» وطموح سوقى .

ورجال دين يأخذون من الكتب المقدسة ما يناسب أغراض السادة الاقطاعيين ومحامون يبيعون خدماتهم لمن يعرض أكبر سعر فى ساحة القضاء، وينادون بسيادة الطبقة الغنية فى الساحة، ومحلفون يضمون أصحاب العمل ويتظاهرون بأنهم يحمون البروليتاريا التى تقف فى قفص الإتهام، وأساتذة جامعيون يخططون ما يعرف بـ «تربية الجنتلمان»، وفنانون يسعون جاهدين الى إرضاء خيال الأرستقراطيين والأغنياء من أصحاب النفوذ، وإشباع غرورهم، وعمال يسيرون فى عملهم ببطء ورداءة كلما استطاعوا ذلك، كى يستفيدوا من مهنتهم، وأصحاب أعمال يجيعون عمالهم ويرهقونهم بالعمل ويسلبون سلعهم كلما أستطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولقد رأى باكونين أن جميع الأنظمة، من دينية، وسياسية ومالية ، وقضائية ... إلخ. هى أنظمة فاسدة لأن العاملين فيها أحد رجلين : رجل ينتمى إلى الطبقة المالكة نفسها ، أو رجل مضطر إلى أن يبيع نفسه للطبقة

المالكة كى يستطيع أن يعيش ، والأغنياء وحدهم هم الذين يملكون الطاقة الشرائية التى تمكنهم من شراء أرواح الناس بعد إطعام أجسادهم ، والغنى هو الذى يختار اللحن ويحدده ، سواء كان ذلك فى البرلمان الذى يفرض سلطات القمع التى لا تقاوم (من هراوة، وسونكى، ومدفع رشاش، وديناميت، وسجن، ومقصلة) أو فى أحط مراكز التظاهر الاجتماعى، وطبيعى أن يستغل الأغنياء سلطانهم فى سرقة المزيد من المال؛ كى يستمروا فى دفع أجور النافخين والزمارين.

وهكذا يصبح المجتمع كله عبارة عن مؤامرة ضخمة ونفاق هائل ، ولا يحس الرجل العادى بالخديعة التى تحيط به ، مثلما لا يحس بطعم الماء ، إذ يبدو أن لا طعم له لكثرة ما اتصل بغشائه المخاطى ، أن الأخلاق الشريرة التى يقوم عليها نظامنا الإجتماعى متصلة بالضرورة، وعلى الدوام، بغشائنا المخاطى الأخلاقى.

وهكذا نفقد إحساسنا بوضاعتها الصارخة، وخستها ، غير أن هذه البلادة ليست كاملة ، إذ تحين فى حياتنا فترة تسمى بفترة زوال الأوهام ، أنها الفترة التى يكتشف فيها الإنسان أن دوافعه الكريمة النزيهة لا تتفق ونجاحه فى عمله ، وأن المنظمات التى كان يجلها زيف ، وأن عليه أن ينضم إلى شبكة المؤامرة أو يلاقى الفشل - بالرغم من أنه يعرف أن المؤامرة لا شك تدمره وتدمر زملاءه المتآمرين .

أن سر الكتاب من أمثال رسكين، وموريس، وكروبوتكين، أنهم يكشفون أعماق الخديعة، بالرغم من أنها جد مألوفة، وبالرغم من الأوهام التى خلقها نفوذها المؤقت وبالرغم من ثرائها، وروائها، ومكانتها، وما تتمتع به من احترام هائل، وبالرغم من ورعها المستمر، وتظاهرها الكبير بالأخلاق.

غير أن كروبوتكين ـ كما سبق أن أوضحت ـ ينادى حقاً بالديمقراطية الحرة ، وسأغامر وأقول أن كروبوتكين يصف نفسه بأنه فوضوى لأنه ينظر بمنظار الروسى الذى يبتعد عن الإستبداد الذى يرى أن الديمقراطية لا تحكم على الإطلاق . أنه ينظر بهذا المنظار ، لا بمنظار الأمريكى أو الإنجليزى الذى بلغ من تحرره أنه بدأ يشكو الآن من الديمقراطية قائلا : إنها عبارة عن «استبداد الغالبية» وأنها «العبودية القادمة» وما يجعلنى أورد هذا الرأى بمزيد من الثقة أن إتجاهات وليام موريس تشابه الى حد كبير اتجاهات كروبوتكين ، غير أن موريس درس الفوضوية عن تريث وبأناة ، باعتبارها دعاية نشطة فى إنجلترا ، وانتهى به الأمر الى تطليق الفوضوية .

وأثبت موريس ، فى تصويره للمجالس الشعبية الشيوعية فى «انباء لا مصدر لها» أنه يدرك تماماً استحالة تطوير العنصر الإختيارى فى النشاط الإجتماعى بالقدر الذى يسمح للأفراد أو الأقليات باتخاذ اجراءات كبرى دون سابق موافقة من الغالبية . من أجل هذا لا اعتبر العداء للأنظمة الحالية (وهو العداء الذى يحرك الفوضوية الشيوعية) بأخطر على الديمقراطية الإجتماعية من نفس الروح التى تحرك نزعة رسكين المحافظة ـ ذات الطابع الخاص ، أما الشئ الذى نعترض عليه بصورة أكبر، فهو تلك البقية الباقية من احتكار الحكومة للفرد، ذلك الإحتكار الذى دفع عجلة التقدم فى القرن الثامن عشر، والذين لا ينسون عبر التاريخ بعد انتهائها سيدركون أن هذا الاحتكار ما زال حيا بيننا ، غير أن هذا الاعتبار لا يقضى على الإعتراضات الإقتصادية .

تلك الاعتراضات التى سقتها فى حديثى عن واقعية الفوضوية الفردية ، وحتى إذا نحينا هذه الإعتراضات جانباً ، وجدنا أن الديمقراطى الإجتماعى الذى يلمس الحقائق المرة ، سيكف نهائياً عن التنديد بالدولة ، ما

اسهل أن تقولوا : الغوا الدولة. غير أن الدولة ستبيعكم، ستحبسكم، ستضربكم، ستطرحكم أرضاً، ستستعمل الهراوة، وتطلق الرصاص، وتغمد الخنجر، وتشنق. موجز القول أنها ستلغيكم أنتم إذا رفعتم يدكم فى وجهها .

ولقد رأينا لحسن الحظ ، كيف أن هناك نوعاً من الحياد اللطيف لدى الشرطى والجندى ، وهما نصل الدولة الحاسم ، أنهم يتقاضون أجورهم ويطيعون الأوامر الموجهة اليهم دون اعتراض . فإذا قضت هذه الأوامر بسحق كل بيت ريفى يرفض انتزاع اللقمة من أفواه أطفاله لكى يحصل الإقطاعى على مال ينفقه - كجنتلمان عاطل - فى لندن ، فان الجندى يطيع أوامر السحق هذه .

فإذا صدرت اليه الأوامر بمساعدة الشرطة على نقل سيادة المالك إلى سجن هولواى إلى أن يدفع ضريبة الدخل (عشرون شلنا على كل جنيه لم يتعب فى الحصول عليه) فان الجندى سيفعل ذلك أيضاً ، اخلاصا منه لواجبه، وربما فعل هذا وفى أعماقه حماسة خاصة لا يستشعرها فى ظروف أخرى.

والآن أن هذه الأوامر تصدر فى النهاية من الدولة، والدولة معناها فى بلدنا: مجلس العموم . أن مجلس العموم الذى يضم ٦٦ جنتلماناً وعشرة عمال سيأمر الجندى بأن ينتزع المال من الشعب ويعطيه للإقطاعيين ، غير أن مجلس العموم الذى يضم ٦٦٠ عاملاً وعشرة جنتلمان سيأمر الجندى بأن ينتزع المال من الإقطاعين ويعطيه للشعب (اللهم إلا إذا كان الـ ٦٦٠ عاملا من الحمقى) . واكتفى بهذه الإشارة مؤمناً من جانبى بأن الدولة - برغم أنف الفوضويين - ستظل العوبة فى يد الطبقات التى تحركها ضد الشعب - إلى أن يحركها الشعب ضد الطبقات ، بكفاية ، وتصميم .

آراء لينين وسياسته

مو ضوعات:[1]

١ ـ أن موقفنا من الحرب التى لا تزال، بلا مراء، من جانب روسيا، حرباً استعمارية لصوصية، حتى فى عهد الحكومة الجديدة ، حكومة لفوف وشركاه لكونها حكومة رأسمالية، لا يقبل أى تنازل، مهما كان طفيفاً، لنزعة «الدفاع الثورى» .

أن البروليتاريا الواعية لا يسعها أن توافق على حرب ثورية تبرر فعلاً الدفاع الثورى الا شرط :

أ ـ انتقال السلطة إلى أيدى البروليتاريا والعناصر الفقيرة من الفلاحين، الواقفة الى جانب البروليتاريا .

ب ـ التخلى الفعلى ، لا الشفوى ، عن جميع الالحاقات .

جـ ـ القطيعة الكلية الفعلية مع جميع مصالح الرأسمال .

وبما أنه لا مجال للشك فى حسن نية الفئات الواسعة من أنصار الدفاع الثورى بين الجماهير، الذين لا يقبلون الحرب الا بحكم الضرورة ، لا من أجل الفتوحات، وبما أن البورجوازية قد ضللتهم وخدعتهم، فمن الواجب أن يشرح لهم خطأهم ، ببالغ المثابرة والصبر والعناية ، أن تشرح لهم الصلة الوثيقة التى لا تنفصم عراها بين الرأسمال والحرب الاستعمارية، أن يبين لهم أن إنهاء الحرب بصلح ديمقراطى حقًا ! لا بصلح جائر، شئ مستحيل بدون قلب الرأسمال تنظيم أوسع ما يكون من الدعاوة

---

(١) لينين ـ موضوعات نيسان ـ دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية ـ موسكو .

لهذه الآراء فى الجيش المقاتل المتآخى .

٢ ـ أن الشئ الأصيل فى الوضع الراهن فى روسيا ، إنما هو الانتقال من المرحلة الأولى للثورة التى أعطت الحكم للبورجوازية نتيجة لعدم كفاية الوعى والتنظيم لدى البروليتاريا ، إلى المرحلة الثانية للثورة التى يجب أن تعطى الحكم للبروليتاريا ، وللفئات الفقيرة من الفلاحين .

وهذا الانتقال يتصف، من جهة، بالحد الأقصى من العلنية (إن روسيا بين جميع البلدان المتحاربة ، أوفر البلدان حرية فى العالم) ومن جهة أخرى، بانعدام تسليط العنف على الجماهير، وأخيراً، بثقة الجماهير ثقة غير واعية بحكومة الرأسماليين ، ألد أعداء السلام والاشتراكية .

أن هذا الوضع الفذ يتطلب منا أن نعرف كيف نكيف أنفسنا على الظروف الخاصة لعمل الحزب فى صفوف الجماهير البروليتارية الكبيرة الغفيرة، التى استيقظت للتو على الحياة السياسية .

٣ ـ لا تأييد للحكومة الموقتة على الإطلاق ؛ تبيان كل كذب وعودها كافة ولا سيما منها الوعود بالعدول عن الالحاقات. فضح الحكومة بدلاً من «المطالبة» ـ وهو أمر لا يجوز أبداً ، إذ أن ذلك يبث الأوهام ـ بان تكف هذه الحكومة ، حكومة الرأسماليين ، عن أن تكون استعمارية .

٤ ـ الإعتراف بأن حزبنا ما يزال أقلية، وأقلية ضعيفة فى الوقت الحاضر، فى معظم سوفييتات نواب العمال أمام كتلة جميع العناصر البورجوازية الصغيرة الانتهازية التى وقعت تحت نفوذ البورجوازية والتى تنشر هذا النفوذ بين البروليتاريا، ابتداء من (الاشتراكيين ـ الشعبيين) ومروراً بالاشتراكيين ـ الثوريين حتى اللجنة التنظيمية(٣) (تشيخييدزه، تسيريتيلى...الخ)وستيكلوف..إلخ

الشرح للجماهير أن سوفييتات نواب العمال هى الشكل الوحيد الممكن للحكومة الثورية، وأن مهمتنا لا يمكن أن تكون اذن، ما دامت هذه الحكومة خاضعة لنفوذ البورجوازية، إلا أن نوضح للجماهير أخطاء خطتها، بصبر ومثابرة وانتظام توضيحاً مكيفاً على الخصوص للحاجات العملية لهذه الجماهير.

وما دمنا اقلية ، فاننا نقوم بالانتقاد وتوضيح الأخطاء ، مؤكدين فى الوقت نفسه ضرورة انتقال كل سلطة الدولة الى سوفييتات نواب العمال ، لكى تتحرر الجماهير من أخطائها بالتجربة .

٥ ـ لا جمهورية برلمانية ـ فالرجوع إليها بعد قيام سوفييتات نواب العمال يكون خطوة الى الوراء ـ بل جمهورية سوفييتات نواب العمال والأجراء الزراعيين والفلاحين فى البلاد بأسرها ، من القاعدة إلى القمة .

الغاء البوليس والجيش (*) وسلك الموظفين .

امكان انتخاب وعزل جميع الموظفين فى كل آن ، يجب أن لا تتجاوز رواتبهم متوسط أجرة العامل الجيد .

٦ ـ نقل مركز الثقل فى البرنامج الزراعى الى سوفييتات نواب الإجراء الزراعيين .

مصادرة جميع أراضى الملاكين العقاريين .

تأميم جميع الأراضى فى البلاد، وضع الأراضى تحت تصرف السوفييتات المحلية لنواب الأجراء الزراعيين والفلاحين ، تمييز سوفييتات نواب الفلاحين الفقراء . تحويل كل ملكية كبيرة (من ١٠٠ ديسياتين إلى

(*) أى الاستعاضة عن الجيش الدائم بتسليح الشعب كله .

٣٠٠ ، مع حسبان الحساب للأوضاع المحلية وغيرها وأخذ رأى المؤسسات المحلية) إلى استثمارة نموذجية توضع تحت إشراف نواب الأجراء الزراعيين وتعمل لحساب المجتمع .

٧ ـ دمج جميع مصارف البلاد فوراً فى مصرف وطنى واحد يوضع تحت إشراف سوفييتات نواب العمال .

٨ ـ عدم «تطبيق» الاشتراكية باعتباره مهمتنا المباشرة ، بل الانتقال فوراً الى مراقبة الانتاج الإجتماعى وتوزيع المنتجات من قبل سوفييتات نواب العمال.

٩ ـ مهمات الحزب :

أ ـ عقد مؤتمر الحزب بلا إبطاء .

ب ـ تعديل برنامج الحزب ، وبالدرجة الأولى :

١ ـ حول الاستعمار والحزب الاستعمارية .

٢ ـ حول الموقف من الدولة ومطلبنا «دولة ـ كومونة»(١) .

٣ ـ إصلاح برنامج الحد الأدنى ، الذى ولى زمنه .

جـ ـ تغيير اسم الحزب(٢) .

١٠ ـ تجديد الأممية .

المبادرة الى إنشاء اممية ثورية ، اممية ضد الإشتراكيين ـ الشوفينيين

---

(١) أى دولة كانت كومونة باريس الشكل المسبق لها .

(٢) ينبغى على الحزب أن يطلق على نفسه اسم «الحزب الشيوعى» بدلا من اسم «الاشتراكية ـ الديمقراطية» التى خان زعماؤها الرسميون (أنصار الدفاع و الكاوتسكيون المترددون) الاشتراكية فى العالم كله وانتقلوا إلى جانب البورجوازية.

وضد «الوسط» [١].

ولكى يستطيع القارئ أن يدرك الدافع الذى دفعنى إلى الإشارة بوجه خاص إلى «حالة» المناظرين ذوى النية الحسنة باعتبارها حالة استثنائية نادرة ، ادعوه إلى مقارنة هذه الموضوعات بالاعتراض التالى الذى تقدم به السيد غولدنبرغ: إن لينين «قد نصب راية الحرب الأهلية فى قلب الديمقراطية الثورية» (هكذا ورد فى صحيفة «ايدينستفو» (٤) للسيد بليخانوف ، العدد ٥) .

أليس هذا القول من دور الكلام ، حقاً ؟

أنى أكتب واصرح وأكرر: «بما أنه لامجال للشك فى حسن نية الفئات الواسعة من أنصار الدفاع الثورى بين الجماهير ... وبما أن البورجوازية قد ضللتهم وخدعتهم ، فمن الواجب أن يشرح لهم خطأهم ببالغ المثابرة والصبر والعناية» ...

ولكن هؤلاء السادة من البورجوازيين ، الذين يقولون عن أنفسهم أنهم إشتراكيون - ديموقراطيون ، وليسوا من الفئات الواسعة ولا من أنصار الدفاع الثورى بين الجماهير ، يعرضون آرائى بوجوه مشرقة كما يلى : «أن راية (!) الحرب الأهلية (التى لم يرد أى ذكر لها لا فى الموضوعات ولا فى التقرير (!) تُنصب (!) » « فى قلب (!!) الديموقراطية الثورية » ...

ما هذا ؟ وبم يختلف عن تحريض مسببى المذابح ؟ وعن تحريض

---

(١) يطلق اسم «الوسط» فى الاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية على الميل الذى يتأرجح بين الشوفينيين (أنصار الدفاع) والأمميين ، أى : كاوتسكى وشركاه فى ألمانيا ، لولغة وشركاه فى فرنسا ، تشيخييدزه ، وشركاه فى روسيا ، توراتى وشركاه فى ايطاليا ، ماكدونالد وشركاه فى بريطانيا ..... إلخ .

«روسكايا فوليا» (٥) ؟

إنى أكتب وأصرح وأكرر: «إن سوفييتات نواب العمال هى الشكل الوحيد الممكت للحكومة الثورية وإن مهمتنا لا يمكن أن تكون إذن إلا أن نوضح للجماهير أخطاء خطتها بصبر ومثابرة وانتظام، توضيحاً مكيفاً على الخصوص للحاجات العملية لهذه الجماهير» ولكن بعض المناظرين من طراز معين يعرضون أفكارى على إنها نداء إلى «الحرب الأهلية فى قلب الديمقراطية الثورية » !!

لقد هاجمت الحكومة الموقتة لأنها اكتفت بالوعود ولم تعين أى موعد قريب، ولا أى موعد بوجه عام ، لإجتماع الجمعية التأسيسة .

وقد بذلت جهدى لأثبت أن انعقاد الجمعية التأسيسية ليس أمراً مضموناً وأن نجاحها مستحيل ، دون سوفييتات نواب العمال والجنود .

وبعد هذا ، يدعون إنى أعارض فى إنعقاد الجمعية التأسيسة بأسرع وقت!!!

قد أنعت هذه التعابير من باب «الهذيان» لو أن عشرات السنين من النضال السياسى لم تعلمنى أن اعتبار حسن نية المناظرين حالة استثنائية نادرة.

لقد نعت السيد بليخانوف خطابى فى جريدته بالـ « هذيان» . حسناً جداً، أيها السيد بليخانوف ! ولكن أنظر الى أى حد أنت أخرق ، متقلقل ، قليل الذكاء فى مناظرتك . فإذا كنت القيت خطابى الهاذى طوال ساعتين ، فكيف إستطاع مئات المستمعين إحتمال «هذيانى» ؟ ثم ، لماذا خصصت جريدتك عموداً كاملاً لعرض هذا «الهذيان» ؟ هذا واه ، هذا واه تماماً .

يقيناً أن من الأسهل كثيراً على المرء أن يصرخ ، ويشتم ، ويطلق الصيحات العالية من أن يحاول أن يروى ، ويوضح ، ويذكر ما قاله ماركس وانجلس فى ١٨٧١ ، و١٨٧٢ ، و١٨٧٥ ، لجن تجربة كومونة باريس (٦) وعماً كان يجب أن تكون عليه الدولة الضرورية للبروليتاريا .

أن الماركسى السابق السيد بليخانوف لا يريد ، على ما يبدو ، أن يتذكر الماركسية .

لقد استشهدت بروزا لوكسمبورغ التى وصفت ، فى ٤ آب (اغسطس) ١٩١٤ (٧)، الإشتراكية - الديموقراطية الألمانية بأنها «جيفة نتنة» ، وإذا بالسادة بليخانوف وغولدنبرغ وأضرابهم وشركاهم «يغتاظون» ... لمن ؟ للشوفينيين الألمان الموصوفين بأنهم شوفينيون !

وهاهم فى ورطة كبرى، هؤلاء الإشتراكيون - الشوفينيون الروس المساكين ، الإشتراكيون قولاً ، الشوفينيون فعلاً .

رسائل حول التاكتيك (٨)

توطئة :

فى ٤ نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، اتفق لى أن قدمت تقريراً فى بتروغراد عن الموضوع المشار إليه فى العنوان، أولاً فى اجتماع للبلاشفة. كان هؤلاء مندوبين الى المجلس العام لسوفييتات نواب العمال والجنود فى روسيا، وكان عليهم أن يذهبوا ، ولم يكن بإمكانهم ، لهذا السبب، أن يمنحونى أى مهلة ، وعند إنتهاء الاجتماع، طلب منى الرفيق زينوفييف ، الذى كان يرأس الاجتماع، باسم جميع الحاضرين، أن أكرر على الفور تقريرى فى اجتماع للمندوبين البلاشفة والمناشفة الذين يرغبون فى مناقشة مسألة حزب العمال

الإشتراكى - الديموقراطى الروسى (ح. ع. ا. د. ر.) .

ورغم ما شعرت به من صعوبة لتكرار تقريرى على الفور ، لم ار من حقى أن أرفض هذا الطلب، اذ صدر فى آن واحد عن الذين يشاركوننى فى الآراء وعن المناشفة، الذين لم يكن فى وسعهم فعلاً أن يمنحونى أى مهلة نظراً لذهابهم .

وفى التقرير، تلوت موضوعاتى التى نشرت فى العدد ٢٦ من «البرافدا» (٩) ، الصادر فى ٧ نيسان (ابريل) ١٩١٧ (*).

وقد استثارت موضوعاتى والتقرير الخلافات بين البلاشفة أنفسهم وفى هيئة تحرير «البرافدا» بالذات وبعد عدد من الإجتماعات ، توصلنا بالإجماع الى النتيجة التالية وهى أن من الأفيد مناقشة هذه الخلافات بصورة مكشوفة وتقديم المواد على هذا النحو للمجلس العام لحزبنا (ح. ع. ا. د. ر. الملتف حول اللجنة المركزية) الذى سيبدأ أعماله فى ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩١٧ فى بترو غراد .

وبموجب هذا القرار بشأن المناقشة ، انشر الرسائل الواردة أدناه ، دون أن ادعى إنى ادرس فيها المسألة من جميع مظاهرها، إنما رغبة منى فى الإشارة إلى الحجج الرئيسية، الحجج التى تتسم بأهمية كبيرة من حيث المهمات العملية الموضوعة أمام حركة الطبقة العاملة .

(*) فى ملحق لهذه الرسالة ، أنشر هذه الموضوعات والملاحظات التوضيحية الموجزة المرفقة بها ، كما وردت فى هذا العدد من «البرافدا» . (راجع هذا الكراس ص ٤ - ٧).

الرسالة الأولى

تحليل الوضع الراهن (١)

أن الماركسية تتطلب منا أن نأخذ بالحسبان، على أدقّ وجه ، وبصورة يمكن التثبت من صحتها موضوعياً، النسبة بين الطبقات والخصائص الملموسة فى كل حقبة من حقبات التاريخ. ونحن ، البلاشفة ، بذلنا جهدنا دائماً أن نبقى أمناء لهذه القاعدة ، التى لا غنى عنها إطلاقاً لوضع سياسة ثابتة علمياً .

«إن مذهبنا ليس عقيدة جامدة بل مرشد للعمل» (١٠) ، هكذا قال دائماً ماركس وانجلس ، ساخرين على حق من «الصيغ» المحفوظة غيباً والمرددة كما هى القادرة فى أحسن الأحوال، على تبيان أهداف عامة فقط، يعدّ لها بالضرورة الطابع الملموس الإقتصادى والسياسى لكل طور من أطوار المجرى التاريخى .

فما هى اذن الوقائع الموضوعية الثابتة صحتها التى يترتب على حزب البروليتاريا الثورية أن يسترشد بها اليوم لتحديد مهامه وأساليب عمله ؟

فى رسالتى الأولى، «رسالة من بعيد» (المرحلة الأولى من الثورة الأولى)، المنشورة فى «البرافدا» فى العددين ١٤ و١٥ بتاريخ ٢١ و٢٢ مارس (آذار) ١٩١٧ وفى موضوعاتى ، حددت «الشئ الأصيل فى الوضع الراهن فى روسيا» بوصفه طور انتقال بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية من الثورة ، وقد أعتبرت بالتالى أن الشعار الأساسى، أن «مهمة اليوم» كان فى ذلك الحين : « أيها العمال، لقد قمتم بآيات من البطولة البروليتارية

---

(١) لينين فى كتاب موضوعات نيسات .

والشعبية فى الحرب الأهلية ضد القيصرية. فعليكم أن تقوموا بآيات من التنظيم البروليتارى والشعبى العام لتهيئة إنتصاركم فى المرحلة الثانية من الثورة» («البرافدا» ، العدد ١٥)(*) .

ما هو قوام المرحلة الأولى ؟

قوامها إنتقال سلطة الدولة الى البورجوازية .

قبل ثورة فبراير ـ مارس (شباط ـ آذار) ١٩١٧، كانت سلطة الدولة فى روسيا بيد طبقة قديمة واحدة ، هى طبقة النبلاء الملاكين الإقطاعيين ، وعلى رأسهم نقولاى رومانوف .

وبعد هذه الثورة ، غدت السلطة بيد طبقة أخرى ، طبقة جديدة ، هى البورجوازية .

أن انتقال سلطة الدولة من طبقة إلى أخرى هو الدليل الأول الرئيسى، الجوهرى على الثورة سواء بمعنى الكلمة العلمى الدقيق أم بمعناها السياسى والعملى .

ولذا ، فإن الثورة البورجوازية أو الديموقراطية البورجوازية قد تحققت فى روسيا .

إلا إننا نسمع هنا احتجاجات المعترضين الذين يطيب لهم أن يتسموا «البلاشفة القدماء» : ألم نقل دائماً أن الثورة الديموقراطية البورجوازية لا يمكن أن تنتهى إلا «بديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية»؟ وهل انتهت الثورة الزراعية، الديموقراطية البورجوازية هى أيضاً؟ أليس ثمة ، بالعكس ، كونها لمّا تبدأ ؟

(*) راجع لينين : المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ٢٣ ، ص ٣٠٠.

أجيب : أن أفكار البلاشفة وشعاراتهم، قد أثبت التاريخ صحتها ، بالإجمال ، كل الإثبات ؛ بيد أن الأمور قد جرت ، فى الواقع الملموس ، بصورة غير ما كان بوسع المرء (أياً كان) توقعها ؛ لقد جرت بصورة أكثر أصالة وأكثر تنوعاً .

فإذا تجاهل المرء ذلك أو تناساه ، جعل نفسه شبيهاً لهؤلاء «البلاشفة القدماء» الذين قاموا ، أكثر من مرة بدور مشؤوم فى تاريخ حزبنا بترديدهم عن حمق وغباوة شعاراً محفوظاً غبياً، بدلاً من دراسة أصالة الواقع الجديد، الحى.

أن «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية» قد تحققت الآن(*) فى الثورة الروسية ، لأن هذا «الشعار» لا ينص الاّ على نسبة القوى بين الطبقات ، لا على مؤسسة سياسية ملموسة تحقق هذه النسبة ، هذا التعاون . «سوفييت نواب العمال والجنود» ، تلك هى «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية» ، التى حققتها الحياة .

أن هذا الشعار قد أصبح قديماً . فقد قادته الحياة من مملكة الشعارات الى مملكة الواقع ، وجعلت منه لحماً ودماً ، وجسّدته ، وبالتالى عدّلته .

فبعد اليوم ، يوضع هدف جديد فى جدول الأعمال : الفصل، فى قلب هذه الديكتاتورية، بين العناصر البروليتارية (من اخصام الدفاع ، وأمميين ، و«شيوعيين»)، أنصار الإنتقال إلى الكومونة)، وبين العناصر الملاكية - الصغيرة أو البورجوازية - الصغيرة (تشيخييدزه، تسيريتيلى، ستيكلوف، والاشتراكيون - الثوريون وغيرهم من أنصار الدفاع الثورى، أخصام

(*) بشكل ما وإلى حد ما .

الحركة نحو الكومونة ، أنصار «دعم» البورجوازية والحكومة البورجوازية) .

أن من لا يتحدث اليوم إلا عن «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية» يتأخر عن الحياة، ينتقل ، بالتالى عملياً ، إلى البورجوازية الصغيرة ضد النضال الطبقى البروليتارى ، ويستحق نبذه إلى متحف الطرائف «البلشفية» ما قبل الثورة (وقد يمكن القول ، إلى متحف «البلاشفة القدماء») .

أن ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية قد تحققت الآن ولكن صورة أصيلة إلى أقصى حد ، ومع تعديلات على أكبر جانب من الأهمية، وسأتحدث عن ذلك بوجه خاص فى إحدى رسائلى المقبلة . أما اليوم، فينبغى إستيعاب هذه الحقيقة التى لا جدال حولها وهى أنه يترتب على الماركسى أن يحسب الحساب للواقع الحى ، للوقائع الدقيقة الملموسة ، لا أن يتمسك بنظرية الأمس، التى هى، ككل نظرية، قادرة، فى أحسن الأحوال، على تبيان الجوهرى العام ، على اعطاء تقدير تقريبى لتعقد الحياة .

«إن النظرية رمادية اللون، يا صديقى، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد » (١١) .

أن وضع مسألة «إنجاز» الثورة البورجوازية ، كما كانوا يفعلون فيما مضى ، يعنى التضحية بالماركسية الحية وتفضيل الكلمة الميتة .

كانت الصيغة القديمة تقول : على أثر السيادة البورجوازية ، يمكن ويجب أن تأتى سيادة البروليتاريا والفلاحين ، ديكتاتوريتهم .

والحال لدينا فى الحياة الواقعية الآن شئ آخر : تشابك بين الإثنتين (أى سيادة البورجوازية وسيادة البروليتاريا والفلاحين ـ المعرّب) ، تشابك

أصيل إلى أعلى درجات الأصالة ، تشابك جديد إلى درجة أنه لم يسبق له مثيل . فإننا نرى جنباً الى جنب، ومعاً، وفى آن واحد ، سيادة البورجوازية (حكومة لفوف وغوتشكوف) وديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية التى تتنازل بملء إرادتها عن السلطة للبورجوازية، وتسير بملء إرادتها فى ذيل البورجوازية.

إذ أنه ينبغى الاّ ننسى أن السلطة الفعلية فى بتروغراد هى بأيدى العمال والجنود ؛ والحكومة الجديدة لا تفرض عليهم أى إكراه ولاّ تستطيع أن تفرض عليهم أى إكراه ، إذ أنه لا يوجد لا بوليس ولا جيش مفصول عن الشعب ، ولا دواوينية كلية الجبروت قائمة فوق الشعب . هذا هو الواقع ، وهو بالضبط واقع يصف دولة من طراز كومونة باريس ، وهذا الواقع لا ينطبق على المخططات السابقة ، ينبغى أن نعرف كيف نكيف المخططات وفقاً للحياة ، لا أن نردد كلمات لا معنى لها اليوم حول «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين» بوجه عام .

لنتناول المسألة من جهة أخرى ، لنوضحها على وجه أفضل .

ينبغى على الماركسى الاّ يبتعد عن ميدان التحليل الدقيق للعلاقات بين الطبقات . ان البورجوازية تتسلم زمام السلطة . وسواد الفلاحين ، أليسوا أيضاً بورجوازية من فئة أخرى ، من نوع آخر ، من طابع آخر ؟ فلماذا لا يمكن أن تصل هذه الفئة الإجتماعية إلى السلطة ، «منجزة» على هذا النحو الثورة الديموقراطية البورجوازية ؟ لماذا يكون ذلك مستحيلاً ؟

هكذا غالباً ما يفكر ويحلل البلاشفة القدماء .

وأجيب أن هذا ممكن كل الإمكان . بيد أنه يترتب على الماركسى ، عند تقدير وضع من الأوضاع ، أن ينظر الى الواقع ، لا إلى الممكن .

وجنوداً، أنتخبوا بحرية، يؤلفون حكومة ثانية، ويكمّلونها، ويطورونها ويتقنونها بحرية ، وبالحرية نفسها يسلمّون السلطة إلى البورجوازية ، الأمر الذى لا يلحق أى «مساس» بالنظرية الماركسية، لأننا عرفنا دائماً وأوضحنا مراراً أن البورجوازية لا تبقى فقط بواسطة العنف، إنما تبقى أيضاً بفضل رتوبة الجماهير، وهمود همتها، ولا مبالاتها ، وعدم تنظيمها.

أمام هذا الواقع الراهن ، من السخف حقاً أن ندير ظهورنا للوقائع الفعلية وأن نتحدث عن «الإمكانيات» .

من الممكن أن يأخذ الفلاحون جميع الأراضى وكل السلطة ولكنى لا أنسى هذه الإمكانية ولا أحصر أفقى فى اليوم الحالى فقط، بل أصوغ البرنامج الزراعى واضحاً جلياً، آخذا بعين الإعتبار واقعاً جديداً، هو إنفصال الإجراء الزراعيين والفلاحين الفقراء عن الفلاحين الميسورين، إنفصالاً متزايد العمق .

ولكن ثمة إمكانية أخرى متوافرة : فقد يصغى الفلاحون إلى نصائح حزب الإشتراكيين ـ الثوريين البورجوازى الصغير، الذى يخضع لتأثير البورجوازية، والذى إنتقل الى القول بالدفاع الوطنى، والذى يوصى بالإنتظار حتى الجمعية التأسيسة رغم أن موعد إنعقادها لما يحدد !(*)

(*) إنى أقول فوراً ، ومسبقاً ، لكى لا يؤول كلامى على غير حقيقته : إنى اعتبر ، بلا تحفظ ، أنه ينبغى على سوفييتات الأجراء الزراعيين والفلاحين أن تستولى حالا على جميع الأراضى ولكن شرط أن تتقيد بنفسها ، بكل دقة ، بالنظام ، شرط ألا تتساهل بأى إتلاف للآلات والأبنية والماشية ، شرط الإستثمار وانتاج الحبوب ، شرط أن تشددهما ، لأنه ينبغى مضاعفة حصة الجنود من الخبز وينبغى ألا يعانى السكان المجاعة .

من الممكن أن يُبقى الفلاحون ، أن يواصلوا المساومة الشكلية ، بل الفعلية أيضاً التى أجروها مؤخراً مع البورجوازية عن طريق سوفييتات نواب العمال والجنود .

شتى الفرضيات ممكنة ، ومن فادح الخطأ أن ننسى الحركة الزراعية والبرنامج الزراعى. إلا أنه من فادح الخطأ أيضاً أن ننسى الواقع الذى يبيّن لنا حدث إتفاق، أو إذا استعملنا تعبيراً أدق ، أقل صفة حقوقية ، وأكثر صفة إقتصادية وطبقية ، حدث تعاون طبقى بين البورجوازية والفلاحين .

عندما يكف هذا الواقع عن أن يكون واقعاً ، عندما ينفصل الفلاحون عن البورجوازية، ويأخذون الأرض غصباً عنها ، ويأخذون السلطة غصباً عنها، ستنفتح مرحلة جديدة من الثورة الديموقراطية البورجوازية ، مرحلة سنبحثها بوجه أخص .

أن الماركسى الذى تنسيه إمكانية هذه المرحلة المقبلة واجبه الآن، والفلاحون يتفقون مع البورجوازية، إنما يكون بورجوازياً صغيراً فهو بالفعل يدعو البروليتاريا إلى الثقة بالبورجوازية الصغيرة (هذه البورجوازية الصغيرة، هذه الجماهير الفلاحية ، ينبغى لها أن تنفصل عن البورجوازية ، فى نطاق الثورة الديموقراطية البورجوازية بالذات) .

إن «إمكانية» مستقبل باسم طريف شاعرى لا يبقى فيه الفلاح فى ذيل البورجوازية ولا يبقى فيه الإشتراكيون ـ الثوريون ، والسادة تشيخييدزه وتسيري تيلى وستيكلوف أذيالاً للحكومة البورجوازية،

أن «إمكانية» هذا المستقبل الباسم ستنسيه الحاضر الكثيب الذى ما يزال فيه الفلاح فى ذيل البورجوازية، وما يزال فيه الاشتراكيون ـ الثوريون والاشتراكيون ـ الديموقراطيون يقومون بدورهم كذيل للحكومة البورجوازية،

كمعارضة «لصاحب الجلالة» (١٢) لفوف .

أن هذا الشخص المفترض سيشبه لويس بلان العذب ، ونصيراً معسولاً من أنصار كاوتسكى ؛ ولن يشبه فى شئ الماركسى الثورى .

ألا نتعرض لخطر فى الذاتية فى رغبة «القفز» من فوق الثورة الديموقراطية البورجوازية ، غير المنتهية - والتى لا تزال مشوبة بميزات الحركة الفلاحية - الى الثورة الإشتراكية ؟

إذ قلت : «لا نريد القيصر ، بل نريد حكومة عمال» (١٣) ، تعرّضت لهذا الخطر، ولكنى لم أقل هذا ، إنما قلت شيئاً أخر . قلت أنه لا يمكن أن يكون ثمة فى روسيا حكومة (باستثناء الحكومة البورجوازية) غير سوفييتات نواب العمال والأجراء الزراعيين والجنود والفلاحين وقلت أنه لا يمكن أن تنتقل السلطة اليوم، فى روسيا، من غوتشكوف ولفوف، الاّ إلى هذه السوفييتات التى يسيطر فيها بالضبط الفلاحون والجنود، والبورجوازية الصغيرة،

هذا إذا استعملنا تعبيراً علمياً، ماركسياً ، إذا استخدمنا تعريفاً غير مستمد من اللغة اليومية، من لغة رجل الشارع، من اللغة المهنية، إذا استخدمنا تعريفاً طبقياً .

لقد تجنبت إطلاقاً، فى موضوعاتى، كل احتمال بالقفز من فوق الحركة الفلاحية أو البورجوازية الصغيرة بوجه عام ، التى لمّا يولّ زمانها ، كل إحتمال بلعب لعبة «أخذ السلطة» من قبل حكومة عمالية، كل مغامرة بلانكية، إذ أنى استشهدت صراحة بتجربة كومونة باريس، والحال أن هذه التجربة، كما هو معروف، وكما أثبت ماركس بدقة فى ١٨٧١، وإنجلس فى ١٨٩١ (١٤)، قد نفت البلانكية (١٥) إطلاقاً، وضمنت إطلاقاً سيطرة

الأغلبية المباشرة الفورية غير المشروطة، وكفلت نشاط الجماهير متناسباً فقط مع نشاط هذه الأغلبية الواعى.

وفى موضوعاتى، أعدت كل شئ، بصورة صريحة كل الصراحة، إلى النضال من أجل النفوذ فى قلب سوفييتات نواب العمال والأجراء الزراعيين والفلاحين والجنود، ولكى لا أدع أى مجال لشك حول هذه النقطة، أشرت مرتين فى موضوعاتى إلى ضرورة القيام بعمل «توضيحى» دائب ، منتظم عنيد «مكيف لحاجات الجماهير العملية» .

قد يزعق جهلة أو مرتدون عن الماركسية، أمثال السيد بليخانوف وأضرابه، أن ثمة فوضوية ، بلانكية ... إلخ .. ولكن من يريد أن يفكر ويتعلم لا يستطيع ألا أن يدرك أن البلانكية هى إستيلاء الأقلية على السلطة، بينما سوفييتات نواب العمال ... إلخ ، هى بكل تأكيد المنظمة الفورية المباشرة لأغلبية الشعب .

أن عملاً يتم فى نطاق النضال من أجل النفوذ فى قلب هذه السوفييتات لا يمكن له ، لا يمكن أبداً أن ينصب فى مستنقع البلانكية . كما لا يمكن له أيضاً أن ينصبّ فى مستنقع الفوضوية ، لأن الفوضوية تنكر ضرورة الدولة وسلطة الدولة خلال الإنتقال من سيادة البورجوازية إلى سيادة البروليتاريا .

غير أنى ، بالعكس، ادافع ، بوضوح ينفى كل سوء فهم ، عن ضرورة الدولة فى هذه المرحلة، شرط إلا تكون الدولة ـ وهذا ما يتفق مع ماركس ومع تجربة كومونة باريس ـ دولة برلمانية برجوازية عادية ، بل دولة بدون جيش دائم ، بدون بوليس مضاد للشعب ، بدون دواوينية موضوعة فوق الشعب.

فإذا كان السيد بليخانوف يزعق بكل قواه فى جريدته «ايدينستفو» ، أن ثمة فوضوية ، فهو لا يعطينا على هذا النحو سوى دليل جديد على قطيعته مع الماركسية . لقد وجهت فى «البرافدا» (العدد ٢٦)دعوة الى السيد بليخانوف أن يقول لنا ما كان عليه تعليم ماركس وانجلس حول الدولة فى ١٨٧١ ، و١٨٧٢ ، و١٨٧٥(*) ، ولكننا نرى بليخانوف مضطرًا وسيظل أبداً مضطراً الى لزوم الصمت حول جوهر المسألة ، مع إرساله فى الوقت نفسه زعقات مماثلة لزعقات البورجوازية الغاضبة .

أن الماركسى السابق السيد بليخانوف لم يدرك إطلاقاً أى شئ من مذهب الماركسية حول الدولة . هذا مع العلم أن بذور عدم الإدراك هذا بارزة فى كراسه الألمانى حول الفوضوية .

لنر الآن كيف أن الرفيق كامينيف يعرض فى مقاله الصادر فى العدد ٢٧ من «البرافدا» ، «خلافاته» مع موضوعاتى والآراء المعروضة آنفاً . الأمر الذى يتيح لنا توضيحها بشكل أفضل .

يقول الرفيق كامينيف :

«فيما يخص المخطط العام الذى وضعه الرفيق لينين ، يبدو لنا أنه لا يمكن قبوله، لأنه ينطلق من الإعتراف بأن الثورة الديموقراطية البورجوازية قد تحققت، ولأنه يعول على تحول هذه الثورة فوراً الى ثورة إشتراكية» ...

هنا ، خطآن كبيران :

الخطأ الأول : أن مسألة معرفة ما إذا كانت الثورة الديموقراطية

(*) راجع لينين : «التحالف بين العمال والفلاحين » . الطبعة العربية . دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية ، موسكو . ص ١٠٧-١٠٨ .

البورجوازية قد «تحققت» أم لا، قد اسئ طرحها . فهى مطروحة بصورة مجردة مبسطة، لا ترى ، إذا جاز القول، إلا جانباً واحداً من الأمور ولا تنطبق على الواقع الموضوعى. أن من يطرح السؤال هكذا من يسأل اليوم: «هل تحققت الثورة البورجوازية الديموقراطية» لا أكثر ، إنما يحرم نفسه إمكانُ فهم واقع فى منتهى التعقيد وله مظهران على الأقل . هذا نظرياً . أما فى التطبيق العملى ، فإنه يستسلم بصورة يرثى لها أمام النزعة الثورية البورجوازية الصغيرة .

والحال أن الحياة تبين لنا، فى آن، انتقال السلطة إلى البورجوازية (ثورة بورجوازية ديموقراطية) محققة من الطراز العادى ووجود حكومة ثانية، إلى جانب الحكومة الحقيقة، هى «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية». وهذه الحكومة هى أيضاً قد تنازلت بكل طيبة خاطر عن السلطة للبورجوازية، وقيدت نفسها بنفسها بالحكومة البورجوازية .

فهل أن صيغة الرفيق كامينيف البلشفية القديمة: «أن الثورة الديموقراطية البورجوازية لم تتحقق» ، تعكس هذا الواقع ؟

كلا، أن هذه الصيغة قد ولى زمانها، ولم تعد تصلح لشئ، لقد ماتت، وعبثاً يحاولون بعثها واحياءها .

ثانياً : مسألة عملية. من غير المعروف إذا كانت «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطيك الثورية»، الخاصة المنفصلة عن الحكومة البورجوازية، لا تزال ممكنة فى روسيا فى الوقت الحاضر ، والحال لا يجوز بناء التاكتيك الماركسى على المجهول .

ولكن إذا كان ذلك لا يزال ممكن الوقوع ، فليس من سبيل لبلوغه إلا سبيل واحد ، وواحد فقط : فصل العناصر الشيوعية ، البروليتارية فى

الحركة على الفور، وبصورة قاطعة، نهائية، عن العناصر البورجوازية الصغيرة .

لماذا؟

لأنه ليس من باب الصدفة ، بل من باب الضرورة أن البورجوازية الصغيرة كلها قد انعطفت إلى الشوفينية (نزعة الدفاع)، إلى «مساندة» البورجوازية، إلى التبعية للبورجوازية إلى الخوف من الإستغناء عنها ، وهلم جراً ، وهكذا دواليك .

كيف يمكن «دفع» البورجوازية الصغيرة إلى الحكم إذا كانت تستطيع إستلامه منذ الآن ، ولكنها لا تريد إستلامه ؟

بطريقة واحدة فقط، بفصل الحزب الشيوعى، البروليتارى ؛ بنضال طبقى بروليتارى خال من وجل هؤلاء البورجوازيين الصغار. أن تلاحم البروليتاريين الذين تخلصوا، بالفعل لا بالقول، من نفوذ البورجوازية الصغيرة، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل الأرض «تحترق» تحت أقدام البورجوازية الصغيرة، بحيث أنها ترى نفسها مضطرة فى بعض الظروف، إلى استلام الحكم، حتى أنه ليس من المستبعد أن يوافق غوتشكوف وميليوكوف - فى بعض الظروف، أيضاً، على أن تكون السلطة بكليتها وبلا منازع فى زيدى تشيخييدزه، وتسيريتيلى، والإشتراكيين - الثوريين، وستيكلوف ، لأن هؤلاء هم ، رغم كل شئ ، من «أنصار الدفاع» !

أن من يفصل منذ الآن، فوراً ونهائياً، العناصر البروليتارية فى السوفييتات (أى الحزب الشيوعى ، البروليتارى) عن العناصر البورجوازية الصغيرة ، إنما يعبّر بأمانة عن مصالح الحركة فى الحالتين الممكنتين التاليتين: فى حالة ما إذا عرفت روسيا «ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين»

الخاصة، والمستقلة، غير الخاضعة للبورجوازية، كما فى حالة ما إذا لم تتوصل البورجوازية الصغيرة إلى الإنفصال عن البورجوازية وترددت دائماً (أى حتى الإشتراكية) بينها وبيننا .

أن من يسترشد فى نشاطه مجرد الصيغة البسيطة «أن الثورة الديموقراطية البورجوازية لم تتحقق»، إنما يعلن نفسه بالتالى كفيلاً، إذا جاز القول، أن البورجوازية الصغيرة قادرة بكل تأكيد ، على الإستقلال عن البورجوازية، وعلى هذا النحو، بضع نفسه فى الوقت الحاضر، وبصورة يرثى لها ، تحت رحمة البورجوازية الصغيرة .

«أن ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية ، لها ماض ومستقبل ككل ما هو موجود فى العالم ، وماضيها ، الأوتوقراطية (هو الحكم المطلق) ، والقناعة ، والملكية ، والإمتيازات ... أما مستقبلها ، فهو النضال ضد الملكية الخاصة، هو نضال العامل الأجير ضد رب العمل ، هو النضال فى سبيل الإشتراكية » .

أن الرفيق كامينيف يخطئ حين لا يرى ، فى عام ١٩١٧ أيضاً ، إلا إلى ماضى ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية والحال ، أن المستقبل قد بدأ فعلاً بالنسبة لها لأن مصالح العامل الأجير ورب العمل وسياستهما قد اختلفت فعلاً ، وذلك فى مسألة رئيسية كما هى عليه مسألة نزعة «الدفاع» ، مسألة الموقف من الحرب الإستعمارية .

وهنا أصل إلى الخطأ الثانى فى محاكمة الرفيق كامينيف المذكورة أعلاه أنه ينتقدنى لكونى «أعول» فى مخططى على «تحوّل هذه الثورة (الديموقراطية البورجوازية) فوراً إلى ثورة اشتراكية » .

هذا خطأ . فأنا لا «أعول» على «تحول» ثورتنا «فوراً» إلى ثورة

إشتراكية، إنما أحذر صراحة من هذه الطريقة فى النظر إلى الأمور ، وأعلن صراحة فى الموضوعة رقم ٨ : «عدم «تطبيق» الاشتراكية ، بإعتباره مهمتنا المباشرة».

أليس بديهياً أن من يعول على تحول ثورتنا فوراً إلى ثورة إشتراكية لا يمكنه أن يعارض فى تطبيق الإشتراكية بإعتباره مهمة مباشرة ؟

وبالإضافة إلى ذلك نقول أنه حتى من المستحيل تطبيق « دولة - كومونة» (أى دولة من طراز كومونة باريس) فى روسيا «فوراً» ، لأنه ينبغى لهذا الغرض أن تدرك أغلبية النواب فى جميع (أو فى معظم) السوفييتات بوضوح ما يتصف به تاكتيك وسياسة الاشتراكيين - الثوريين،، وتشيخييدزه وتسيريتيلى وستيكلوف ومن لف لفهم، من خطأ وضرر، والحال أنى أعلنت بكل وضوح «إنى أعول» فقط على عمل إيضاحى «صبور» فى هذا المضمار (وأية حاجة للصبر من أجل الحصول على تغيير يمكن تحقيقه «فوراً» ؟) !

أن الرفيق كامينيف قد بالغ بدافع من «فارغ صبره»، وتبنى الأوهام البورجوازية بصدد كومونة باريس التى شاعت، كما يُزعم ، أن تطبق الإشتراكية «فوراً» هذا الزعم غير صحيح. فإن الكومونة قد تأخرت كثيراً ، لسوء الحظ، فى تطبيق الاشتراكية. أن كنه الكومونه الحقيقى ليس حيث يبحث البورجوازيون عادة عنه، إنما هو فى إنشاء نوع دولة خاص، والحال، أن دولة من هذا النوع قد ظهرت إلى الوجود فى روسيا : وهى سوفييتات نواب العمال والجنود!

أن الرفيق كامينيف لم يفكر فى هذا الواقع وهو أن السوفييتات موجودة، لم يفكر فى أهميتها ، وفى تشابه نوعها وطابعها الاجتماعى والسياسى، مع دولة الكومونة؛ وبدلاً من أن يدرس الواقع ، راح يتحدث

عما «أعول» عليه ، «فوراً» حسب ظنه. أما النتيجة، فهى أنه يلجأ بدوره، مع الأسف، إلى أسلوب يلجأ إليه كثرة من البورجوازيين، قوامه صرف الانتباه عن مسألة ماهية سوفييتات نواب العمال والجنود عن مسألة ما إذا كانت من طراز أعلى من الجمهورية البرلمانية، ما إذا كانت أكثر فائدة للشعب، وأكثر ديموقراطية ،'وأكثر أهلية لمكافحة النقص فى الحبوب، مثلاً ... إلخ ، - وهى مسألة حيوية، فعلية، تضعها الحياة على بساط البحث، - وتوجيه الانتباه نحو مسألة عقيمة، مظهرها علمى، ولكنها فى الواقع فارغة من كل معنى، لاغية ، استاذية صرفة ؛ وأعنى بها أنى «أعول على تحول فورى » .

مسألة باطلة أسئ وضعها إنى «أعول» فقط، بوجه الحصر، على أن العمال والجنود والفلاحين سيعرفون خيراً من الموظفين، خيراً من البوليس، كيف يحلون القضايا العملية الصعبة ، قضايا زيادة إنتاج الحبوب ، وتحسين توزيعها، وتحسين تموين الجنود وهلم جراً وهكذا دواليك .

وإنى لعلى اقتناع راسخ بان سوفييتات نواب العمال والجنود ستعرف خيراً من الجمهورية البرلمانية وأسرع منها كيف تجعل من مبادرة جماهير الشعب أمراً واقعاً (راجع فى رسالة أخرى مقارنة أكثر تفصيلاً بين نموذجى الدولة). وستقرر بصورة أفضل واصح ، بصورة عملية أكثر، كيف يمكن القيام بخطوات نحو الإشتراكية وباية خطوات أن رقابة المصرف ودمج جميع المصارف فى مصرف واحد ليسا بعد الإشتراكية ، بل خطوة نحوها، ومن هذه الخطوات يتخذ اليوم فى ألمانيا اليونكر (١٧) والبورجوازيون ضد الشعب . غير أن سوفييت نواب العمال والجنود سيفعل غداً هذا على نحو أفضل بكثير فى صالح الشعب ، إذا ما كانت سلطة الدولة كلها بين يديه .

وما الذى يجبر على إتخاذ مثل هذه الخطوات ؟

فالمجاعة، اضطراب الحياة الاقتصادية، الإفلاس الوشيك، فظائع الحرب، الجراح الكريهة التى تتسبب بها الحرب للانسانية .

وينهى الرفيق كامينيف مقاله بإعلانه أنه «يأمل أن يدافع عن وجهة نظره فى مناقشة واسعة بإعتبارها وجهة النظر الوحيدة الممكنة للاشتراكية الديموقراطية الثورية إذا كانت تريد ويجب عليها أن تبقى إلى النهاية حزب الجماهير الثورية من البروليتاريا، لا أن تتحول الى فريق من الدعاة الشيوعيين».

برأيى أن هذه الأقوال تنم عن تقدير خاطئ كلياً للوضع الراهن. فإن الرفيق كامينيف يعارض «حزب الجماهير» بـ «فريق الدعاة». والحال أن «الجماهير» هى اليوم فريسة نشوة الدفاع «الثورى» أفلا يجدر بالأمميين أن يعرفوا فى مثل هذا الوقت كيف يقفون بوجه هذه النشوة «الجماهيرية» بدلاً من أن «يرغبوا فى البقاء» مع الجماهير،

أى بدلاً من أن يستسلموا للعدوى العامة؟ أولم نر الشوفينيين فى جميع البلدان المتحاربة الأوروبية يحاولون تبرير أنفسهم متذرعين برغبتهم فى «البقاء مع الجماهير» ؟ أليس من الواجب أن نعرف كيف نبقى أقلية بعض الوقت لمواجهة النشوة «المجاهيرية»؟ أليس نشاط الدعاة ، بوجه الدقة، النقطة المركزية فى الوقت الحاضر لإستخلاس الخطة البروليتارية من النشوة «الجماهيرية» الدفاعية والبورجوازية الصغيرة ؟ أن كون الجماهير البروليتارية وغير البرولتارية، قد تكتلت دون أى تمييز طبقى فى داخل هذه الجماهير، هو الذى كان شرطاً من شروط العدوى الدفاعية. فلا يليق أبداً ، كما يبدو لى ، التحدث بازدراء عن «فريق دعاة» الخطة البروليتارية .

مهمات البروليتاريا

فى ثورتنا

(مشروع برنامج لحزب البروليتاريا) :

أن الحقبة التاريخية التى تجتازها روسيا فى الوقت الحاضر تتصف بالسمات الأساسية التالية :

الطابع الطبقى للثورة المحققة :

١ - أن السلطة القيصرية القديمة التى لم تكن تمثل غير حفنة من الإقطاعيين يقودون كل آلة الدولة (الجيش والبوليس والبيروقراطية)، قد غلبت على أمرها وأسقطت ، ولكنه لم يجهز عليها بعد . أن الملكية لم تلغ قانونياً ، ولا تزال عصابة آل رومانوف تحيك دسائسها الملكية، ولم يقض على ملكية الاقطاعيين العقارية الشاسعة .

٢ - أن سلطة الدولة فى روسيا قد انتقلت إلى أيدى طبقة جديدة : البورجوازية والملاكين العقاريين المتبرجزين وعليه تحققت الثورة الديموقراطية البورجوازية فى روسيا .

وحين وصلت البورجوازية إلى السلطة، تكتلت (تحالفت) مع العناصر الملكية السافرة التى اشتهرت من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩١٤ ، بحمية لم يسمع بمثلها من قبل فى دعم نقولاى الدموى وستوليبين الجلاد الشانق (غوتشكوف وسائر الساسة الواقفين إلى يمين الكاديت (١٨) .

وقد حاولت حكومة لفوف وشركاه البورجوازية الجديدة أن تفاوض بل بدأت تفاوض آل رومانوف حول عودة الملكية فى روسيا، وهى تحت ستار

من التعابير الثورية الطنانة، تعين أنصار النظام السابق فى مراكز القيادة، وتسعى إلى الحد الأدنى من اصلاح كل آلية جهاز الدولة (الجيش والبوليس والبيروقراطية)، الذى وضعته فى أيدى البورجوازية، وبوجه المبادرة الثورية التى تتميز بها أعمال الجماهير وبوجه إستلام السلطة من القاعدة، من جانب الشعب ـ وهو الضمانة الوحيدة لنجاحات فعلية تحرزها الثورة ـ شرعت الحكومة الجديدة تقيم شتى العقبات .

فهى لم تعين بعد حتى موعد إجتماع الجمعية التأسيسة ، ولا تمس أبداً ملكية الملاكين العقاريين ، هذا الأساس المادى للقيصرية الاقطاعية، حتى أنها لا تفكر فى الشروع بالتحقيق حول تصرفات المؤسسات المالية الاحتكارية، والمصارف الكبرى، والسنديكات والكارتلات الرأسمالية ...الخ ، وفى مراقبة هذه المؤسسات وفضح مساعيها .

والمناصب الوزارية الرئيسية المناصب الحاسمة فى الحكومة الجديدة (وزارة الداخلية، وزارة الحربية، أى قيادة الجيش والبوليس، والموظفين، وكل جهاز اضطهاد الجماهير) فى أيدى الملكيين السافرين وأنصار ملكية الملاكين العقاريين الكبيرة بينا الكاديت، جمهوريون الأمس، الجمهوريون غصباً عنهم ، منحوا مناصب ثانوية، ليس لها أية علاقة مباشرة بالقيادة الممارسة على الشعب وبجهاز سلطة الدولة كيرنسكى، ممثل الترودوفيك (١٩) و«الاشتراكى هو أيضاً»، لا يضطلع باى دور اطلاقاً ، سوى أنه يخدر يقظة الشعب وانتباهه بجمل منمقة رنانة .

لجميع هذه الأسباب ، لا تستحق الحكومة البورجوازية الجديدة ، حتى فى السياسة الداخلية ، أى ثقة من جانب البروليتاريا ، ولا يمكن للبروليتاريا أن تمحضها أى تأييد .

السياسة الخارجية للحكومة الجديدة:

٣ - فيما يتعلق بالسياسة الخارجية التى تضعها الآن الأحوال الموضوعية فى المرتبة الأولى، فإن الحكومة الجديدة حكومة مواصلة الحرب الاستعمارية، الحرب بالتحالف مع الدول الاستعمارية، بريطانيا، فرنسا... إلخ ، قصد اقتسام الغنيمة الرأسمالية، قصد خنق الشعوب الصغيرة والضعيفة .

أن الحكومة الجديدة، الخاضعة لمصالح الرأسمال الروسى وحامية وسيده الجبار، الرأسمال الإستعمارى الأنجلو - فرنسى ، الرأسمال الأغنى فى العالم ، أن هذه الحكومة ، رغم الأمانى التى أعرب عنها سوفييت نواب العمال والجنود على أوضح وجه باسم الغالبية الصريحة لشعوب روسيا لم تقم بأى خطوة ملموسة من أجل وضع حد لمجزرة الشعوب الجارية فى مصلحة الرأسماليين . حتى أنها لم تنشر تلك المعاهدات السرية، معاهدات النهب السافر (حول اقتسام العجم ونهب الصين ونهب تركيا واقتسام النمسا واغتصاب بروسيا الشرقية والمستعمرات الألمانية ... إلخ)، التى تربط روسيا بكل جلاء بالرأسمال الإستعمارى الأنجلو - فرنسى اللصوص، وقد أكدت الحكومة الجديدة هذه المعاهدات التى عقدتها القيصرية التى نهبت واضطهدت من الشعوب، طوال قرون، أكثر من سائر الطغاة والمستبدين، القيصرية التى لم تكتف بالإضطهاد، بل كانت تفسد الشعب الروسى وتذله وتلطخ سمعته بالعار ، إذ جعلت منه جلاد الشعوب الأخرى .

وخلافاً لمطالب أغلبية الشعوب فى روسيا، التى أعربت عنها سوفييتات نواب العمال والجنود بكل وضوح، فإن الحكومة الجديدة، التى أكدت المعاهدات الشائنة اللصوصية، لم تعرض الهدنة الفورية على جميع الشعوب

المتحاربة ، بل اكتفت باغداق التصاريح والتعابير البليغة، الطنانة، المفخمة، ولكنها الفارغة إطلاقاً من كل معنى، التى كانت دائماً وال تزال الآن، على لسان الديبلوماسيين البورجوازيين ، اداة لخداع جماهير الشعب المضطهد، الواثقة والساذجة .

٤ ـ ولذا فان الحكومة الجديدة لا تستحق اية ثقة فى حقل السياسة الخارجية، بل أن انذارها من جديد بإعلان ارادة شعوب روسيا فى السلام، والعدول عن الألحاقات ... إلخ. إنما هو، فى الجوهر، مجرد تضليل للشعب، ومسعى يخلق فى نفسه آمالاً لا يمكن تحقيقها، ويؤخر ساعة ادراكه، ويحمله على القبول ، بصورة غير مباشرة، بمواصلة حرب لا يتحدد طابعها الاجتماعى الحقيقى بالتمنيات البريئة ، بل بالطبيعة الطبقية للحكومة التى تخوضها، بالصلة التى تربط الطبقة التى تمثلها هذه الحكومة بالرأسمال المالى الاستعمارى فى روسيا وبريطانيا وفرنسا ... إلخ ، بالسياسة الفعلية الحقيقية التى تنتهجها هذه الطبقة .

ازدواج السلطة الأصيل ومغزاه الطبقى :

٥ ـ أن الخاصة الأساسية التى تختص بها ثورتنا ، الخاصة التى تقتضى ألح ما يكون من الإنتباه والتفكير، إنما هى ازدواج السلطة الذى نشأ غداة انتصار الثورة .

أن ازدواج السلطة هذا يتجلى بوجود حكومتين اثنتين : الحكومة الرئيسية الحقيقية، الفعلية، حكومة البورجوازية، «الحكومة الموقتة» ، حكومة السادة لفوف وشركاه، التى تتسلم جميع هيئات السلطة، وحكومة اضافية، ثانية، حكومة «رقابية» ، يمثلها سوفييت نواب العمال والجنود فى بتروغراد، حكومة لا تتسلم هيئات سلطة الدولة ، بل تستند مباشرة إلى أغلبية الشعب

المطلقة الصريحة ، إلى العمال والجنود المسلحين .

أما المنشأ الطبقى لهذا الإزدواج فى السلطة ومغزاه الطبقى ، فهو أن الثورة الروسية فى آذار (مارس) ١٩١٧ لم تكنس كل الملكية القيصرية وحسب، ولم تضع فى يد البورجوازية كامل السلطة وحسب ، بل إنها أيضاً مست عن كثب ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية. أن هذه الديكتاتورية على وجه الضبط (أى هذه السلطة التى لا تعتمد على القانون بل تعتمد على القوة المباشرة للجماهير المسلحة من السكان)، أن ديكتاتورية الطبقتين المذكورتين أعلاه بالضبط هى ما يمثله سوفييت نواب العمال والجنود فى بتروغراد وسائر سوفييتات الأقاليم .

٦ ـ وهناك خاصة أخرى من خصائص الثورة الروسية على جانب فذ من الأهمية، هى أن سوفييت نواب الجنود والعمال فى بتروغراد الذى يتمتع بثقة أغلبية السوفييتات المحلية ـ وكل شئ يدعو إلى هذا الاعتقاد ـ يتنازل عن سلطة الدولة بملء ارادته للبورجوازية وحكومتها المؤقتة، ويتخلى بملء ارداته لهذه الحكومة عن الأولوية، بعد التفاهم معها من أجل دعمها، ويكتفى بدور المراقب الذى يشرف على الدعوة إلى انعقاد الجمعية التأسيسة (الذى لم تنشر الحكومة المؤقتة موعده حتى الآن) .

أن هذا الوضع الذى يتسم بطابع فى منتهى الأصالة ، والذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، قد أدى إلى هذا التشابك إلى هذا الخليط من ديكتاتوريتين اثنتين : ديكتاتورية البورجوازية (لأن حكومة لفوف وشركاه ديكتاتورية أى سلطة لا تعتمد على القانون ولا على تعبير مسبق لإرادة الشعب ، بل تعتمد على عنف قامت به طبقة معينة أى البورجوازية) وديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين (سوفييت نواب العمال والجنود) .

ولا سبيل ابداً الى الشك فى أن هذا «التشابك» لا يمكن أن يدوم طويلاً، فلا يمكن أن تقوم سلطتان فى دولة واحدة، ولا بد من زوال أحداهما زوالاً تاماً، وما هى ذى كل بورجوازية روسيا تعمل منذ الآن بجميع قواها، وبجميع الوسائل وفى جميع الأماكن، على محو واضعاف سوفييتات نواب الجنود والعمال ، والقضاء عليها قضاء مبرماً ، وتحقيق وحدة سلطة البورجوازية .

أن ازدواج السلطة لا يعكس غير مرحلة انتقالية من تطور الثورة ، حين تجاوزت هذه الثورة حد ثورة ديموقراطية بورجوازية عادية ، ولكنها لم تصل بعد إلى ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين «الخالصة» .

أما المغزى الطبقى (والتفسير الطبقى) لهذا الوضع الانتقالى المتقلقل ، فهو التالى : أن ثورتنا، مثلها مثل كل ثورة أخرى، قد تطلبت من الجماهير أكبر آيات البطولة والتفانى فى النضال ضد القيصرية ؛ فضلاً عن أنها اجتذبت الى الحركة دفعة واحدة عدداً لا يصدق من بسطاء السكان .

أن كل ثورة حقيقية تتصف بصفات رئيسية علمية وسياسية عملية ، منها ازدياد عدد «السكان البسطاء» الذين يشرعون فى الإشتراك بنشاط ومن تلقاء أنفسهم فى الحياة السياسية ، فى تنظيم الدولة ، ازدياداً غاية فى السرعة والقوة والمفاجأة .

كذلك هى روسيا . فروسيا اليوم فى غليان ، أن الملايين وعشرات الملايين من الناس، الغارقين فى سبات سياسى منذ عشر سنوات، والخاضعين سياسياً لنير القيصرية الرهيب، المرهقين بكدحهم الشاق فى صالح ملاكى الأراضى والصناعيين ، قد استيقظوا وهم يطمحون إلى السياسة . فمن هم هؤلاء الملايين وعشرات الملايين من الناس ؟ أنهم .

بمعظمهم ، من صغار أرباب العمل ، من صغار البورجوازيين ، من أناس يحتلون مكاناً وسطاً بين الرأسماليين والعمال الأجراء . أن روسيا لأبرز بلدان أوروبا صبغة بورجوازية صغيرة .

فقد نهضت موجة بورجوازية صغيرة هائلة غمرت كل شئ؛ وأغرقت البروليتاريا الواعية لا بعددها وحسب ، بل فكرياً أيضاً ، أى أنها أعدت أوساطاً واسعة من العمال بنقلها اليهم مفاهيمها، مفاهيم البورجوازية الصغيرة، فى السياسة .

أن البورجوازية الصغيرة ترتبط من حيث معيشتها، بالبورجوازية ، لأنها هى أيضاً تعيش مثل أرباب العمل لا مثل البروليتاريين (من حيث المكان الذى تشغله فى الإنتاج الاجتماعى) ، وهى من حيث طريقتها فى التفكير ، تسير وراء البورجوازية .

الإيمان الأعمى بالرأسماليين، أى بألد أعداء السلام والإشتراكية - هذا ما تتصف به السياسة الحالية التى تنتهجها الجماهير فى روسيا، وهذا ما انبثق بسرعة ثورية فى الميدان الاقتصادى والإجتماعى فى بلد هو أبرز بلدان أوروبا صبغة بورجوازية صغيرة. هذا هو الأساس الطبقى «للإنفاق» (وأؤكد أنى اقصد الإتفاق الشكلى أقل مما أقصد التأييد الفعلى، الإتفاق الضمنى ، الإيمان الأعمى التى يتم فيه التنازل عن السلطة) بين الحكومة الموقتة وسوفييت نواب العمال والجنود - الاتفاق الذى أعطى أمثال غوتشكوف القطعة الكبرى، السلطة الحقيقية، وأعطى السوفييت الوعود، ومظاهر التشريف والإجلال (موقتاً)، والتملق، والألفاظ المنمقة، والتاكيدات، والتحيات المبجلة من كيرنسكى واضرابه .

أما وجه المدالية الآخر، فقوامه نقص البروليتاريا الروسية عددياً وعدم

كفاية وعيها وتنظيمها .

أن جميع الأحزاب الشعبية (٢٠) ، بما فيها حزب الإشتراكيين - الثوريين، قد كانت دائماً بورجوازية صغيرة ، وكذلك حزب اللجنة التنظيمية (تشيخييدزه وتسيريتيلى وغيرهما) ؛ كما أن الثوريين اللاحزبيين (ستيكلوف وغيره) أيضاً قد استسلموا للموجة أو لم يتغلبوا عليها ، أو لم يتوافر لهم الوقت لهذا الغرض.

أصالة التاكتيك ، نتيجة لما سبق :

٧ - بالنسبة للماركسى ، الذى يجب عليه أن يأخذ بعين الإعتبار الوقائع الموضوعية ، والجماهير والطبقات ، لا الإفراد ، الخ ، فإن أصالة الوضع الفعلى المشار اليها اعلاه تحدد بالضرورة أصالة التاكتيك فى الوقت الحاضر .

أن هذه الأصالة تضع فى المرتبة الأولى ضرورة «سكب الخل والمر فى ماء الجمل الديموقراطية الثورية المحلى» (حسب التعبير - الصحيح الرائع - الذى نطق به أمس فى بتروغراد ، تيودورفيتش ، رفيقى فى لجنة حزبنا المركزية، فى جلسة مؤتمر مستخدمى وعمال السكك الحديدية فى روسيا) عمل انتقادى؛ توضيح اخطاء الحزبين البورجوازيين الصغيرين الاشتراكى - الثورى والإشتراكى - الديموقراطى؛ تحضير وحشد عناصر الحزب البروليتارى الواعى، الشيوعى ؛ تحرير البروليتاريا من النشوة البورجوازية الصغيرة«العامة».

هذا يبدو أنه من قبيل الدعاوة «لا أكثر» ولكنه فى الواقع نشاط ثورى عملى حقاً ، لأنه لا يمكن أن ندفع إلى الإمام ثورة توقفت ، وغصت بالكلمات ، وشرعت «تروح فى مكانها»، لا بسبب من العقبات الخارجية، لا

بسبب من العنف تمارسه البورجوازية (أن غوتشكوف لا يفعل حتى الآن غير أن يهدد باستعمال العنف ضد جمهور الجنود) ، ولكن بسبب من عمى الجماهير المؤمن.

فعن طريق مكافحة هذا العمى المؤمن (ولا يمكن ولا يجب مكافحته إلا فى مضمار الأفكار، بالإقنا ع الأخوى ، والاستشهاد بتجربة الحياة)، عن هذا الطريق وحده، نستطيع الأفلات من هيمنة الجملة الثورية الجامحة، وحفز الوعى البروليتارى فعلاً، وكذلك وعى الجماهير، وكذلك مبادرتها المحلية ، الجريئة، الحازمة؛ حفز التحقيق العفوى للحريات، والديموقراطية، ومبدأ امتلاك جميع الأراضى من قبل الشعب كله ، وتطويرها وتوطيدها .

٨ ـ أن تجربة حكومات البورجوازية والملاكين العقاريين فى العالم كله قد صاغت اسلوبين اثنين لا بقاء الشعب فى قيود الإضطهاد. أولاً العنف. فإن نقولاى رومانوف الأول ـ نقولاى الهراوة، ونقولاى الثانى ـ الدموى، قد بينا للشعب الروسى الحد الأقصى ما هو ممكن وغير ممكن بهذا الأسلوب، أسلوب الجلادين، ولكنه يوجد أسلوب آخر، أتقنته البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية ، اللتان «تعلمتا» من جملة من الثورات الكبيرة والحركات الثورية التى قامت بها الجماهير ، هذا الأسلوب إنما هو الكذب، والتملق ، والتعابير والجمل الطنانة ، واغداق الوعود بلا عد ، والحسنات البائسة ، والتنازلات التافهة ، قصد الحفاظ على الأساسى .

أن قوام أصالة الوضع الراهن فى روسيا، إنما هو الإنتقال السريع الصاعق من الأسلوب الأول إلى الأسلوب الثانى، من العنف المسلط على الشعب إلى ضروب التملق والوعود الكاذبة، أن ميليوكوف وغوتشكوف أشبه بهر الأحدوثة، الذى يصغى ولكنه يأكل مع ذلك (١٢) فهما يقبضان

على زمام الحكم ويصونان أرباح الرأسمال، ويخوضان الحرب الاستعمارية فى صالح الرأسمال الروسى والرأسمال الأنجلو - فرنسى، ويكتفيان بالإجابة بالوعود والتصريحات التعابير الرنانة المؤثرة على خطابات «الطهاة» أمثال : تشيخييدزه، وتسيريتيلى، وستيكلوف، الذين يهددون ويعظون ويستحلفون ويتضرعون، وُيصرون، وينادون ... والهر يصغى ولكنه يأكل مع ذلك .

والحال أن الإيمان الأعمى والعمى المؤمن سيزولان يوماً بعد يوم، ولا سيما عند البروليتاريين والفلاحين الفقراء الذين تعلمهم الحياة (وضعهم الإقتصادى والإجتماعى) أن لا يؤمنوا بالرأسماليين .

«يجب» على زعماء البورجوازية الصغيرة أن يعلموا الشعب الثقة بالبورجوازية . أما البروليتاريون فيجب عليهم أن يعلموه الحذر والشك .

الدفاع الثورى ومعناه الطبقى :

٩ - ينبغى اعتبار الدفاع الثورى أبلغ واسطع ظاهرة من ظواهر الموجة البورجوازية الصغيرة التى غمرت «كل شئ تقريباً» أنه ألد أعداء تقدم الثورة الروسية ونجاحها .

وكل من استسلم بهذا الصدد ولم يعرف كيف يخلص نفسه ، فقد خسرته الثورة ، ولكن الجماهير تستسلم كما لا يستسلم الزعماء ، وهى تخلص نفسها بطريقة أخرى، بسبيل آخر من سبل التطور، بأساليب أخرى.

أن الدفاع الثورى هو من جهة، ثمرة خداع الجماهير من جانب البورجوازية، ثمرة الإيمان الأعمى عند الفلاحين وعند قسم من العمال، وهو من جهة أخرى، تعبير عن مصالح ووجهة نظر رب العمل الصغير، الذى له

مصلحة لحد ما فى الإلحاقات والأرباح المصرفية، والحارس «التقى» لتقاليد القيصرية التى أفسدت الروس الكبار (٢٢) ، وجعلت منهم جلادى الشعوب الأخرى .

أن البورجوازية تضلل الشعب بإستغلالها أباء الثورة النبيل ؛ وهى تحاول أيهام الشعب أن طابع الحرب السياسى والاجتماعى قد تعدل بالنسبة لروسيا منذ هذه المرحلة من الثورة ، لكون الملكية القيصرية قد حل محلها شبه جمهورية غوتشكوف ـ ميليوكوف، وآمن الشعب ـ موقتاً ـ بسبب من أوهام الماضى على الأخص، تلك الأوهام التى تجعل، بنظره، سائر شعوب روسيا ـ باستثناء الشعب الروسى ـ نوعاً من الملكية، من الإقطاع للروس، أن هذا الافساد الشائن للشعب الروسى من قبل القيصرية التى علمته أن يرى فى الشعوب الأخرى شيئاً منحطاً، يخص روسيا الكبرى «شرعاً» لم يكن من الممكن أن يتبدد دفعة واحدة.

أن ما ينبغى لنا، هو أن نعرف كيف نوضح للجماهير أن طابع الحزب السياسى والاجتماعى لا يحدده «حسن ارادة» الأفراد والفئات وحتى الشعوب، بل يحدده وضع الطبقة التى تخوض الحزب ، سياسة هذه الطبقة التى الحرب استمرار لها، وعلاقات الرأسمال بوصفه القوة الاقتصادية المسيطرة فى المجتمع الحالى، والطابع الإستعمارى للرأسمال العالمى ، وتبعية روسيا ـ مالياً ومصرفياً وديبلوماسياً ـ لانجلترا وفرنسا ... إلخ ، أن معرفة توضيح هذه الأمور للجماهير بصورة موفقة ومفهومة ليست بالأمر السهل، وما كان فى وسع أى منا أن يقوم بهذه المهمة من الدفعة الأولى دون اقتراف أى خطأ .

ولكن اتجاه دعاوتنا أو بالأصح مضمونها يجب أن يكون كما سبق وكما سبق فقط أن أقل تنازل للدفاع الثورى خيانة للاشتراكية، عدول تام

عن الأممية، أياً كانت التعابير الجميلة والاعتبارات «العملية» التى يبرران بها.

بديهى أن شعار «لتسقط الحرب !» صحيح، ولكنه لا يأخذ بعين الإعتبار المهام الخاصة فى الفترة الحاضرة، وضرورة مواجهة الجماهير الغفيرة بطريقة أخرى. أن هذا الشعار يشبه، برأيى، شعار «ليسقط القيصر!» حين كان يحمله محرّض أخرق من «الماضى الطيب» إلى القرية بكل بساطة ... فينهال عليه القرويون ضرباً. أن أنصار الدفاع الثورى بين الجماهير هم حسنو النية لا بوصفهم أفراداً بل من الناحية الطبقية ، لأنهم ينتسبون إلى الطبقتين (العمال والفلاحين الفقراء) اللتين ليس لهما فعلاً ما تكسبانه من الإلحاقات ومن خنق الشعوب الأخرى ، فليس شأنهم البورجوازيين والسادة «المثقفين» الذين يعرفون جيداً أنه يستحيل التخلى عن الإلحاقات دون التخلى عن سيطرة الرأسمال ، وهم بكل وقاحة يخدعون الجماهير بالتعابير الجميلة ، والوعود التى لا حدّ لها ، والتأكيدات التى لا عدّ لها .

أن أنصار الدفاع الثورى بين الجماهير يرون إلى الأمور بكل بساطة، كسائر السكان البسطاء : «لا أريد أية الحاقات ، والألمانى «يهجم» على ، فانا ادافع اذن عن قضية عادلة لا عن مصالح استعمارية». لهؤلاء ينبغى لنا أن نشرح بلا انقطاع أن المقصود ليس رغائبهم الشخصية ، بل العلاقات والأوضاع السياسية الجماهيرية والطبقية، وصلة الحرب بمصالح الرأسمال والشبكة المصرفية العالمية ... إلخ .. أن هذه الطريقة فى مكافحة فكرة الدفاع هى الطريقة الناجعة الوحيدة وهى تبشر بالنجاح ، بنجاح قد لا يأتى بسرعة بالغة ، ولكنه يكون أكيداً ودائماً .

كيف يمكن إنهاء الحرب ؟

١٠ ـ لا يمكن إنهاء الحرب «بناء على الرغبة» لا يمكن انهاؤها بناء على قرار من أحد الأطراف، لا يمكن انهاؤها «بشك الحربة فى الأرض» على حد تعبير جندى من أنصار «الدفاع» .

لا يمكن انهاء الحرب «بتفاهم» بين اشتراكى مختلف البلدان، «بعمل» يقوم به بروليتاريو جميع البلدان، «بارادة» الشعوب ... إلخ : أن هذا النوع من التعابير التى تتردد بكثرة فى أعمدة الصحف الدفاعية والصحف نصف الدفاعية ونصف الأممية، وكذلك فى القرارات والنداءات والبيانات التى لا عد لها، وفى قرارات سوفييت نواب الجنود والعمال، ليست سوى تمنيات حسنة النية ، بريئة باطلة ، كتمنيات البورجوازيين الصغار ، وليس ثمة ما هو أضر من هذه التعابير حول «الإفصاح عن إرادة الشعوب فى السلام» حول تناوب نشاط البروليتاريا الثورى (بعد البروليتاريا الروسية ، يأتى «دور» البروليتاريا الألمانية) ... إلخ .. كل هذا، ضرب من آراء لويس بلان والأحلام العذبة، واللعب بلعبة «الحملات السياسية» ، ولكنه فى الواقع تكرار لا حدوثة الهر والطاهى .

أن الحرب لم تنشأ عن سوء نية الضوارى الرأسماليين ، مع أنه لا ريب أبداً فى أنها تجرى لمصلحتهم فقط ولا تثرى غيرهم ، إنما نشأت عن نصف قرن من تطور الرأسمال العالمى، عن كثرة روابطه وصلاته التى لا عد لها، ومن المستحيل الخلاص من براثن الحرب الإستعمارية من المستحيل الحصول على صلح ديموقراطى، غير جائز، دون اسقاط سلطة الرأسمال ، دون نقل سلطة الدولة الى طبقة أخرى ، إلى البروليتاريا .

أن الثورة الروسية فى شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩١٧ قد

سجلت بداية تحول الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية ، وقد خطت هذه الثورة الخطوة الأولى نحو وقف الحرب، أن الخطوة الثانية وحدها ـ أى إنتقال سلطة الدولة إلى البروليتاريا ـ هى التى تستطيع أن تؤمن وقف الحرب. إذ ذاك يبدأ فى العالم بأسره «تصديع الجبهة» ، جبهة مصالح الرأسمال، ولن تستطيع البروليتاريا أن تنقذ الإنسانية من ويلات الحرب وتوفر لها خيرات السلام الدائم، إلا بتصديع هذه الجبهة .

أن الثورة الروسية، بانشاء سوفييتات نواب العمال، قد قادت بروليتاريا روسيا الى مقربة قريبة من «تصديع جبهة» الرأسمال هذا .

نموذج الدولة الجديد الذى ينشأ فى ثورتنا :

١١ ـ أن سوفييات نواب العمال والجنود والفلاحين وغيرهم لا تزال غير مفهومه، لا بمعنى أن معظم الناس لا يكونون فكرة واضحة عن أهمية السوفييتات الطبقية ودورها فى الثورة الروسية ، وحسب ، بل إنها لا تزال غير مفهومة أيضاً بوصفها شكلاً جديداً، أو الأصح نموذجاً جديداً للدولة.

أن النموذج الأكمل ، الأرقى للدولة البورجوازية ، إنما هو الجمهورية الديموقراطية البرلمانية : فالسلطة فيها تعود للبرلمان، والة الدولة والجهاز الإدارى هما ما كانا عليه عادة : الجيش الدائم ، والبوليس والبيروقراطية التى لا يمكن عزلها عملياً ، المميزة ، الموضوعة فوق الشعب .

ولكن العهود الثورية تعرض منذ أواخر القرن التاسع عشر نموذجاً أعلى للدولة الديموقراطية، دولة تكف من بعض النواحى، كما قال إنجلس عن أن تكون دولة «لم تبق دولة بمعنى الكلمة العادى» (٢٣)، وتلك هى الدولة من نموذج كومونة باريس؛ إنها تستعيض عن البوليس والجيش المنفصلين

عن الشعب، بتسليح الشعب نفسه مباشرة، هنا يكمن جوهر الكومونة التى شنعها الكتاب البورجوازيون وافتروا عليها، والتى نسب إليها خطأ فيما نسب، الرغبة فى «تطبيق» الاشتراكية فوراً .

ودولة من هذا النموذج بالضبط بدأت الثورة الروسية تنشئها فى ١٩٠٥ و١٩١٧ جمهورية سوفييتات نواب العمال والجنود والفلاحين وغيرهم، المتحدة فى جمعية تأسيسية لممثلى الشعب فى روسيا، أو سوفييت السوفييتات ... إلخ.

هذا ما يولد عندنا اليوم، فى الوقت الحاضر، بمبادرة الشعب العديد الملايين الذى يصنع الديموقراطية بصورة عفوية وعلى طريقته، ولا ينتظر السادة الأساتذة الكاديت حتى يدبجوا مشاريع قوانينهم لجمهورية برلمانية بورجوازية ، ولا ادعياء العلم ومرضى الرتابة فى صفوف «الإشتراكية - الديموقراطية» البورجوازية الصغيرة، أمثال السيد بليخانوف أو السيد كاوتسكى ، حتى يكفوا عن تزوير المذهب الماركسى بشأن الدولة .

أن الماركسية تمتاز عن الفوضوية فى كونها تعترف بضرورة الدولة وسلطة الدولة خلال المرحلة الثورية بوجه عام، وخلال مرحلة الإنتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية بوجه خاص .

وتمتاز الماركسية عن «الإشتراكية - الديموقراطية» البورجوازية الصغيرة، الإنتهازية التى يعتنقها السادة بليخانوف وكاوتسكى وشركاهما، فى كونها تعترف لهاتين المرحلتين، بضرورة دولة لا تكون جمهورية برلمانية بورجوازية عادية ، بل كما كانت كومونة باريس .

إن أهم السمات التى تميز هذا النموذج من الدولة عن النموذج القديم هى التالية :

أن العودة من الجمهورية البرلمانية البورجوازية إلى الملكية من أسهل الأمور (وقد أثبت التاريخ ذلك)، إذ أن كل جهاز الإضطهاد يظل سليماً : الجيش، البوليس، البيروقراطية. بينا الكومونة وسوفييتات نواب العمال والجنود والفلاحين ... إلخ ، تحطم هذا الجهاز وتقضى عليه .

أن الجمهورية البرلمانية البورجوازية تعرقل، تخنق حياة الجماهير السياسية المستقلة، واشتراكها المباشر فى التنظيم الديموقراطى لكل حياة الدولة، من القاعدة إلى القمة، أما سوفييتات نواب العمال والجنود ، فإنها تفعل العكس .

فإن هذه السوفييتات تستعيد نموذج الدولة الذى عملت كومونة باريس على وضعه ، والذى أسماه ماركس «الشكل السياسى الذى وجد آخر الأمر والذى يمكن أن يتحقق فيه تحرر الشغيلة الإقتصادى» (٢٤) .

يعترضون عادة قائلين أن الشعب الروسى لا يزال غير مهيأ من أجل «تطبيق» الكومونة، وتلك ذريعة الإقطاعيين الذين كانوا يزعمون أن الفلاحين لم يكونوا مهيئين من أجل الحرية. أن الكومونة، أى سوفييتات نواب العمال والفلاحين ، لا «تطبق» ، وليس فى نيتها أن «تطبق» ولا يجب عليها أن تطبق أى اصلاح قبل أن ينضج هذا الإصلاح نضوجاً تاماً، فى الواقع الاقتصادى وفى ضمير أغلبية الشعب الساحقة ، على السواء.

وبقدر ما يتفاقم الانهيار الاقتصادى وتشتد الأزمة الناجمة عن الحرب بقدر ما يصبح من الضرورى قيام شكل سياسى، كامل قدر الامكان ، يسهل شفاء الجراح الرهيبة التى تسببت بها الحرب للإنسانية، وبقدر ما تكون تجربة الشعب الروسى فى حقل التنظيم أقل ، بقدر ما ينبغى الشروع بمزيد من العزم فى تحقيق التنظيم على يد الشعب نفسه ، بدلاً من تركه

فى أيدى الساسة البورجوازيين والموظفين الذين يتمتعون «بمناصب رابحة».

وبقدر ما نسرع وننبذ الأوهام الملازمة للماركسية المزعومة، للماركسية التى شوهها السادة بليخانوف وكاوتسكى ومن لف لفهما ، وبقدر ما نبدى من الحمية فى مساعدة الشعب على أن يشكل منذ اليوم وفى كل مكان سوفييتات لنواب العمال والفلاحين تأخذ فى يدها كل الحياة.

وبقدر ما يؤجل السادة لفوف وإضرابه عقد الجمعية التأسيسية ، بقدر ما يسهل على الشعب أن يختار (عن طريق الجمعية التأسيسسة أو بدونها، إذا ارجأ لفوف عقدها زمناً طويلاً) جمهورية سوفييتات نواب العمال والفلاحين ، ولا مناص من الأخطاء فى بادئ الأمر ، حين يقوم الشعب بنفسه بهذا العمل التنظيمى الجديد.

ولكنه من الأفضل ارتكاب بعض الأخطاء والمضى قدماً من انتظار اساتذة الحقوق الذين جمعهم السيد لفوف حتى يدبجوا القوانين بشأن دعوة الجمعية التأسيسية إلى الانعقاد وادامة الجمهورية البرلمانية البورجوازية وخنق سوفييتات نواب العمال والفلاحين .

فإذا نظمنا أنفسنا، وإذا عرفنا كيف نقوم بدعاوتنا بذكاء وقطنة ، فلن يقف البروليتاريون وحدهم ، بل تسعة أعشار الفلاحين أيضاً ، ضد إعادة البوليس، ضد البيروقراطية المميزة التى لا يمكن عزلها، ضد الجيش المفصول عن الشعب ، والحال ، فى هذا الأمر وحده يتقوم نموذج الدولة الجديد .

١٢ ـ أن الإستعاضة عن البوليس بميليشيا شعبية إنما هو إصلاح نبع من كل مجرى الثورة ، وهو قيد التحقيق الآن فى معظم مناطق روسيا، ومن واجبنا أن نوضح للجماهير أن هذا الاصلاح قد زال بسرعة فى معظم

الثورات البورجوازية من النموذج العادى، وأن البورجوازية حتى أوفرها نزعة ديموقراطية وجمهورية، قد أعادت دائماً بوليس النموذج القيصرى القديم ، المفصول عن الشعب، الخاضع لأمرة البورجوازيين، القادر على اضطهاد الشعب بكل الطرق والأشكال .

وليس هناك سوى وسيلة واحدة للحيلولة دون إعادة البوليس ، هى إنشاء ميليشيا شعبية تندمج مع الجيش (تسليح الشعب تسليحاً عاماً بدلاً من الجيش الدائم) وتتألف هذه الميليشيا من جميع المواطنين والمواطنات بلا إستثناء ممن تتراوح أعمارهم بين الـ ١٥ والـ ٦٥ ، إذا جاز تحديد إشتراك الأحداث والشيوخ بين هذين الحدين التقريبيين من العمر، وعلى الرأسماليين أن يدفعوا للعمال الإجراء والخدم ... إلخ

أجور الأيام التى يخصصونها للخدمة الاجتماعية فى الميليشيا، وطالما لم تدع النساء إلى الإشتراك بحرية فى الحياة السياسية بوجه عام ، وكذلك إلى القيام بخدمة اجتماعية دائمة وشاملة .

فلن يكون بالامكان قيام الاشتراكية ، ولا حتى قيام ديموقراطية كاملة ودائمة أن وظائف «البوليس» ، كاسعاف المرضى والأطفال المشردين ، ومراقبة التغذية ... إلخ ، لا يمكن إطلاقاً أن تتأمن بصورة مرضية طالما لم تحصل النساء على المساواة الفعلية ، لا الاسمية .

الحيلولة دون إعادة البوليس ، واجتذب الكفاءات التنظيمية لدى الشعب كله لإنشاء ميليشيا يقوم بالخدمة فيها عموم السكان ، تانك هما المهمتان اللتان يتعين على البروليتاريا أن تحملهما إلى الجماهير من أجل صيانة الثورة وترسيخها وتطويرها .

البرنامج الزراعى والبرنامج الوطنى :

١٣ ـ أننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نعرف بدقة ما إذا كانت ستقوم عن قريب ثورة جبارة فى الأرياف الروسية ، ولا نستطيع أن نعرف ما هو عمق التفاوت الطبقى الذى يجرى فى صفوف الفلاحين ـ والذى إشتد، بكل تأكيد، فى الآونة الأخيرة ـ ، والذى يقسمهم إلى أجراء زراعيين، موسميين أو دائمين ، وإلى فلاحين فقراء «أنصاف بروليتاريين»، من جهة، وإلى فلاحين ميسورين ومتوسطين (رأسماليين وصغار رأسماليين)، من جهة أخرى، فالتجربة وحدها تستطيع أن تحل هذه المسائل وستحلها .

ولكن واجبنا المطلق ، بوصفنا حزب البروليتاريا لا يقضى علينا بأن نعرض منذ اليوم برنامجاً زراعياً وحسب ، بل يقضى علينا أيضاً بأن ندعو إلى إتخاذ تدابير عملية يمكن تحقيقها فوراً فى مصلحة الثورة الزراعية الفلاحية فى روسيا .

ينبغى لنا أن نطالب بتأميم[1] جميع الأراضى فى البلاد، أى تحويلها بكاملها إلى ملكية السلطة المركزية ، وعلى السلطة المركزية أن تحدد مقدار الأراضى المخصصة للتوطين وغير ذلك من النواحى بهذا الصدد، وأن تسن القوانين لحماية الغابات ولتحسين الأراضى ... إلخ . وعليها أن تمنع منعا باتا كل توسط بين مالك الأرض ، أى الدولة وبين مستأجر الأرض، أى المزارع (منع كل تأجير ثانوى)، ولكن السوفييتات المنطقية والمحلية لنواب الفلاحين ـ لا البيروقراطية ، لا الموظفين ـ هى التى ستتصرف بالأرض تمام التصرف وعلى وجه الحصر، وهى التى ستحدد الشروط المحلية لوضع اليد على الأرض والتمتع بها .

(١) هذا التأمين أدى إلى نقص الانتاج الزراعى فى الاتحاد السوفيتى لأنه أهدر الحافز الفردى.

ولأجل تحسين تكنيك إنتاج الحبوب وزيادة إنتاج الحبوب ، ولأجل تطوير الاستثمار الكبير السديد وتأمين الرقابة العامة عليه، ينبغى لنا أن نسعى، فى قلب لجان الفلاحين ، لكى نجعل من كل ملكية كبيرة مصادرة من ملكيات الملاكين العقاريين استثمارة كبيرة نموذجية ، خاضعة لرقابة سوفييتات نوابُ الأجراء الزراعيين .

وخلافاً للتعابير والسياسة البورجوازية الصغيرة السائدة عند الاشتراكيين - الثوريين ولا سيما فى ثرثراتهم حول معدل «الاستهلاك» أو «العمل»[1] وحول «جعل ملكية الأرض اجتماعية» ... إلخ ؛ ينبغى على حزب البروليتاريا أن يوضح أن الاستثمارة الصغيرة فى ظل نظام الإنتاج البضاعى، لا تستطيع تحرير الإنسانية مما تعانيه الجماهير من بؤس وظلم.

وبدون شق سوفييتات نواب الفلاحين بصورة فورية والزامية، ينبغى على حزب البروليتاريا أن يوضح ضرورة سوفييتات خاصة لنواب الأجراء الزراعيين وسوفييتات خاصة لنواب الفلاحين الفقراء (أنصاف البروليتاريين)

أو على الأقل ضرورة اجتماعات دائمة خاصة للنواب الذين ينتمون إلى هاتين الطبقتين، اجتماعات يصار إلى تنظيمها بشكل كتل أو فرق متمايزة فى قلب سوفييتات نواب الفلاحين المشتركة وألا كان من شأن تعابير الشعبيين المعسولة البورجوازية الصغيرة حول الفلاحين بوجه عام أن تلقى ستارا على خداع جماهير الفقراء من جانب الفلاحين الميسورين، الذين هم نوع من الرأسماليين لا أكثر .

(١) المقصود بذلك توزيع الأراضى على الفلاحين، أما حسب معدل الاستهلاك أى حسب عدد الأفواه فى كل عائلة ، وأما حسب معدل العمل أى حسب عدد القادرين على العمل كل عائلة.

وخلافاً للوعظ الليبيرالى البورجوازى أو البيروقراطى الصرف الذى يلجأ اليه العديد من الاشتراكيين ـ الثوريين ومن سوفييتات نواب العمال والجنود الذين يوصون الفلاحين بعدم الاستيلاء على أراضى الملاكين العقاريين وبعدم الشروع بالاصلاح الزراعى قبل إنعقاد الجمعية التأسيسية، ينبغى على حزب البروليتاريا أن يدعو الفلاحين إلى تحقيق الإصلاح الزراعى فوراً ومن تلقاء أنفسهم ، وإلى القيام فوراً ، بناء على قرار نواب الفلاحين المحليين ، بمصادرة الأراضى التى يملكها الملاكون العقاريون .

وفى الوقت نفسه، من المهم بوجه خاص الإلحاح على ضرورة زيادة انتاج المواد الغذائية لجنود الجبهة وللمدن، والإشارة إلى أنه لا يجوز اطلاقاً الحاق أى أذى ، أو تلف بالمواشى والأدوات ، والآلات ، والأبنية ... إلخ .

١٤ ـ وفى المسألة الوطنية، ينبغى على حزب البروليتاريا أن يناضل قبل كل شئ من أجل منح جميع الأمم والقوميات التى اضطهدتها القيصرية والتى ربطت أو ابقيت بالقوة فى نطاق الدولة الروسية، أى الحقت، الحرية المطلقة بالانفصال عن روسيا ، ومن أجل تطبيق هذه الحرية فوراً .

أن جميع البيانات والإعلانات والتصاريح حول التخلى عن الإلحاقات ليست سوى أكاذيب بورجوازية القصد منها خداع الشعب ، أو إنما هى تمنيات ساذجة بورجوازية صغيرة ، إذا لم يرافقها فى الواقع تطبيق حرية الانفصال .

أن حزب البروليتاريا يطمح إلى إنشاء دولة واسعة قدر الإمكان، لأن تلك مصلحة الشغيلة ، وهو يطمح إلى تقريب الأمم ، وإلى دمجها فيما بعد، ولكنه لا يريد بلوغ هذا الهدف عن طريق العنف ، بل فقط عن طريق إتحاد جماهير العمال والشغيلة من جميع الأمم إتحادا حراً أخوياً .

وكلما ازدادت الجمهورية الروسية ديموقراطية، وانتظمت أحسن فأحسن فى جمهورية لسوفييتات نواب العمال والفلاحين، تعاظمت قوة الجاذبية التى ستدفع نحوها بكل حرية، الجماهير الكادحة من جميع الأمم.

حرية الانفصال التامة، الاستقلال الذاتى المحلى (والقومى) الأوسع الضمانات لحقوق الأقليات القومية مع تعيين هذه الضمانات بدقة ذلك هو برنامج البروليتاريا الثورية .

تأميم المصارف والسنديكات الرأسمالية :

١٥ ـ أن حزب البروليتاريا لا يمكنه فى حال من الأحوال أن يضع نصب عينيه «تطبيق» الاشتراكية فى بلد من صغار الفلاحين ، طالما لم تدرك أغلبية السكان الساحقة ضرورة الثورة الاشتراكية .

ولكن السفسطائيين البورجوازيين الذين يحتمون وراء تعابير «شبه ماركسية» هم وحدهم الذين يستطيعون أن يستخلصوا من هذه الحقيقة تبرير سياسة تؤجل الاجراءات الثورية العاجلة، التى نضجت كلياً فى الواقع العملى، والتى غالباً ما حققتها جملة من الدول البورجوازية خلال الحرب، والتى لا غنى عنها اطلاقاً لمحاربة الإضطراب الإقتصادى الكلى والجوع الوشيكين .

أن اجراءات مثل تأميم الأرض وجميع المصارف وجميع السنديكات الرأسمالية أو على الأقل، مثل إخضاع هذه المؤسسات فوراً لمراقبة سوفييتات نواب العمال وغيرهم، أن مثل هذه الاجراءات، التى لا تعنى «تطبيق» الاشتراكية فى أى حال من الأحوال، إنما ينبغى الدفاع عنها اطلاقاً وتحقيقها قدر الامكان، بالسبيل الثورى. وبدون هذه الاجراءات، التى

يمكن تحقيقها تماماً من الناحية الاقتصادى والتى لا تمثل سوى خطوات فى طريق الاشتراكية ، يستحيل شفاء الجراح التى تسببت بها الحزب واجتناب الكارثة الوشيكة، أما التراجع عن المساس بالأرباح الفاحشة التى يجتنبها الرأسماليون وأصحاب المصارف الذين يثرون بصورة فاضحة صارخة «بفضل الحرب» على وجه الدقة ، فإن حزب البروليتاريا الثورية لن يقوم به أبداً .

الحالة فى الأممية الاشتراكية :

١٦ ـ أن الواجبات الأممية المترتبة على الطبقة العاملة فى روسيا ، ولا سيما اليوم ، تبرز بقوة إلى المرتبة الأولى .

ففى عصرنا هذا، الكسالى وحدهم لا يحلفون بالأممية حتى أن الشوفيسنيين ـ أنصار الدفاع، حتى السيدين بليخانوف وبوتريسوف ، حتى كيرنسكى، يقولون عن أنفسهم أنهم أمميون، ولذا يزداد الحاحاً واجب حزب البروليتاريا أن يعارض الأممية قولاً بالأممية فعلاً، معارضة كاملة الدقة والوضوح والجلاء .

نداءات فارغة إلى عمال جميع البلدات ؛ تأكيدات باطلة بالتعلق بالأممية ، محاولات مباشرة وغير مباشرة لإقرار «تناوب» لنشاط البروليتاريا الثورية فى مختلف البلدان المتحاربة؛ سعى حثيث وراء «تفاهم» بين إشتراكى البلدان المتحاربة بصدد النضال الثورى ؛ طبخ مؤتمرات إشتراكية بغية القيام بحملة من أجل السلام ... إلخ .

كل هذا من حيث قيمته الموضوعية، أياً كان اخلاص القائمين بهذه الأفكار والمحاولات أو المشاريع ، كل هذا ليس سوى ثرثرة باطلة ، أو فى أفضل الحالات، مجرد تمنيات بريئة، حسنة النية، صالحة فقط لستر تضليل

الجماهير من قبل الشوفينيين. أن الاشتراكيين ـ الشوفينيين الفرنسيين، الذين هم أوفر مهارة وتجربة من الآخرين فى الأحابيل البرلمانية، قد ضربوا منذ زمن بعيد الرقم القياسى فى فن القاء الخطب المسالمة والأممية التى تبلغ منتهى التفخيم والطنين ، بينا هم فى الوقت نفسه يخونون الاشتراكية والأممية بوقاحة لا سابق لها، ويشتركون فى الوزارات التى تخوض الحرب الاستعمارية، ويصوتون على الاعتمادات أو على القروض (كما فعل تشيخييدزه، وسكوبيليف، وتسيريتيلى، وستيكلوف فى روسيا منذ أمد قريب)، ويعارضون النضال الثورى فى بلادهم بالذات ... إلخ .

أن الناس الطيبين ينسون فى غالب الأحيان جو القساوة والوحشية الناجم عن الحرب الاستعمارية العالمية ، وهذا الجو لا يتحمل الجمل الطنانة الجوفاء ، ويسخر من التمنيات البريئة والمعسولة .

وليس هناك سوى أممية فعلية واحدة وحيدة ، هى العمل بتفان على تطوير الحركة الثورية والنضال الثورى يخوضه المرء فى بلاده بالذات ، ودعم هذا النضال نفسه (بالدعاوة ، والتحبيذ ، والعون المادى) ، هذه الخطة نفسها ، ووحدها فقط ، فى جميع البلدان بلا استثناء .

أما الباقى فليس سوى كذب وما نيلوفية (٢٥) .

ولقد ارتسمت ثلاثة ميول فى الحركة العمالية والإشتراكية العالمية فى جميع البلدان ، منذ أن مضى على الحرب سنتان ونيف ، وكل من يبتعد عن ميدان الواقع ويرفض الاعتراف بهذه الميول الثلاثة ، وتحليلها ، والنضال بدأب وانسجام فى سبيل الميل الأممى فعلاً ، إنما يحكم على نفسه بالخمود والعجز والخطأ .

وهذه الميول الثلاثة هى التالية :

(١) الاشتراكيون ـ الشوفينيون ، أى الاشتراكيون والشوفينيون فعلاً، الذين يقرون «بالدفاع عن الوطن» فى الحرب الاستعمارية (وقبل كل شئ فى الحرب الاستعمارية الحالية) .

هؤلاء هم خصومنا الطبقيون ، وقد انتقلوا إلى جانب البورجوازية .

هكذا هم معظم الزعماء الرسميين للإشتراكية ـ الديموقراطية الرسمية فى جميع البلدان . السادة بليخانوف ومن لف لفة فى روسيا ،

شدمان واضرابه فى المانيا ، رينوديل وغيد وسمبا فى فرنسا ، بيسولاتى وشركاه فى إيطاليا ، هايندمان والفابيون (٢٦) و «العماليون» زعماء «حزب العمال» (٢٧) فى انجلترا، برانتينغ وزمرته فى اسوج، ترونسترا وحزبه فى هولندا ؛ ستاونينغ وحزبه فى الدانمارك ؛ فكتور برغر وغيره من «المدافعين عن الوطن» فى اميركا الخ ..

(٢) أما الميل الثانى، فهو ما يسمى «الوسط» أى الناس الذين يترددون بين الاشتراكيين ـ الشوفينيين والأمميين فعلاً .

أن أنصار «الوسط» كلهم يقسمون الإيمان المغلظة بأنهم ماركسيون امميون، بأنهم يؤيدون السلام، وجميع أنواع «الضغط» على الحكومات و «المطالب» الرامية إلى إجبار حكوماتهم على «الإفصاح عن إرادة الشعب فى السلام» ، وجميع الحملات الممكنة من أجل السلام ، من أجل السلام بدون الحاقات ... إلخ .

ومن أجل السلام مع الاشتراكيين ـ الشوفينيين. «الوسط» يؤيد «الوحدة» ، الوسط يعارض الانشقاق .

أن «الوسط» ، إنما هو مملكة التعابير البورجوازية الصغيرة المفرطة فى الطيبة، مملكة الأممية قولاً، مملكة الانتهازية الوجلة والتملق للاشتراكيين ـ الشوفينيين فعلاً .

أما جوهر المسألة، فقوامه أن أنصار «الوسط» ليسوا مقتنعين بضرورة قيام ثورة ضد حكوماتهم بالذات؛ وهم لا ينادون بها؛ ولا يخوضون نضالاً ثورياً حازماً، بل يخترعون، للتهرب منه، أحط الذرائع، رغم دويها «الماركسى» الذى لا «ماركسية» بعده .

أن الاشتراكيين ـ الشوفينيين هم خصماؤنا الطبقيون، أنهم بورجوازيون يقيمون فى صفوف الحركة العمالية، ويمثلون فئات ، جماعات، أوساطاً من العمال اشترتهم البورجوازية موضوعياً (أجور أفضل، مناصب شرفية ... إلخ)، ويساعدون بورجوازيتهم على نهب وخنق الشعوب الصغيرة والضعيفة ، وفى الصراع من أجل تقاسم الغنيمة الرأسمالية .

أما «الوسط» فهم أناس نمطيون، رتيبيون، قرضتهم علنية مهترئة، وأفسدهم جو البرلمانية ... إلخ، موظفون اعتادوا المناصب الدافئة والعمل «المريح». وهم، تاريخياً واقتصادياً، لا يمثلون فئة خاصة،

بل يمثلون فقط الإنتقال بين مرحلة ولت من مراحل الحركة العاملة ، هى مرحلة ١٨٧١ ـ ١٩١٤، المثمرة فى كثير من النواحى ولا سيما فى الفن الضرورى للبروليتاريا، فن العمل التنظيمى البطئ، الدائب، المنهجى، على نطاق كبير وكبير جداً، ـ والمرحلة الجديدة التى غدت موضوعياً ضرورية منذ الحرب الاستعمارية العالمية الأولى التى دشنت عهد الثورة الاجتماعية .

أن الزعيم والممثل الرئيسى «للوسط» هو كارل كاوتسكى : فقد كان

يتمتع فى الأممية الثانية (١٨٨٩ ـ ١٩١٤) باقوى النفوذ. وهو ، منذ آب (أغسطس) ١٩١٤ ، نموذج إفلاس الماركسية التام ، والميوعة التى لا سابق لها ، والترددات والخيانات الحقيرة فى منتهى الحقارة.

أن ميل «الوسط» إنما هو كاوتسكى، وهآزه، وليديبور، ما يسمى «عصبة العمال» أو «عصبة العمل» (٢٨) فى الرايخستاغ؛ لونغيه وبريسمان و «الأقليون» (٢٩) (المناشفة) بوجه عام ، فى فرنسا ؛ فيليب سنودن ، ورمسى ماكدونالد وعدد آخر من زعماء «حزب العمال المستقل» (٣٠) وجزئياً من زعماء الحزب الإشتراكى البريطانى (٣١) ، فى بريطانيا ؛ موريس هيلكويت وكثيرون آخرون فى أميركا ؛ توراتى ورتريفيس وموديليانى ... إلخ. ، فى ايطاليا ؛ روبرت غريمّ ... إلخ. ، فى سويسرا ؛ فكتور ادلر وشركاه فى النمسا، حزب اللجنة التنظيمية، واكسلرود، ومارتوف، وتشيخييدزه ، وتسيريتيلى والآخرون ، فى روسيا ... إلخ ..

ومفهوم أن بعض الأفراد ينتقلون أحياناً ، دون ادراك منهم لما يفعلون من موقف الاشتراكية ـ الشوفينية إلى موقف «الوسط» والعكس بالعكس . فكل ماركسى يعرف أن الطبقات تظل متمايزة ، رغم إنتقال الأفراد بسهولة من طبقة إلى أخرى . كذلك فإن الميول فى الحياة السياسية تتمايز فيما بينها، رغم إنتقال الأفراد بسهولة من ميل إلى آخر، رغم المحاولات والجهود التى تبذل من أجل دمج هذه الميول .

(٣) الميل الثالث هو ميل الأمميين فعلاً ، الذين يمثلهم على أقرب وجه «الجناح اليسارى الزيميزفالدى» (٣٢) (ونحن ننشر فى الملحق بيانه الصادر فى أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩١٥ لكى يتمكن القارئ من الاطلاع، فى وثيقة حقيقية، على ولادة هذا الميل) .

الطابع المميز الأساسى : القطيعة التامة مع الاشتراكية ـ الشوفينية ومع «الوسط» على السواء النضال الثورى بلا هوادة ضد حكومته الاستعمارية وبورجوازيته الاستعمارية . المبدأ : «العدو الرئيسى موجود فى بلادنا» . الحرب بلا رحمة ضد تعابير الإشتراكيين ـ المسالمين المعسولة (الاشتراكى ـ المسالم اشتراكى قولاً ، مسالم بورجوازى فعلاً ، والمسالمون البورجوازيون يحلمون بسلام أبدى-دون دك نير الرأسمال وسيطرته) وضد شتى الذرائع الرامية إلى انكار امكانية أو مناسبة أو ملاءمة نضال البروليتاريا الثورى والثورة البروليتارية الاشتراكية ، بالارتباط مع الحرب الحالية .

وأبرز ممثلى هذا الميل هم : فى ألمانيا ، «كتلة سبارتاكوس» أو «كتلة الأممية» (٣٣) التى ينتسب إليها كارل ليبكنخت. أن كارل ليبكنخت هو أشهر ممثلى هذا الميل والأممية البروليتارية الجديدة ، الحقيقية .

فقد دعا كارل ليبكنخت العمال والجنود الألمان إلى توجيه أسلحتهم ضد حكومتهم، وقد فعل ذلك جهاراً ، من على منبر البرلمان (الرايخستاغ). ثم توجه ، مزوداً بنداءات طبعت سراً ، إلى تظاهرة فى ساحة بوتسدام ، وهى من أوسع ساحات برلين ، هاتفاً بالشعار التالى : «لتسقط الحكومة». فاعتقل وحُكم عليه بالأشغال الشاقة . وهو الآن مسجون فى سجن للأشغال الشاقة فى ألمانيا مثله مثل المئات، أن لم يكن الآلاف من اشتراكى ألمانيا الحقيقيين المسجونين لنضالهم ضد الحرب .

لقد خاض كارل ليبكنخت نضالاً عنيداً فى خطبه ورسائله ، لا ضد أمثال بليخانوف وبوتريسوف فى بلاده (شيدمان ، وليغن ودافيد وشركاهم) وحسب ، بل أيضاً ضد جماعة الوسط فى بلاده ، ضد أمثال تشيخييدزه وتسيريتلى فى بلاده (كاوتسكى وهآزه وليديبور وشركاهم) .

ولقد شق كارل ليبكنخت وصديقه أوتوروله عصا الطاعة وحدهما من أصل مائة وعشرة نواب، وحطما «الوحدة» مع «الوسط» والشوفينيين، وسارا ضد الجميع. أن ليبكنخت وحده يمثل الاشتراكية، والقضية البروليتارية، والثورة البروليتارية، أما كل ما تبقى من الاشتراكية - الديموقراطية الألمانية، فليس على حد تعبير روزا لوكسمبورغ الصائب (وهى أيضاً عضوة فى «كتلة سبارتاكوس» واحد زعمائها) ، سوى جيفة نتنة .

وهناك كتلة أخرى فى ألمانيا من الأمميين فعلاً ، هى كتلة جريدة «سياسة العمال» التى تصدر فى بريمن .

أما فى فرنسا ، فإن لوريو وأصدقاءه (لقد انحط بورديرون ومرهايم إلى درك الاشتراكية ـ المسالمة) هم أقرب من غيرهم إلى الأمميين فعلاً ، وكذلك الفرنسى هنوى غيلبو الذى يصدر مجلة «الغد» فى جينيف ، وفى إنجلترا جريدة «التريديونيونيست» وبعض أعضاء الحزب الاشتراكى البريطانى وحزب العمال المستقل (وليام روسل، مثلاً، الذى دعا علناً إلى قطع كل صلة مع الزعماء الخونة للاشتراكية) والاشتراكى الأسكتلندى ماك لين، وهو معلم شعبى حكمت عليه الحكومة البورجوازية الإنجليزية بالأشغال الشاقة لنضاله الثورى ضد الحرب .

وهناك مئات من الاشتراكيين الإنجليز فى السجن بسبب من هذه الجرائم نفسها، وهم وحدهم امميون فعلاً، وفى أميركا، «حزب العمال الاشتراكى» (٣٤) ونفر من أعضاء «الحزب الاشتراكى» (٣٥) الانتهازى، ممن يصدرون منذ كانون الثانى (يناير) ١٩١٧ جريدة «الأممى» ؛ فى هولندا، حزب «المنبريين» (٣٦) الذى يصدر جريدة «المنبر» (بانيكوك،

وهرمن غورتر، وفينكوب ، وهنرييت رولاند ـ هولست التى مثلت الوسط فى زيميرفالد والتى انحازت إلى جانبنا الآن)؛ فى أسوج ، حزب الشباب أو حزب اليساريين (٣٧) وعلى رأسه زعماء أمثال ليندهاغن ، وتوره نرمان ، وكارلسون، وشتروم ، وهوغلوند ، الذى اشترك شخصياً ، فى زيميرفالدى ، فى تأسيس «الجناح اليسارى الزيميرفالدى»

وقد حكم عليه الآن بالسجن لنضاله الثورى ضد الحزب ؛ فى الدانمارك، ترير واصدقاؤه، الذين تركوا الحزب «الإشتراكى ـ الديموقراطى» الدانماركى وقد غدا بورجوازياً كلياً، وعلى رأسه الوزير ستاونينغ؛ فى بلغاريا، «التسنياكى» (٣٨)؛ فى إيطاليا الأقربان هما أمين سر الحزب قسطنطين لازارى، وسيراتى، رئيس تحرير الجريدة المركزية «إلى الأمام» (٣٩) فى بولونيا، راديك وهانيتسكى والزعماء الآخرون فى الاشتراكية ـ الديموقراطية الملتفة حول «الادارة الوطنية»؛ روزا لوكسمبورغ وتيشكو والزعماء الآخرون فى الإشتراكية الديموقراطية الملتفة حول «الادارة العامة» فى سويسرا .

أولئك اليساريون الذين صاغوا اعتبارات «الاستفتاء» (كانون الثانى ـ يناير ـ ١٩١٧) من أجل النضال ضد الاشتراكيين ـ الشوفينيين و«الوسط» فى بلادهم وتقدموا من المؤتمر الاشتراكى لناحية زوريخ، المنعقد فى ١١ شباط (فبراير) ١٩١٧ فى توس، بمشروع قرار مستوحى من المبادئ الثورية وموجه ضد الحرب (٤٠)؛ فى النمسا، أصدقاء فريدريك آدلر الشباب اليساريين الذين ناضل عدد منهم فى نادى «كارل ماركس» فى فيينا، وهو مغلق اليوم بامر من الحكومة النمساوية المغرقة فى الرجعية والتى تعذب فريدريك أدلر لطلقة الرصاص البطولية التى أطلقها من مسدسه، وأن عن خفة، على أحد الوزراء ... إلخ .

وقلما تهم التلاوين الموجودة أيضاً بين اليساريين ، فالأمر الجوهرى يقوم فى الميل العام ، والحقيقة هى أنه ليس من السهل على المرء أن يكون أممياً فعلاً فى مرحلة تعصف فيها الحرب الاستعمارية الرهيبة . أن هؤلاء الناس قليلون ولكن كل مستقبل الاشتراكية يكمن فيهم وحدهم، وهم وحدهم قادة الجماهير ، لا مفسدُوها .

أن الفرق بين الاصلاحيين والثوريين فى صفوف الاشتراكيين - الديموقراطيين فى صفوف الاشتراكيين بوجه عام ، كان لا بدّ له بالضرورة الموضوعية أن يتعدل فى ظروف الحرب الإستعمارية ، وكل من يكتفى بتقديم «المطالب» إلى الحكومات البورجوازية لكى تعقد الصلح أو «تفصح عن ارادة الشعوب فى السلام» ... إلخ .

ينزلق فعلاً نحو الاصلاحات ، لأن قضية الحرب لا توضع موضوعياً إلا على الصعيد الثورى .

ولا يمكن الخلاص من الحرب من أجل إقرار صلح ديموقراطى غير جائر، وتحرير الشعوب من عبودية مليارات الفوائد التى يجنيها السادة الرأسماليون الذين أثروا «بفضل الحرب» لا يمكن الخلاص إلا بثورة البروليتاريا .

يمكن ويجب مطالبة الحكومات البورجوازية باجراء شتى الاصلاحات ولكنه لا يمكن، تحت طائلة الانزلاق إلى درك المانيلوفية والاصلاحية ، مطالبة هؤلاء الناس وهذه الطبقات الذين تشدهم الوف الروابط إلى الرأسمال الاستعمارى، بأن يقطعوا هذه الروابط والحال، دون هذه القطيعة، تظل جميع الأحاديث عن الحرب على الحرب مجرد جمل فارغة ومضللة .

أن «الكاوتسكيين»، «الوسط» ثوريون قولاً ، إصلاحيون فعلاً ؛ امميون

قولاً ، أعوان للاشتراكية ـ الشوفينية فعلاً .

افلاس اممية زيمير فالد . ينبغي تأسيس الأممية الثالثة :

١٧ ـ أن اممية زيميرفالد قد وقفت منذ البدء موقفاً متردداً، «كاوتسكياً» «وسطياً» ، وهذا ما أجبر «الجناح اليسارى الزيميرفالدى» إلى فسخ التضامن معها والإنفصال عنها وإصدار بيان باسمه الخاص (طبع فى سويسرا باللغات الروسية والألمانية والفرنسية) .

أن عيب أممية زيميرفالد الرئيسى ، وسبب افلاسها (لأنها قد أفلست حقاً فى الميدان الفكرى والسياسى)،

إنما هما ترددداتها، وتذبذبها فى المسألة الجوهرية التى تقرر عملياً جميع المسائل الأخرى، مسألة القطيعة التامة مع الإشتراكية ـ الشوفينية والأممية الإشتراكية الشوفينية القديمة ، التى يقودها فاندرفلده وهويسمانس فى لاهاى (هولندا) ... إلخ

أن الناس عندنا لا يعرفون حتى الآن أن الأغلبية الزيميزفالدية تتألف من الكاوتسكيين بالضبط . مع أن هذا أمر رئيسى ولا يمكن اغفاله ، ومع أن جميع الناس يعرفونه الآن فى أوروبا الغربية، حتى أن الشوفينى، الألمانى المتطرف هايلمان، مدير «جريدة خيمنيتس» الشوفينية المتطرفة والمحرر فى «الجرس» (١٤) الشوفينية المتطرفة لبارفوس (وبديهى أن هايلمان «إشتراكى ـ ديموقراطى» ونصير متحمس «لوحدة» الاشتراكية ـ الديموقراطية) ، ـ قد اضطر إلى الاعتراف فى الصحافة بأن الوسط أو «الكاوتسكية» والأغلبية الزيميرفالدية ليسا سوى شئ واحد .

وقد أثبتت أواخر ١٩١٦ ومطلع ١٩١٧ هذا الأمر بصورة نهائية ،

فبالرغم من شجب بيان كينتال (٤٢) للاشتراكية - المسالمة، انزلق كل الجناح اليمينى الزيميرفالدى، كل أغلبية زيميرفالدى ، نحو الاشتراكية - المسالمة : كاوتسكى وشركاه ، فى جملة من الخطب والمقالات والتصاريح فى كانون الثانى (يناير) وشباط (فبراير) ١٩١٧، بورديرون ومرهايم فى فرنسا ، بتصويتهما ، مجمعين مع الاشتراكيين - الشوفينيين، بالموافقة على القرارات السليمة للحزب الاشتراكى (كانون الأول - ديسمبر - ١٩١٦) و «إتحاد العمل العام» (أى منظمة النقابات فى عموم فرنسا ، فى كانون الأول - ديسمبر - ١٩١٦ أيضاً)؛ توراتى وشركاه فى ايطاليا،

حيث وقف الحزب كله موقفاً اشتراكياً مسالماً وحيث «إنزلق» توراتى نفسه (لا من قبيل الصدفة ، طبعاً) ، حتى أنه وردت فى خطابه ، فى ١٧ كانون الأول - ديسمبر - ١٩١٦، جمل قومية تزين وجه الحرب الاستعمارية.

وفى كانون الثانى (يناير) ١٩١٧، تكتل روبرت غريم، رئيس زيميرفالد وكينتال ، مع الاشتراكيين - الشوفينيين فى حزبه (غروليخ ، بفلوغر ، غوستاف موللر ... إلخ) ضد الأمميين فعلاً .

وخلال الاجتماعين اللذين عقدهما الزيميرفالديون من مختلف البلدان فى كانون الثانى (يناير) وشباط (فبراير) ١٩١٧ ، ندد الأمميون اليساريون من عدة بلدان، بصورة صريحة، بسلوك الأغلبية الزيميرفالدية المزدوج المبهم : مونزنبرغ، أمين منظمة الشباب العالمية ومدير الجريدة الأممية الممتازة «أممية الشباب» (٤٣) ؛ زينوفييف ، ممثل لجنة حزبنا المركزية ؛ راديك من الحزب الاشتراكى الديموقراطى البولونى «الادارة الوطنية»؛ هارتشتين، الاشتراكى - الديموقراطى الألمانى ، عضو «كتلة سبارتاكوس» .

لقد أعطيت البروليتاريا الروسية كثيراً؛ أن الطبقة العاملة لم تستطع

فى أى بلد من العالم أن تبذل من الطاقة الثورية قدر ما بذلته فى روسيا، ولكن من يعط الكثير ، يطلب منه الكثير .

من المستحيل التساهل بعد الآن إزاء المستنقع الزيميرفالدى . من المستحيل البقاء بعد الآن ، بسبب من «الكاوتسكين» الزيميرفالديين ، فى نصف صلة مع الأممية الشوفينية التابعة لاضراب بليخانوف وشيدمان . ينبغى حالاً قطع مع هذه الأممية ، ينبغى البقاء فى زيميرفالد من أجل الاطلاع فقط .

وعلينا نحن بالذات ، وفى الوقت الحاضر بالذات ، أن نؤسس بلا إبطاء أممية جديدة، ثورية، بروليتارية أو بالأحرى أن لا نخشى من المجاهرة والإعلان أنها قد تأسست ، وأنها تعمل .

أنها أممية هؤلاء «الأمميين فعلاً» الذين ذكرتهم أعلاه بكل دقة . فهم ، هم وحدهم ، ممثلو الجماهير الأممية الثورية ، لا مفسدو هذه الجماهير .

أن هؤلاء الإشتراكيين قليلون ، ولكن ليتساءل كل عامل روسى فيما إذا كان هناك عشية ثورة شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩١٧ ، عدد كبير من الثوريين الواعين فى روسيا .

ليس العدد هو الأمر المهم، بل التعبير الصحيح عن أفكار وسياسة البروليتاريا الثورية حقاً. الأمر الجوهرى لا يقوم فى «إعلان» النزعة الأممية، بل فى معرفتنا كيف نكون أمميين فعلاً حتى فى أصعب الأوقات .

فلا نعللن أنفسنا بالأوهام حول التفاهمات والمؤتمرات العالمية. فما دامت الحرب الاستعمارية قائمة ، فإن العلاقات الدولية ستظل مشدودة فى الكماشة الحديدية التى تشدها الديكتاتورية العسكرية للبورجوازية الإستعمارية، وإذا كان «الجمهورى» ميليوكوف، المجبر على التساهل بوجود

الحكومة الثانية ونعنى بها سوفييت نواب العمال .

لم يسمح للإشتراكى السويسرى فريتز بلاتن ، أمين الحزب الأممى ، الذى أشترك فى زيميرفالد وكينتال ، بدخول روسيا، فى نيسان (أبريل) ١٩١٧، رغم أنه متزوج بروسية وكان متوجهاً إلى أقارب زوجته، ورغم أنه إشترك، فى ريغا ، فى ثورة ١٩٠٥ ، وسجن لهذا السبب فى سجن روسى، ورغم أنه دفع للحكومة القيصرية، من أجل الإفراج عنه، كفالة مالية طالب بإعادتها له ، - إذا كان «الجمهورى» ميليوكوف قد استطاع أن يسلك هذا السلوك فى روسيا ، فى نيسان (أبريل) ١٩١٧ ، فإننا لنتصور قيمة الوعود والتأكيدات والجمل والبيانات التى تنشرها البورجوازية عن السلام بلا الحاقات ... إلخ

وإعتقال تروتسكى من قبل الحكومة الإنجليزية ؟ ومنع مارتوف من مغادرة سويسرا؟ والأمل فى اجتذابه إلى إنجلترا، حيث ينتظره مصير تروتسكى ؟

فلا نعللن أنفسنا بالأوهام ، ولا نخدعن أنفسنا .

أن «إنتظار» المؤتمرات العالمية أو الاجتماعات، إنما يعنى خيانة الأممية، إذ أنه أعطى الدليل على أنه لا يسمح حتى من ستوكهلم ، بأن يصل إلينا لا الاشتراكيون المخلصون للأممية، ولا حتى رسائلهم : وذلك بالرغم من كل امكانية الرقابة العسكرية وكل وحشيتها .

فعلى حزبنا أن لا «ينتظر» بل أن يؤسس الأممية الثالثة على الفور . وإذ ذاك، يتنفس الصعداء مئات الاشتراكيين المسجونين فى ألمانيا وإنجلترا؛ ويقرأ الآلاف والآلاف من العمل الألمان، الذين يهلع لإضراباتهم ومظاهراتهم هذا الخبيث وهذا اللص الذى اسمه غليوم ، يقرأون قرارنا فى المنشورات

السرية، ويعرفون أية ثقة أخوية نكنها لكارل ليبكنخت ، وله وحده ؛ ويعرفون عزمنا على النضال الآن أيضاً ضد «الدفاع الثورى» - يقرأون هذا فتقوى امميتهم الثورية .

من يعط الكثير، يطلب منه الكثير، وليس فى العالم بلد تسود فيه الحرية الآن كما فى روسيا. لنستفد من هذه الحرية، لا للدعوة إلى دعم البورجوازية أو نزعة «الدفاع الثورى» البورجوازية، بل لتأسيس الأممية الثالثة، عدوة لدوداً للخونة الاشتراكيين - الشوفينيين و «الوسطيين» المترددين على السواء ، لتأسيسها بجرأة ، واستقامة ، على الطريقة البروليتارية ، على طريقة ليبكنخت .

١٨ - بعد ما سبق قوله ، لم تبق حاجة الى الخطب الطويلة للبرهان على أن مسألة توحيد الاشتراكين - الديموقراطيين فى روسيا لا يمكن أن ترد .

فالأفضل أن نبقى اثنين ، مثل ليبكنخت ، - لأن هذا يعنى البقاء مع البروليتاريا الثورية - من أن نقبل ، وأن لحظة واحدة ، فكرة الإندماج مع حزب اللجنة التنظيمية، مع تشيخييدزه وتسيريتيلى، اللذين يتساهلان ويتكتلان مع بوتريسوف فى جريدة «رابوتشايا غازيتا» ويصوتان بالموافقة على القرض فى اللجنة التنفيذية لسوفييت نواب العمال (٤٤) وانزلقا فى نزعة «الدفاع» .

لندع الموتى يدفنون موتاهم .

ومن شاء مساعدة المترددين ، عليه أولاً أن يكف هو نفسه عن التردد.

أى إسم ينبغى إطلاقه على حزبنا ليكون صحيحا علميا ويسهم سياسيا فى إنارة وعى البروليتاريا ؟

١٩ ـ وأصل الآن إلى المسألة الأخيرة ، إلى تسمية حزبنا ، ينبغى أن نسمى أنفسنا الحزب الشيوعى ، كما فعل ماركس وانجلس

ينبغى أن نعلن من جديد أننا ماركسيون وأننا نستند إلى «البيان الشيوعى»، الذى شوهته وخانته الاشتراكية ـ الديموقراطية فى نقطتين رئيسيتين:

(١) ليس للعمال وطن : «الدفاع عن الوطن» فى الحرب الاستعمارية ، يعنى خيانة الإشتراكية .

(٢) الأممية الثانيه شوهت المذهب الماركسى حول الدولة .

أن اسم «الاشتراكية ـ الديموقراطية» غير صحيح علمياً ، كما أثبت ذلك ماركس مراراً عديدة ، فيما أثبته ، فى عام ١٨٧٥ ، فى «نقد برنامج غوتا» وكما كرره إنجلس ، عام ١٨٩٤ (٤٥) ، فى عرض أقرب إلى متناول الجماهير، أن الإنسانية لا تستطيع الإنتقال مباشرة من الرأسمالية إلا إلى الاشتراكية، أى إلى الامتلاك المشترك لوسائل الإنتاج والى توزيع المنتجات وفقاً لعمل كل فرد من الأفراد .

أما حزبنا ، فإنه ينظر إلى أبعد من ذلك : فلابد للإشتراكية من أن تتطور حتماً نحو الشيوعية التى كتب على رايتها : «من كل حسب كفاياته ولكل حسب حاجاته» .

تلك حجتى الأولى .

وإليكم حجة أخرى : أن القسم الثانى من اسم حزبنا (الإشتراكى - الديموقراطى) ليس صحيحاً علمياً أيضاً . فالديموقراطية هى أحد أشكال الدولة. والحال ، نحن الماركسيين ، خصوم كل دولة .

أن زعماء الأممية الثانية (١٨٨٩ - ١٩١٤) السادة بليخانوف وكاوتسكى وأضرابهما ، قد حطوا من قدر الماركسية وشوهوها .

أن الماركسية تمتاز عن الفوضوية فى كونها تقر بضرورة الدولة من أجل الإنتقال إلى الاشتراكية ، ولكنها (وهذا ما يميزها عن كاوتسكى وشركاه) لا تقر أبداً بضرورة دولة من نوع الجمهورية الديموقراطية البورجوازية البرلمانية العادية ، بل من نوع كومونة باريس عام ١٨٧١ ، أو من نوع سوفييتات نواب العمال فى ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

وحجتى الثالثة : لقد خلقت الحياة ، لقد خلقت الثورة عندنا ، بالفعل ، وأن بشكل ما يزال ضعيفاً ، جنينياً ، هذه «الدولة» الجديدة بالضبط ، التى ليست بدولة بمعنى الكلمة الحرفى .

وإنها الآن لمسألة موضوعة فى ميدان نشاط الجماهير ، وليست مجرد نظرية زعماء .

الدولة بمعنى الكلمة الحرفى، هى الأمرة التى تمارسها على الجماهير فصائل مسلحة من الناس ، منفصلة عن الشعب .

أن دولتنا الجديدة الناشئة هى أيضاً دولة ، إذ تنبغى لنا فصائل مسلحة من الناس ، ينبغى لنا النظام الأكثر تشدداً ، ينبغى لنا اللجؤ إلى العنف لكى نقمع بلا رحمة جميع المحاولات التى تبذلها الحركة المعادية للثورة سواء منها الحركة القيصرية، أم الحركة البورجوازية على طريقة غوتشكوف .

ولكن دولتنا الجديدة الناشئة لما تبق دولة بمعنى الكلمة الحرفى ، لأن هذه الفصائل المسلحة إنما هى ، فى العديد من أنحاء روسيا ، الجماهير ذاتها، الشعب بأسره ، لا فرد موضوع فوق الشعب ، منفصل عنه ، مميز، ولا يمكن فى الواقع لا اقالته ولا استبداله .

ينبغى ألا نتطلع إلى وراء، بلْ إلى أمام، ينبغى لنا ألا نرى إلى الديموقراطية من الطراز البورجوازى العادى التى كانت تثبت سيطرة البورجوازية بوساطة الأجهزة الإدارية القديمة الملكية، من بوليس وجيش وبيروقراطية .

ينبغى أن نرى إلى أمام ، إلى الديموقراطية الجديدة الناشئة ، التى لم تبق ديموقراطية ، لأن الديموقراطية إنما هى سيادة الشعب ؛ والحال أن الشعب المسلح لا يستطيع أن يمارس السيادة على نفسه .

أن تعبير «الديموقراطية» المطبق على الحزب الشيوعى غير صحيح من الناحية العلمية، وليس هذا وحسب، فهو اليوم، بعد مارس (آذار) ١٩١٧ غمامة على وجه الشعب الثورى تمنعه من بناء الجديد، بكل حرية، وجرأة ، وعفوية ، أى بناء سوفييتات نواب العمال والفلاحين وغيرهم ، بوصفها السلطة الوحيدة فى «الدولة» بوصفها المبشرة «بزوال» كل دولة «تدريجياً» .

حجتى الرابعة : ينبغى أن نأخذ بالحسبان الحالة الموضوعية للاشتراكية فى العالم بأسره .

أن هذه الحالة لم تبق كما كانت عليه فى ١٨٧١ ـ ١٨١٤ ، فى المرحلة التى رضخ فيها ماركس وانجلس عن علم ومعرفة للاصطلاح الإنتهازى الخاطئ : «اشتراكية ـ ديموقراطية» .

إذ أن التاريخ، فى تلك المرحلة ، بعد هزيمة كومونة باريس ، قد وضع فى جدول الأعمال العمل التنظيمى والتثقيفى البطئ، ولم يكن ثمة عمل آخر، لقد كان الفوضويون (وما يزالون) على خطأ تام ، من الناحية النظرية ، فى ميدان الاقتصاد والسياسة هذا وحسب . بل أنهم أعطوا حكماً خاطئاً على تلك المرحلة ، لأنهم لم يدركوا الحالة فى العالم بأسره : العامل الإنجليزى تفسده الأرباح الاستعمارية ، كومونة باريس مسحوقة ، الحركة الوطنية البورجوازية أحرزت لتوها النصر فى ألمانيا (١٨٧١)؛ وروسيا نصف الاقطاعية تغط فى نومها المزمن .

أما ماركس وانجلس ، فقد قدرا تلك المرحلة تقديراً صحيحاً ؛ لقد أدركا الحالة الدولية ، أدركا مهمات السير البطئ نحو الثورة الإجتماعية .

فلنعرف كيف ندرك ، بدورنا ، مهمات المرحلة الجديدة وخصائصها ولا نقلدن أبداً الماركسيين الأردياء الذين قال عنهم ماركس : «زرعت التنانين وحصدت البراغيث» (٤٦) .

أن الرأسمالية التى تحولت إلى استعمار قد ولدت الحرب الاستعمارية بصورة ضرورية موضوعية ، والحرب قادت الإنسانية بأسرها إلى شفير الهاوية، إلى دمار كل المدينة ، إلى الهمجية ، إلى موت ملايين جديدة من الناس، ملايين لا عدّ لها .

وليس ثمة أبداً من مخرج ، غير ثورة البروليتاريا .

وفى الفترة التى بدأت فيها هذه الثورة وخطت خطواتها الأولى الوئيدة الوجلة، غير المطمئنة، غير الواعية، الشديدة الثقة بالبورجوازية - فى مثل هذه الفترة، رأينا أغلبية (تلك هى الحقيقة، ذلك هو الواقع) الزعماء «الاشتراكيين - الديموقراطيين»، والبرلمانيين «الاشتراكيين - الديموقراطيين»،

والصحف «الاشتراكية ـ الديموقراطية» ـ وهى حقا أدوات التأثير فى الجماهير ـ قد تخلوا عن الإشتراكية ، وخانوا الاشتراكية ، وانتقلوا إلى جانب بورجوازية .

لقد أقلق هولاء الزعماء الجماهير ، وخدعوها ، وضللوها .

وهل نشجع هذا الخداع ونيسره باحتفاظنا بالتسمية القديمة البائدة العفنة بقدر ما هى عليه الأممية الثانية ؟

أن «العديدين» من العمال يفهمون الإشتراكية ـ الديموقراطية بمعناها الطيب ، الصالح . حسناً . ولكن حان الوقت لمعرفة التفريق بين الذاتى والموضوعى .

أن هؤلاء العمال الإشتراكيين ـ الديموقراطيين هم ، ذاتياً ، مرشدون أمناء كل الأمانة للجماهير البروليتارية .

ولكن الحالة الموضوعية فى العالم بلغت حداً غدت معه تسمية حزبنا القديمة تسهل خداع الجماهير، وتعيق تقدم الحركة؛ إذ فى كل خطوة ، فى كل جريدة، فى كل كتلة برلمانية، ترى الجماهير زعماء، أى أناساً لأقوالهم دوى أشد، ولأعمالهم أمد أبعد، وجميعهم «اشتراكيون ـ ديموقراطيون ـ هم ـ أيضاً»؛ وجميعهم «يؤيدون الوحدة» مع الاشتراكيين ـ الشوفينيين ، خونة الإشتراكية ؛ وجميعهم يقدمون، بقصد القبض ، حوالات وقعتها «الاشتراكية ـ الديموقراطية» فيما مضى ...

والحجج المعاكسة ؟ .... «سيخلطون بيننا وبين الفوضويين ـ الشيوعيين»...

لماذا لا نخشى أن يخلطوا بيننا وبين الأشتراكيين ـ الوطنيين ، أو بين

الاشتراكيين ـ الليبيراليين ، أو بين الراديكاليين ـ الاشتراكيين ، الذين هم ، بين الأحزاب البورجوازية فى الجمهورية الفرنسية، الحزب الأكثر تقدماً والأوفر خبرة فى خداع الجماهير من قبل البورجوازية ؟ ... «الجماهير اعتادت حزبها الاشتراكى ـ الديموقراطى ، العمال « يحبونه» ...

تلك هى الحجة المعاكسة الوحيدة ، أُجل ، ولكن هذه الحجة تنبذ بعيداً العلم الماركسى والمهمات التى ستكون غداً مهمات الثورة، والحالة الموضوعية للاشتراكية فى العالم بأسره ، وافلاس الأممية الثانية المخزى، والأذى الذى تلحقه عملياً بالقضية سحب «الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ـ هم ـ أيضاً» ، الذين يحيطون بالبروليتاريا .

حجة الرتوب ، حجة الكسل ، حجة الجمود .

والحال ، أننا نريد أن نصنع العالم من جديد . نريد أن نضع حداً للحرب الاستعمارية العالمية التى زج فيها مئات الملايين من الناس ، والتى تختلط فيها مصالح المئات والمئات من مليارات الرساميل ، ـ نريد أن نضع حداً لهذه الحرب التى يستحيل انهاؤها بصلح ديموقراطى حقاً إلا عن طريق أكبر ثورة بروليتارية عرفها تاريخ الإنسانية .

وبعد هذا نخاف من أنفسنا ! وبعد هذا نتمسك بقميصنا القذر، «المألوف»، «العزيز» ...

لقد آن لنا أن نخلع القميص القذر ، لقد آن لنا أن نلبس ثياباً نظيفة .

بتروغراد ، ١٠ ابريل (نيسان) ١٩١٧

تنبيه للقارئ

أن كراسى قد فات زمنه، بسبب من الخراب الاقتصادى وعجز مطابع بطرسبورغ عن العمل . فقد كتبته فى ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، ولكنه لم يصدر حتى الآن ، فى ٢٨ أيار (مايو) !

لقد كتبته لكى يكون بمثابة مشروع برنامج لنشر أفكارى عشية المجلس العام الوطنى لحزبنا، حزب العمال الإشتراكى الديموقراطى البلشفى الروسى،

وقد طبع على الآلة الكاتبة ووزع منه عدة نسخ على أعضاء الحزب عشية إنعقاد المجلس العام وأثناءه بالذات ، فاضطلع جزئياً بدوره رغم كل شئ ،

ولكنه مذ ذاك، انعقد المجلس العام ، من ٢٤ إلى ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩١٧ (٤٧)، ونشرت قراراته منذ زمن (راجع ملاحق العدد ١٣ لجريدة «سولداتسكايا برافدا» (٤٨) ، ولن يلقى القارئ الفطن أية صعوبة فى ملاحظة أن كراسى كان غالباً المشروع الأولى لهذه القرارات .

ولا يبقى لى غير الإعراب عن الأمل بأن يكون لهذا الكراس ، مع ذلك بعض الفائدة بالإرتباط مع هذه القرارات ، على سبيل الإيضاح ، وغير التوقف حول نقطتين .

لقد اقترحت ، فى الصفحة ٢٧ ، البقاء فى زيميرفالد قصد الاطلاع فقط. ولكن المجلس العام لم يوافق على اقتراحى هذا ، واضطررت الى التصويت ضد القرار المتعلق بالأممية ، وقد غدا من الواضح الآن أن المجلس العام قد اقترف خطأ لن يلبث مجرى الأحداث أن يصلحه . فنحن ،

إذ نبقى فى زيميرفالد ، إنما نسهم (حتى خلافاً لارادتنا) فى تأخير تأسيس الأممية الثالثة؛ وإننا بصورة غير مباشرة نعيق انشاءها ، ببقائنا مقيدين بزيميرفالد ، الذى مات منذ حين فكرياً وسياسياً .

أن حزبنا قد بلغ اليوم وضعاً - تجاه جميع أحزاب العمال فى العالم بأسره - غدونا معه ملزمين بتأسيس الأممية الثالثة فوراً . وليس هناك غيرنا من يستطيع القيام بهذه المهمة اليوم ، وكل مماطلة ضارة فلو أننا لم نبق فى زيميرفالد إلا بقصد الاطلاع ، لأصبحنا حالاً طليقى الأيدى لتأسيس الأممية الثالثة (مع استطاعتنا فى الوقت نفسه الاستفادة من زيميرفالد إذا سمحت الظروف) .

فى حين أننا فى الوقت الحاضر، مضطرون، بسبب من الخطأ الذى اقترفه المجلس العام ، إلى الإنتظار مكتوفى الأيدى حتى ٥ تموز (يوليو) ١٩١٧ على الأقل (موعد انعقاد مجلس زيميرفالد العام ؛ هذا إذا لم يؤجل أيضاً مرة أخرى ! فقد ارجئ مرة ...) .

ولكن القرار الذى اتخذته لجنة حزبنا المركزية بالإجماع بعد المجلس العام وصدر فى العدد ٥٥ من «البرافدا» بتاريخ ١٢ أيار (مايو) ، يصلح نصف هذا الخطأ : فقد اتفقنا على أن نترك زيميرفالد إذا تباحث مع الوزراء ، وإنى اسمح لنفسى بأن أعرب عن الأمل بأن يصار عما قريب إلى اصلاح النصف الثانى من الخطأ ، ما أن نعقد المجلس العام العالمى الأول «لليساريين» («الميل الثالث»، «الأمميين فعلاً» .

أما النقطة الثانية التى يجب التوقف عندها ، فهى تأليف «الوزارة الائتلافية» فى ٦ أيار (مايو) ١٩١٧ ، قد يبدو أن الكراس قد فات زمنه حول هذه النقطة على الأخص .

أما فى الواقع ، فحول هذه النقطة على وجه الضبط ، لم يفت زمن الكراس إطلاقاً، فهو يبنى كل شئ على تحليل طبقى يخافه المناشفة والشعبيون خوفهم من النار، وهم الذين أعطوا ستة وزراء رهائن للوزراء الرأسماليين العشرة ، ولأن الكراس يبنى كل شئ على تحليل طبقى ، لهذا بالضبط ، فإن زمنه لم يفت ، إذ أن دخول تسيريتيلى وتشيرنوف ومن لف لفهما الوزارة قد أجرى تعديلاً طفيفاً جداً لا يؤبه له على مجرّد شكل الاتفاق الذى عقده سوفييت بتروغراد مع حكومة الرأسماليين ، والحال ، أشرت قصداً وعمداً فى كراسى، إنى «أقصد الإتفاق الشكلى أقل مما أقصد التأييد الفعلى ».

ويتضح يوماً بعد يوم أن تسيريتيلى وتشيرنوف ومن لف لفهما ليسوا سوى رهائن عند الرأسماليين ؛ وأن الحكومة «المجدّدة» لا تريد ولا تستطيع إطلاقاً أن تفى بأى من وعودها الطنانة ، لا فى السياسة الخارجية ولا فى السياسة الداخلية.

أن تشيرنوف وتسيريتيلى ومن لف لفهما قد انتحروا سياسياً؛ لقد تكشفوا عن أعوان للرأسمالين وهم يخنقون الثورة فعلاً؛ وقد تمادى كيرنسكى إلى حد إستعمال العنف ضد الجماهير : «أن غوتشكوف لا يفعل حتى الآن غير أن يهدد بإستعمال العنف ضد الجماهير ، فى حين أن كيرنسكى اضطر إلى وضع هذه التهديدات موضع التنفيذ ...». أن تشيرنوف وتسيريتيلى ومن لف لفهما قد قتلوا سياسياً أنفسهم وحزبيهم المنشفى والإشتراكى - الثورى . وسيدرك الشعب ذلك أكثر فاكثر ، ويوماً بعد يوم .

أن الوزارة الإئتلافية ليست سوى مرحلة انتقالية فى تطور التناقضات

الطبقية الرئيسية فى ثورتنا، تلك التناقضات التى حللتها بإيجاز فى كراسى، وليس بالإمكان أن يدوم هذا الحال طويلاً ، فأما التقهقر إلى وراء ، نحو الثورة المعاكسة على طول الخط ، وأما المضى إلى الأمام ، نحو انتقال السلطة إلى أيدى طبقات أخرى ، فمن المستحيل المراوحة فى المكان نفسه خلال مرحلة الثورة ، فى ظرف تعصف فيه الحرب الاستعمارية العالمية .

ملاحظات

١ ـ أن مقال «مهمات البروليتاريا فى الثورة الحالية» الذى صدر فى العدد ٢٦ من «البرافدا» ، بتاريخ ٧ نيسان ـ أبريل ـ ١٩١٧ ، بتوقيع ن. لينين ، يتضمن موضوعات نيسان الشهيرة التى تلاها لينين أثناء إجتماعين عقداً فى ٤ (١٧) نيسان ١٩١٧ فى قصر توريدا (فى إجتماع البلاشفة والإجتماع المشترك للبلاشفة والمناشفة، المندوبين إلى المجلس العام لسوفييتات نواب العمال والجنود فى روسيا).

وهذا المقال نقلته الصحف البلشفية «سوسيال ديموقراط» (موسكو) ، و «بروليتارى» (خاركوف)، و «كراسنويارسكى رابوتشى» (كراسنويارسك)، و «فبريود» (اوفا) ، و «باكينسكى رابوتشى (باكو) ، و«كافكاسكى رابوتشى» (تفليس) ، وغيرها .

٢ ـ المناشفة (المنشفيك)، أنصار التيار الانتهازى البورجوازى الصغير فى قلب الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ؛ حاملو التأثير البورجوازى الى صفوف الطبقة العاملة ، وقد أخذ المناشفة أسمهم هذا ابتداء من المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى ـ الديموقراطى الروسى (ح. ع. ا. د. ر.) الذى انعقد فى شهر آب (اغسطس) ١٩٠٣ .

وقد حصلوا على الأقلية عند انتخابات هيئات الحزب المركزية عشية انتهاء المؤتمر (أقلية بالروسية = منشنستفو ؛ ومنها كلمة منشفيك) ، بينا نال الإشتراكيون الديموقراطيون الثوريون ، على رأسهم لينين ، الأكثرية (أكثرية بالروسية = بلشنسفو ؛ ومنها كلمة بلشفيك) . وقد سعى المناشفة الى التوفيق بين البروليتاريا والبورجوازية ، وانتهجوا خطة انتهازية فى قلب الحركة العمالية، وبعد ثورة شباط ـ فبراير ـ ١٩١٧ الديموقراطية

ديكتاتوريتيين : ديكتاتورية البورجوازية بشخص الحكومة البورجوازية الموقتة وديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين بشخص السوفييتات ـ اشترك المناشفة ، بالإتفاق مع الاشتراكيين ـ الثوريين، فى الحكومة الموقتة ؛ ودعموا سياستها الاستعمارية وكافحوا نهوض الثورة البروليتارية ، كذلك انتهج المناشفة فى السوفييتات السياسة نفسُها، سياسة دعم الحكومة الموقتة .

وبعد ثورة أكتوبر ، تحول المناشفة الى حزب يعادى الثورة بصورة مكشوفة ، ويحيك المؤامرات وينظم الإنتفاضات الرامية الى دك السلطة السوفييتية.

٣ ـ الاشتراكيون الشعبيون ، حزب بورجوازى صغير ، تشكل عام ١٩٠٦ من الجناح اليمينى فى صفوف الإشتراكيين ـ الثوريين ؛ وتقدم بمطالب ديموقراطية معتدلة لا تتعدى نطاق الملكية الدستورية ، وقد تخلى الاشتراكيون الشعبيون عن الطلب الوارد فى برنامج الاشتراكيين ـ الثوريين والقائل بجعل الأرض ملكية اجتماعية ، وطالبوا بمصادرة أراضى الملاكين العقاريين مع التعويض على أصحابها. أما زعماء الاشتراكيين الشعبيين فقد كانوا بيشيخونوف ، ومياكوتين ، وانينسكى ، الخ ..

وبعد ثورة شباط الديموقراطية البورجوازية ، دعم حزب الاشتراكيين الشعبيين الحكومة الموقتة البورجوازية بنشاط ؛ وانتقل إلى معسكر أعداء الثورة.

الاشتراكيون ـ الثوريون ، حزب الديموقراطيين البورجوازيين الصغار؛ تأسس فى أواخر عام ١٩٠١ ومطلع عام ١٩٠٢. طالب الاشتراكيون ـ

الثوريون بتصفية الملكية العقارية ورفعوا شعار «التمتع المتساوى بالأرض» . ولم يروا أى فرق طبقى بين طبقة البروليتاريا وطبقة الفلاحين ، واخفوا التناقضات الطبقية فى صفوف الفلاحين ، وأنكروا دور البروليتاريا القيادى فى الثورة، وفى ميدان النضال ضد الحكم المطلق لجأ الاشتراكيون - الثوريون إلى الإرهاب الفردى.

وبعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧، وقف معظم الإشتراكيين - الثوريين مواقف ليبيرالية بورجوازية، وبعد انتصار ثورة شباط الديموقراطية البورجوازية، اشترك زعماء الاشتراكيين - الثوريين فى الحكومة البورجوازية الموقتة ، وانتهجوا سياسة قمع حركة الفلاحين وأيدوا البورجوازية والملاكين العقاريين بلا تحفظ فى نضالهم ضد الطبقة العاملة التى كانت تهيئ الثورة الاشتراكية، وبعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية ، أسهم الاشتراكيون - الثوريون فى النضال المسلح الذى قام به أعداء الثورة من البورجوازيين والملاكين العقاريين ضد السلطة السوفييتية .

اللجنة التنظيمية لحزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى ، مركز المناشفة القيادى ؛ تأسس فى آب - أغسطس - ١٩١٢ فى المجلس العام الذى عقده المناشفة دعاة التصفية وجميع الكتل والتيارات المعادية . عمل حتى انتخابات اللجنة المركزية لحزب المناشفة فى آب - أغسطس - ١٩١٧.

٤ - «ايدينستفو» جريدة يومية صدرت فى بتروغراد من آذار - مارس - إلى تشرين الثانى - نوفمبر - ١٩١٧ ، وكذلك فى كانون الأول - ديسمبر - ١٩١٧ وكانون الثانى - يناير - ١٩١٨ باسم آخر ؛ أشرف بليخانوف على ادارتها ، وقد لفت حولها العناصر اليمينية المتطرفة من المناشفة أنصار

الدفاع، ودعمت كلياً الحكومة البورجوازية الموقتة ، وشنت على الحزب البلشفى نضالاً ضارياً .

٥ - «روسكايا فوليا» ، جريدة يومية بورجوازية اسسها ومولها بعض البنوك الضخمة وقد قامت بدعاية محمومة ضد البلاشفة ، وكانت ، كما قال لينين عنها ، من أشد الصحف البورجوازية سفالة. صدرُت فى بتروغراد من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧ .

٦ - راجع ماركس وانجلس : «بيان الحزب الشيوعى» ، مقدمة الطبعة الألمانية عام ١٨٧٢ ؛ كارل ماركس «الحرب الأهلية فى فرنسا» ، رسالة المجلس العام لجمعية الشغيلة العالمية ، بصدد الحرب الأهلية فى فرنسا عام ١٨٧١ ، ٣، انجلس : رسالة إلى بيبل ١٨ - ٢٨ آذار - مارس - ١٨٧٥ ؛ ماركس : رسالتان إلى كوغلمان ، ١٢ و١٧ نيسان - أبريل ١٨٧١ .

٧ - فى ٤ آب - أغسطس - ١٩١٤ صوتت الكتلة الإشتراكية - الديموقراطية في الريخستا غ بالموافقة على الإعتمادات الحربية التى طلبتها حكومة غليوم الثانى .

٨ - صدر كراس لينين «رسائل حول التاكتيك. الرسالة الأولى» فى بتروغراد ، عام ١٩١٧ ، عن دار «بريبوى» للطبع والنشر التى كانت تخص البلاشفة ، وقد صدرت من هذا الكراس ثلاث طبعات تضمنت كلها «موضوعات نيسان» فى ملحق .

٩ - «البرافدا» («الحقيقة») جريدة يومية علنية بلشفية صدرت فى بطرسبورغ ، بناء على مبادرة من عمال بطرسبورغ فى نيسان - ابريل - ١٩١٢.

وهى اليوم لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الإتحاد السوفييتى.

١٠ ـ راجع انجلس : رسالة إلى زورغه بتاريخ ٢٩ تشرين الثانى ـ نوفمبر ١٨٨٦ .

١١ ـ عبارة من «فاوست» للكاتب الألمانى غوته .

١٢ ـ معارضة صاحب الجلالة ، تعبير انجليزى ، يطلق على الأقلية المعارضة من النواب البورجوازيين الذين مع بقائهم أمناء للنظام الرأسمالى كله ومخلصين لسلطة الملك ، يرفضون لدوافع حزبية أو كتلوية ، أن يساندوا الحكومة ، ويعارضون سياستها أن الأحزاب البورجوازية والبورجوازية الصغيرة تلجأ على نطاق واسع إلى هذه الخطة ، خطة المعارضة البرلمانية ، بغية خداع الجماهير .

وبهذا التعبير، يحدد لينين سياسة المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين الذين كانوا يعلنون برياء أنهم غير متضامنين مع البورجوازية الإستعمارية، والذين كانوا يساندونها فى الواقع حين كانت الثورة الديموقراطية البورجوازية تتحول إلى ثورة إشتراكية ، ويعقدون الاتفاقات معها، كما كان الكاديت يتحالفون مع القيصرية فى الثورة الديموقراطية البورجوازية .

١٣ ـ «لا نريد القيصر ، نريد حكومة عمالية» ، شعار ضد البلاشفة ، أطلقه بارفوس وتروتسكى عام ١٩٠٥ ، وقد انتقد لينين انتقاداً لاذعاً هذا الشعار الذى يدعو إلى الثورة دون الفلاحين ، والذى أصبح إحدى الموضوعات الرئيسية فى مذهب التروتسكية المناهض للثورة .

١٤ ـ راجع ماركس : «الحرب الأهلية فى فرنسا. رسالة المجلس العام

لجمعية الشغيلة العالمية بصدد الحرب الأهلية فى فرنسا عام ١٨٧١» ، الفصل الثالث ؛ انجلس : «نقد مشروع البرنامج الإشتراكى ـ الديموقراطى عام ١٨٩١» ، الفصل الثانى ، المطالب السياسية .

١٥ ـ البلانكية : تيار فى الحركة الإشتراكية الفرنسية تزعمه لويس أوغست بلانكى (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) ، وقد اعتبر أعلام الماركسية ـ اللينينية بلانكى ثورياً فذاً ونصيراً للإشتراكية ، ولكنهم انتقدوه فى الوقت نفسه لانعزاليته وطرائقه التآمرية ، وقد انكرت البلانكية النضال الطبقى ، واعتبرت أن إنقاذ البشرية من عبودية العمل المأجور ، لن يتم عن طريق نضال البروليتاريا الطبقى ، بل عن طريق تآمر تقوم به أقلية تافهة من المثقفين .

١٦ ـ قصد لينين مجموعة مؤلفاته التى صدرت فى بطرسبورغ فى أواخر عام ١٩٠٧ باسم : فل . إيلين : «خلال اثنتى عشرة سنة . مجموعة المقالات . المجلد الأول .اتجاهان فى الماركسية والاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية » .

١٧ ـ اليونكر ، النبلاء الملاكون الكبار فى بروسيا .

١٨ ـ الحزب الدستورى الديموقراطى (الكاديت)، الحزب البورجوازى الرئيسى فى روسيا ، حزب البورجوازية الليبيرالية ـ الملكية ؛ تأسس فى تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٠٥ ، لقد تستر الكاديت وراء ستار من الديموقراطية الكاذبة وأطلقوا على أنفسهم اسم حزب «حرية الشعب» ولكنهم سعوا فعلاً إلى اكتساب الفلاحين إلى جانبهم، والحفاظ على القيصرية بشكل ملكية دستورية، وغداة انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية ، أخذ الكاديت يحيكون المؤامرات ضد الثورة وينظمون الانتفاضات ضد جمهورية السوفييت .

١٩ ـ الترودوفيك ـ كتلة العمل ـ اسم اطلق على كتلة الديموقراطيين البورجوازيين الصغار التى أسسها فريق من نواب الفلاحين فى دوما الدولة الأولى عام ١٩٠٦، وقد ظلت كتلك الترودوفيك فى جميع دومات الدولة الأربع. طالب الترودوفيك بتسليم الفلاحين جميع أراضى الدولة والملاكين العقاريين، والأديرة، وأسرة القيصر؛ وبالقضاء على التفاوت بين الفئات الإجتماعية وبين القوميات، وبالقرار حق الانتخاب للجميع ولكن الترودوفيك انحرفوا فى غالب الأحيان عن مبادئ الديموقراطية المنسجمة وأيدوا زعماء البورجوازية الليبيرالية وفى سنوات الحرب الإستعمارية العالمية (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وقف الترودوفيك موقفاً سوفينياً. وبعد ثورة فبراير (شباط) الديموقراطية البروجوازية ، انتقل الترودوفيك ، بوصفهم معبرين عن مصالح الكولاك ، إلى معسكر أعداء الثورة ، وبالإتفاق مع الإشتراكيين الشعبيين .

٢٠ ـ الشعبية ، تيار بورجوازى صغير فى قلب الحركة الثورية الروسية ، ظهر فى سنوات العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر، وقد سعى الشعبيون إلى دك الحكم المطلق وتسليم الفلاحين الإقطاعيين ولكنهم انكروا فى الوقت نفسه قانون تطور العلاقات الرأسمالية فى روسيا ، واعتبروا بالتالى أن القوة الثورية الرئيسية ليست البروليتاريا بل الفلاحين ؛ ورأوا فى المشاعة الفلاحية بذرة الإشتراكية ، ورغبة فى استنهاض الفلاحين إلى النضال ضد الحكم المطلق ، كان الشعبيون يمضون إلى الأرياف ، إلى «الشعب» ولكنهم لم يلقوا التأييد هناك .

وفى سنوات العقدين التاسع والعاشر من القرن الماضى ، سار الشعبيون فى طريق التصالح مع القيصرية، وأفصحوا عن مصالح الكولاك، وخاضوا نضالاً ضارياً ضد الماركسية.

٢١ ـ أن كلمات : «الهر فاسكا يصغى ولكنه يأكل مع ذلك» مستقاة من احدوثة كريلوف «القط والطاهى» .

٢٢ ـ الروس الكبار تعنى الروس ، وقد ظهرت هذه التسمية فى القرن التاسع عشر على أساس العقلية الإستعمارية التى نادت بأن القومية الروسية «قومية كبرى» بالقياس إلى القوميتين الأوكرانية والبيلوروسية .

٢٣ ـ راجع انجلس : رسالة إلى بيبل ، ١٨ ـ ٢٨ آذار ـ مارس ـ ١٨٧٥ .

٢٤ ـ راجع ماركس : «الحرب الأهلية فى فرنسا ، رسالة المجلس العام لجمعية الشغيلة العالمية بصدد الحرب الأهلية فى فرنسا عام ١٨٧١». الفصل الثالث .

٢٥ ـ المانيلوفية نسبة إلى الملاك العقارى مانيلوف، من أبطال «النفوس الميتة» للكاتب الروسى الكبير غوغول ، وهو رمز الأفراط فى هدوء البال ، والعاطفية المعسولة ، والأهواء المتقلبة .

٢٦ ـ الفابيون ، أعضاء «جمعية الفابيين» ، منظمة إصلاحية انجليزية تأسست عام ١٨٨٤، وأسميت هكذا باسم القائد الرومانى فابيوس كونكتاتور («المماطل» ـ القرن الثالث قبل الميلاد) الذى عرف باتباعه خطة التسويف والمماطلة واجتناب المعارك الحاسمة ضد هنيبعل ، وقد كانت هذه الجمعية تتألف على الأخص من مثقفين بورجوازيين ينكرون ضرورة نضال البروليتاريا الطبقى، ويعارضون الثورة البروليتارية معارضة قوية، ويعلنون إمكان الانتقال التدريجى من الرأسمالية الى الاشتراكية عن طريق الإصلاحات الطفيفة ، وقد انضمت الجمعية إلى حزب العمال بعد تأسيسه ، وعن «جمعية الفابيين» قال لينين أنها «أكمل تغيير للانتهازية والسياسة

العمالية الليبيرالية» . وقد وقفت خلال الحرب العالمية الأولى مواقف الاشتراكية الشوفينية .

٢٧ ـ حزب العمال الإنجليزى (Labour Party) ، تأسس عام ١٩٠٠ باندماج التريديونيونات (النقابات) والمنظمات والكتل الإشتراكية ، بغية تمثيل العمال فى البرلمان ، وهذا التكتل الذى أطلق عليه اسم «لجنة تمثيل العمال» اتخذ عام ١٩٠٦ اسم حزب العمال ، وهذا الحزب الذى تكون فى البدء كحزب عمالى من حيث تركيبه (الذى انضم اليه فيما بعد كثير من العناصر البورجوازية الصغيرة) هو ، من حيث عقليته وتاكتيكه ، منظمة انتهازية ، ومنذ تأسيس هذا الحزب ، انتهج زعماؤه سياسة التعاون الطبقى مع البورجوازية ، وأثناء الحرب الإستعمارية العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وقف الزعماء العماليون موقفاً إشتراكياً ـ شوفينياً ، وقد وصل حزب العمال الى الحكم فى ١٩٢٤ ، و١٩٢٩ ، و١٩٤٥ ، و١٩٥٠ ، وطبق فى الميدان الدولى والداخلى سياسة مجافية لمصالح الشعب .

٢٨ ـ العصبة العمالية أو عصبة العمل ـ "Arbeitsgemeinchaft" (فرقة العمل الإشتراكية ـ الديموقراطية) منظمة الوسطيين الألمان ؛ أسسها فى آذار ـ مارس ـ ١٩١٦ نواب الرايخستاغ الذين انفصلوا عن الكتلة الاشتراكية ـ الديموقراطية الرسمية فى الرايخستاغ، وقد شكلت هذه الكتلة النواة المركزية للحزب الإشتراكى ـ الديموقراطى الألمانى المستقل الوسطى ، الذى تألف عام ١٩١٧ ، وكان يؤيد الاشتراكيين ـ الشوفينيين السافرين ، ويطالب بالحفاظ على الوحدة معهم.

٢٩ ـ الأقليون أو اللونغيتيون ، أقلية فى الحزب الاشتراكى الفرنسى ، تألفت عام ١٩١٥ . كان اللونغيتيون (أنصار الاشتراكى الاصلاحى لونغيه)

يعتنقون آراء وسطية وينتهجون سياسة التفاهم مع الاشتراكيين ـ الشوفينيين.

وأثناء الحرب العالمية الأولى، وقف اللونغيتيون موقفاً اشتراكياً ـ مسالماً. وغداة انتصار ثورة أكتوبر الإشتراكية فى روسيا، اعلنوا قولاً أنهم من أنصار ديكتاتورية البروليتاريا، ولكنهم كانوا فى الواقع ضدها، وواصلوا سياسة التفاهم مع الإشتراكيين ـ الشوفينيين، وأيدوا الصلح اللصوصى، صلح فرساى، وفى مؤتمر الحزب الإشتراكى الفرنسى الذى عقد فى كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٢٠ بمدينة تور، أحرز الجناح اليسارى الغلبة، بينا نال اللونغيتيون الأقلية، فاتفقوا مع الإصلاحيين السافرين وانفصلوا عن الحزب وانضموا إلى الأممية الثانية والنصف، ثم عادوا بعد تفسخها وانضموا إلى الأممية الثانية.

٣٠ ـ حزب العمال البريطانى المستقل (Independent Labour Party) تأسس عام ١٨٩٣، وتزعمه جيمس كير ـ هاردى ورمسى ماكدونلد وغيرهما. نادى حزب العمال المستقل باستقلال السياسى عن الأحزاب البورجوازية ولكنه كان فى الواقع «مستقلاً» عن الإشتراكية، وتابعاً جداً لليبيرالية ش (لينين). أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أصدر بادئ الأمر بياناً ضد الحرب (١٣ آب ـ اغسطس ـ ١٩١٤)، وفيما بعد، فى سباط ـ فبراير ـ ١٩١٥، اشترك المستقلون فى مؤتمر اشتراكيى بلدان التفاهم الذى انعقد فى لندن، ووافقوا على القرار الإشتراكى ـ الشوفينى الذى أقره هذا المؤتمر ومذ ذاك، وقف زعماء المستقلين موقفاً اشتراكياً ـ شوفينياً وراء ستار من التعابير المسالمة، وبعد تأسيس الأممية الشيوعية عام ١٩١٩، قرر قادة حزب العمال المستقل الإنسحاب من الأممية الثانية، وذلك تحت ضغط جماهير الحزب المائلة إلى اليسار، وفى ١٩٢١، انضم

المستقلون إلى الأممية المسماة الأممية الثانية والنصف؛ ثم عادوا بعد تفسخ هذه الأممية، وانضموا إلى الأممية الثانية ؛ وفى عام ١٩٢١، انفصل الجناح اليسارى من حزب العمال المستقل ، وانضم الى الحزب الشيوعى البريطانى.

٣١ ـ الحزب الإشتراكى البريطانى (British Socialist Party)
تأسس عام ١٩١١ فى منشستر، أثر إندماج الحزب الإشتراكى ـ الديموقراطى مع كتل اشتراكية أخرى، وقد قام الحزب الاشتراكى البريطانى بدعاوته بروح ماركسية . قال لينين أنه «لم يكن حزباً انتهازياً ، بل مستقلاً فعلاً عن الليبيراليين» . ونظراً لقلة اعضائه وضعف صلاته مع الجماهير ، اتسم بطابع انعزالى ، بعض الشئ .

وأثناء الحرب الاستعمارية العالمية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، احتدم النضال ضاريا فى قلب الحزب بين التيار الأممى (اينكبن، روتشتين، ماكلن، غالاخير وغيرهم) والتيار الاشتراكى ـ الشوفينى وعلى رأسه هايندمان، وفى قلب التيار الأممى ، كانت هناك عناصر مترددة تقف فى بعض المسائل مواقف وسطية .

وفى شباط ـ فبراير ـ ١٩١٦ ، أسس فريق من أعضاء الحزب الإشتراكى البريطانى صحيفة «كول» التى اضطلعت بدور هام فى تقوية لحمة الأمميين، وقد شجب المجلس العام السنوى للحزب الاشتراكى البريطانى، الذى انعقد فى نيسان ـ ابريل ـ ١٩١٦ فى سولفورد، الموقف الشوفينى الاشتراكى الذى وقفه هايندمان وانصاره ، فانفصل هؤلاء عن الحزب .

وقد حيا الحزب الإشتراكى البريطانى ثورة أكتوبر الإشتراكية ، وقام

اعضاؤه بدور كبير جداً فى حركة الشغيلة البريطانيين دفاعاً عن روسيا السوفييتية ضد التدخل الأجنبى وفى ١٩١٩ ، وافقت أغلبية منظمات الحزب المحلية (٩٨ ضد ٤) على الإنضمام إلى الأممية الشيوعية ، وقد اضطلع الحزب الإشتراكى البريطانى مع كتلة الوحدة الاشتراكية بالدور الرئيسى فى تأليف الحزب الشيوعى البويطانى، وفى المؤتمر التوحيدى الأول الذى انعقد عام ١٩٢٠، انضمت الأغلبية الساحقة من منظمات الحزب الاشتراكى البريطانى المحلية الى الحزب الشيوعى البريطانى.

٣٢ ـ الجناح اليسارى الزيميرفالدى ، اسمه لينين فى مجلس الأمميين العام الإشتراكى الأول ، المنعقد فى مطلع ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ ، فى زيميرفالد (سويسرا) .وقد دعا لينين هذا المجلس العام «خطوة أولى» فى طريق تطور الحركة العالمية ضد الحرب ، ووقف البلاشفة وعلى رأسهم لينين فى الجناح اليسارى الزيميرفالدى الموقف الصحيح الوحيد المنسجم إلى النهاية .

وكان هذا الجناح يضم أيضاً امميين غير منسجمين الى النهاية . بصدد انتقاد اخطائهم، راجع مقالات لينين : «حول كراس يونيوس» ، «خلاصة المناقشة حول حق الأمم فى تقرير مصيرها» شعار «نزع السلاح»، (لينين : المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ٢٢ ، ص ص ٢٩١ ـ ٣٠٥ و ٣٠٦ ـ ٣٤٤ ، والمجلد ٢٣ ، ص ٨٣ ـ ٩٣) .

٣٣ ـ «كتلة الأممية» أسسها الإشتراكيون ـ الديموقراطيون الألمان اليساريون كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ وكلارا زيتكين وفرانز مهرينغ وغيرهم ، فى بداية الحرب العالمية الأولى، وفيما بعد ، اتخذت هذه الكتلة أيضاً اسم «اتحاد سبارتاكوس» .

قام السبارتاكيون بالدعاوة الثورية بين الجماهير ضد الحرب الإستعمارية؛ وفضحوا سياسة الإلحاق التى انتهجها الإستعماريون الألمان، وخيانة الزعماء الاشتراكيين - إلديموقراطيين، غير أن السبارتاكيين اليساريين الألمان، لم يتحرروا من الأخطاء نصف المنشفية فى القضايا الجوهرية فى حقلى النظرية والسياسة : فقد طوروا النظرية نصف المنشفية عن الإستعمار، وانكروا مبدأ حق الأمم فى تقرير مصيرها بمعناه الماركسى (أى حتى الإنفصال وتشكيل دول سمتقلة) . وانكروا امكانية حروب التحرر الوطنى فى عصر الإستعمار واستصغروا دور الحزب الثورى ، وانحنوا امام عفوية الحركة .

وقد انتقد لينين أخطاء اليساريين الألمان فى جملة من مؤلفاته منها : «حول كراس يونيوس» تشويه الماركسية ، و «الإقتصادية الإستعمارية». (لينين : المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ٢٢. ص ٢٩١ - ٣٠٥ والمجلد ٢٣، ص ١٦ - ٦٤) فى ١٩١٧ ، انضم السبارتاكيون إلى حزب «المستقلين» الوسطى مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتى فى ميدان التنظيم ، وبعد ثورة تشرين الثانى - نوفمبر - ١٩١٨ ، فى ألمانيا ، قطع السبارتاكيون صلتهم مع «المستقلين» واسسوا فى كانون الأول - ديسمبر - من السنة نفسها ، الحزب الشيوعى الألمانى .

٣٤ - حزب العمال الإشتراكى الأمريكى (حزب العمل الإشتراكى الأمريكى) (SLP) ، تأسس عام ١٨٧٦ باندماج الفروع الأمريكية للأممية الأولى وحزب العمال الإشتراكى الديموقراطى وجملة من الكتل الاشتراكية فى الولايات المتحدة ، وكان المهاجرون يؤلفون أغلبية الحزب ، وكان الحزب يتسم بطابع انعزالى، ولم تكن له يوماً صلات واسعة مع الجماهير البروليتارية ، وخلال الحرب العالمية الأولى مال حزب العمال الاشتراكى

الأمريكى نحو الأممية.

٣٥ ـ الحزب الإشتراكى الأمريكى (SP) حزب اصلاحى ، انتهازى، تأسس عام ١٩٠١ .

اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) برر الجناح اليمينى فى الحزب الحرب الإستعمارية وأيد سياسة الاستعمار الأمريكى ، أما الجناح اليسارى الثورى، الذى تشكل تنظيماً بتأثير ثورة أكتوبر الإشتراكية فى روسيا ، فقد وقف موقفاً اممياً وناضل ضد الحرب الاستعمارية، وفى ١٩١٩ انفصل الجناح اليسارى عن الحزب الاشتراكى واخذ المبادرة لإنشاء الشيوعى الأمريكى ، وغدا نواته ، وبعد الانشقاق أصبح الحزب الاشتراكى الأمريكى منظمة منعزلة قليلة الأعضاء .

وفى مطلع عام ١٩٥٧، اندمج الحزب الإشتراكى مع الإتحاد الإشتراكى ـ الديموقراطى وشكلا منظمة جديدة اسمها الحزب الإشتراكى ـ الإتحاد الإشتراكى ـ الديموقراطى ، وهى لا تعد أكثر من ٥ آلاف عضو.

٣٦ ـ «المنبريون» الفرقة اليسارية فى حزب العمال الإشتراكى ـ الديموقراطى الهولندى التى أصدرت صحيفة "De Tribune" «دى تريبون» («المنبر») ابتداء من عام ١٩٠٧، بعد فصلهم من حزب العمال الإشتراكى ـ الديموقراطى الهولاندى، اسس المنبريون فى عام ١٩٠٩ حزباً خاصاً بهم (الحزب الإشتراكى ـ الديموقراطى الهولندى) ، وكانوا يمثلون الجناح اليسارى فى الحركة العاملة الهولندية ، ولكنهم لم يكونوا يشكلون حزباً ثورياً منسجماً . وفى ١٩١٨ اسهموا فى تاليف الحزب الشيوعى الهولندى .

٣٧ ـ حزب الشباب أو حزب اليساريين فى أسوج ، هكذا كان لينين يسمى التيار اليسارى قلب الإشتراكية ـ الديموقراطية الأسوجية . أثناء الحرب الاستعمارية العالمية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وقف «الشباب» موقفاً أمميا إلى جانب الجناح الزيميرفالدى اليسارى وفى أيار (مايو) ١٩١٧ شكل الشباب الحزب الاشتراكى ـ الديموقراطى اليسارى الأسوجى الذى أخذ ، عام ١٩٢١، اسم الحزب الشيوعى الأسوجى وانضم إلى الأممية الشيوعية.

٣٨ ـ التسنياكى حزب العمال الإشتراكى ـ الديموقراطى الثورى البلغارى؛ تأسس عام ١٩٠٣ غداة إنشقاق الحزب الإشتراكى ـ الديموقراطى . كان بلاغوييف مؤسسة وزعيمه ، ثم خلفه رئاسة الحزب تلامذته ديميتروف، وكولاروف وغيرهما. فى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وقف «التسنياكى» ضد الحرب الاستعمارية ، وفى ١٩١٩ انضموا إلى الأممية الشيوعية ، وأخذوا اسم الحزب الشيوعى البلغارى .

٣٩ ـ «إلى الإمام» ("Avanti!" ـ «افانتى !»)، جريدة يومية ، اللسان الحال المركزى للحزب الإشتراكى الإيطالى ؛ تأسست فى كانون الأول ـ ديسمبر ـ عام ١٨٩٦ ، وقفت أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) موقفاً امميأ (ولكنه قليل الإنسجام) دون أن تقطع صلتها مع الإصلاحيين ، وهى فى الوقت الحاضر اللسان الحال المركزى للحزب الاشتراكى الايطالى.

٤٠ ـ القرار المذكور كتبه لينين وعرض على المؤتمر المنطقى للمنظمة الإشتراكية الديموقراطية فى زوريخ باسم الاشتراكيين ـ الديموقراطيين اليساريين السويسريين . (راجع لينين : المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٧٧) .

٤١ ـ «الجرس» ("Die Glocke" ـ «دى غلوكه») مجلة أصدرها الإشتراكى ـ الشوفينى بارفوس (هلفاند) ، عضو الحزب الإشتراكى ـ الديموقراطى الألمانى وعميل الإستعمار الألمانى ، وذلك مرتين كل شهر ، أولاً فى مونيخ ثم فى برلين ، من عام ١٩١٥ الى عام ١٩٢٥.

٤٢ ـ يقصد لينين هنا النداء «الى الشعوب التى يخربونها ويقتلونها» وقد اقره مجلس «الزيميرفالديين» العام الأممى الثانى ، الذى انعقد من ٢٤ إلى ٣٠ نيسان ـ ابريل ـ ١٩١٦ فى كينتال (سويسرا) .

٤٣ ـ «اممية الشباب» "Jugend-International" ، صحيفة الإتحاد الأممى لمنظمات الشباب الإشتراكية الواقفة إلى جانب الجناح الزيميرفالدى اليسارى ؛ صدرت فى زوريخ من أيلول (سبتمبر) ١٩١٥ الى أيار (مايو) ١٩١٨ .

٤٤ ـ يقصد لينين هنا تصويت المناشفة فى جلسة اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد ، فى ٧ (٢٠) نيسان ـ ابريل ـ ١٩١٧ ، بالموافقة على «قرض الحرية» ، الذى أصدرته الحكومة الموقتة من أجل سد النفقات الحربية .

٤٥ ـ راجع انجلس : المقدمة لمجموعة "Internationales aus dem Volksstaat", (1871-1875) «انترناسيونالس اوس ديم «فولكسشتآت» ، (١٨٧١ ـ ١٨٧٥)» .

٤٦ ـ راجع كتاب ماركس وانجلس : العقلية الألمانية . الاشتراكية الألمانية الفصل الرابع ، حيث ورد هذا التعبير .

٤٧ ـ المجلس العاكم السابع لحزب العمال الاشتراكى ـ الديموقراطى

الروسى (البلشفى) (مجلس نيسان) : انعقد فى بتروغراد من ٢٤ إلى ٢٩ نيسان - ابريل ١٩١٧ . وكان أول مجلس عام علنى يعقده البلاشفة ، وكانت له أهمية مؤتمر .

وقد إتخذ هذا المجلس ، أساساً لأعماله ، موضوعات نيسان للينين ، واقر خطة الحزب فى جميع القضايا الرئيسية للثورة ، ووجه الحزب نحو النضال فى سبيل تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورج اشتراكية .

٤٨ - «سولداتسكايا برافدا» ، جريدة يومية بلشفية صدر أول عدد منها فى ١٥ (٢٨) نيسان - ابريل - ١٩١٧ ؛ لسان حال المنطقة العسكرية لدى لجنة بتروغراد لحزب العمال الإشتراكى - الديموقراطى الروسى (البلشفى) ؛ ابتداء من ١٩ ايار - مايو - (أول حزيران - يونيو) ١٩١٧ ، غدت لسان حال المنظمة العسكرية لدى اللجنة المركزية لحزب العمال الإشتراكى - الديموقراطى الروسى (البلشقى) . فى أيام تموز (يوليو) ١٩١٧ ، تعرض مركز ادارتها ، كما تعرض مركز ادارة «*البرافدا*» للنهب والسلب ، ومنعتها الحكومة الموقتة كما منعت «*البرافدا*» وبعد ثورة أكتوبر ، صدرت الجريدة من جديد بنفس الإسم حتى آذار (مارس) ١٩١٨.

حق الشعوب

فى تقرير مصيرها

أثارت الفقرة التاسعة من برنامج الماركسين الروس، المختصة بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، حملة واسعة علينا من الانتهازيين فى الآونة الاخيرة ، فقد هاجمها الروسى " سمكوفسكى " أحد دعاة التصفية ، وحذا حذوه البوندى المعروف " ليبمن " والاشتراكى القومى الأوكرانى " يوركيفتش".

وكانت حملتهم عليها فى صفهم عنيفة حادة . لم يخفوا فيها ازدراءهم الشديد بمضمونها. وواضح أن هذه الانتفاضة الواسعة التى قام بها الانتهازيون على برنامجنا الماركسى، مرتبطة بصورة عامة. ارتباطا وثيقا بتيارات التعصب القومى البادية فى الوقت الحاضر .

ولذا رأينا من المفيد أن نعمد إلى تحليل القضية المثارة تحليلا دقيقا مفصلا يجلو خطوطها وجوهرها بيد اننا نود الاشارة إلى أن أحدا من هؤلاء الانتهازيين، لم يأت ببرهان واحد من لونه، بل اقتصروا جميعا على ترديد ما قالته "روزا لو كسمبورغ" فى سلسلة مقالاتها البولانية المطولة التى نشرتها فى عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ تحت عنوان "المسألة القومية والحكم الذاتى" . وسنأخذ على عاتقنا ، فى سياق هذا البحث ، معالجة البراهين " المبتكرة" التى أوردتها هذه الكاتبة .

---

(١) كتب هذا البحث خلال شهرى شباط - أيار سنة ١٩١٤ ، ونشر فى السنة نفسها فى مجلة "بروسفييشتشينية" فى الاعداد ٤ ، ٥ ، ٦ وهو يتضمن أقوال لينين وسياساته.

ما المقصود من حرية الشعوب

فى تقرير مصيرها ؟

يبرز هذا السؤال بصورة طبيعية، بادئ الأمر، حين يحاول الباحث الماركسى أن يتفهم المقصود من حرية تقرير المصير فماذا يعنى ذلك ؟ هل نستقصى الجواب من التعاريف الحقوقية المستقاة من شتى أنواع "المفاهيم العامة" للحقوق ؟ أم ينبغى تحرية فى دراسة الحركات القومية دراسة تاريخية اقتصادية ؟ .

لا غرابة فى أن أناسا "كسيمكوفسكى" و "لينمن" و "يوركيفيش" ليس بوسعهم أن يفطنوا حتى بإلقاء هذا السؤال وهم يظنون أن مجرد تهكمهم على "غموض" البرنامج الماركسى كاف لاشعارهم بأنهم أداوا رسالتهم . ان هؤلاء الناس على ما هم عليه من بساطة يجهلون تمام الجهل أن كلا من البرنامج الروسى الموضوع فى سنة ١٩٠٣، وقرار مؤتمر لندن الشعبى المنعقد فى سنة ١٨٩٦ (وسنعود إليهما بالتفصيل فيما بعد)، قد عالج مسألة حرية الأمم فى تقرير مصيرها. ولكن الأغرب من ذلك، هو أن روزا لو كسمبورغ التى طالما جعجعت حول ما زعم من اتسام تلك الفقرة من برنامجنا بطابع التجريد.

والمتافزيكية، قد ارتكبت نفسها خطأ التجريد والميثافزيكية. فهى تتيه دائما فى بحث الاعتبارات العامة لحرية تقرير المصير إلى حد المساومة المضحكة على مايجب استخدامه من وسائل لمعرفة إرادة شعب من الشعوب دون ان تطرح اطلاقا هذا السؤال بصورة واضحة : هل يرتكز اساس القضية على التعاريف الحقوقية ، أم على تجارب الحركات القومية فى انحاء العالم ؟

إن مجرد القاء هذا السؤال بصورة دقيقة واضحة - وهذا ما لا يستطع الماركسى التغاضى عنه - يطيح فورا بتسعة أعشار براهين روزا لوكسمبورغ، فالحركات القومية لم تبرز اليوم فى روسيا للمرة الأولى، وهى ليست وقفا على هذه البلاد دون سواها .

فقد واكبت الحُركات القومية عهد انتصار الرأسمالية الحاسم على الاقطاعية فى العالم كله .

إن أساس تلك الحركات القومية الاقتصادى يقوم على أن تفوق الانتاج البضاعى تفوقا تاما كان يطلب استيلاء البورجوازية على السوق الداخلية ، فى دولة واحدة، وتوحيد جميع الاراضى التى يتكلم سكانها لغة واحدة فى دولة واحدة ، وإزالة كل حاجز من شأنه أن يعيق تطور تلك اللغة وانبثاق آدابها . ذلك ان اللغة وسيلة كبرى لاتصال الناس بعضهم ببعض .

كما أن وحدة اللغة، وحرية التطور هما بعض الشروط الرئيسية الهامة اللازمة لخلق مبادلات تجارية حرة شاملة حقا تتوافق والرأسمالية الحديثة ، ولتكتل الناس تكتلا حرا واسعا داخل كل طبقة من طبقات المجتمع، ولاقامة علاقة وثيقة بين السوق وبين كل رب عمل كبير ام صغير، بين السوق بين كل بائع ومشتر. فالسعى إلى اقامة دول قومية تنفذ على الوجه الاكمل متطلبات الرأسمالة الحديثة هذه، هو أمر لكل حركة قومية. وتسهم فى ذلك ايضا أعمق العوامل الاقتصادية.

ومن هنا يبدو أن الميزة الاساسية والشئ الطبيعى فى المرحلة الرأسمالية هو قيام الدولة القومية، سواء فى أوربا الغربية ، أو فى العالم المتمدن كله ، على الأصح .

فإذا أردنا، بعد هذا، أن نفهم معنى حرية الشعوب فى تقرير مصيرها، دون أن نتلاعب بالتعاريف الحقوقية، ودون أن "نخترع" مفاهيم مجردة، بل بتحليل شروط الحركات القومية التاريخية والاقتصادية، فلابد وأن نصل إلى النتيجة التالية :

إن المقصود بحرية الشعوب فى تقرير مصيرها، هو انفصالها كدول عن مجموعات قومية أجنبية، هو تأليفها دولا قومية مستقلة. وسنرى فيما بعد. الأسباب الأخرى التى تجعلنا مخطئين إذا فهمنا فيما بعد الأسباب الأخرى التى تجعلنا مخطئين إذا فهمنا من حق حرية تقرير مصير شعب من الشعوب شيئا آخر غير حق الوجود كدولة قائمة بذاتها.

أما الآن فعلينا أن نقف قليلا عند هذا السؤال : كيف حاولت روزا لوكسمبورغ أن "تتملص" من مجابهة النتيجة الحتمية التى يؤدى إليها درس الأسباب الاقتصادية العميقة للميل إلى انشاء دولة قومية !

تعرف روزا لوكسمبورغ الكراس الذى وضعة كاوتسكى بعنوان "قومية وشعبية" معرفة تاة. وتعرف أن كاوتسكى، بعد أن حلل مسألة الدولة القومية فى الفصل الرابع من هذا الكراس تحليلا دقيقا ، توصل بالنتيجة إلى القول "بأن أوتوباور يستصغر قوة الميل إلى أنشاء الدولة القومية " .

وقد أوردت روزا لوكسمبورغ نفسها كلمات كاوتسكى التالية : "أن الدولة القومية هى شكل الدولة الذى ينسجم أكمل انسجام مع الظروف العصرية (أى ظروف الرأسمالية، والمدنية ، والرقى الاقتصادى ، والمخالفة لظروف القرون الوسطى، وعهد ما قبل الرأسمالية ... إلخ). " وهى الشكل الذى يتهيأ لها فية تأدية مهامها بأسهل ما يمكن " (أى افساح المجال أمام الرأسمالية لتتطور إلى أبعد حدود الحرية والشمول والسرعة) ونضيف إلى

ما تقدم هذة الملاحظة الختامية الشديدة الدقة، التى أوردها كاوتسكى. وهى الدول التى يكون تركيبها القومى بعيدا عن التجانس (أى الدول التى تضم عددا من القوميات). خلافا للدول إلقومية المتجانسة كانت دائما دولا ظل تشكيلها الداخلى، لسبب ما، شاذا أو ضعيفا " (متأخرا). وغنى عن البيان أن كاوتسكى يستعمل هنا لفظة "شاذ للدلالة فقط على عدم التلاؤم مع ما هو منسجم ومتطلبات الرأسمالية خلال تطورها انسجاما أوثق .

ورب سائل يقول : ولكن ما هو موقف روزا لوكسمبورغ من هذه النتائج التاريخية الاقتصادية التى توصل إليها كاوتسكى؟ هل تعتبرها صحيحة أم مغلوطة ؟ ومن "كاوتسكى" و "اوتوباور" على حق : الأول بنظريته التاريخية الاقتصادية، أم الثانى بنظريته القائمة بجوهرها على أساس "نفسانى" .

وسؤال آخر : أية رابطة تجمع بين "انتهازية باور القومية" التى لا مراء فيها ، ودفاعه عن الاستقلال الذاتى القومى الثقافى وانحرافاته نحو التعصب القومى" مما جعل كاوتسكى يلاحظ انه " يضخم هنا وهناك " أهمية العوامل القومية) ، ومبالغته الشديدة فى تقدير شأن العوامل القومية وتناسيه العوامل الاهمية تناسيا تاما" (كما اشار كاوتسكى ايضا) ، نقول أية تجمع بين هذا كله وبين استصغار باور لقوة الميول الى انشاء دولة قومية .

أن روزا لوكسمبورغ لم تفكر أبدا بهذا السؤال. ولم تلاحظ هذه الصلة. كما انها لم تمعن التفكير فى مجموع مفاهيم باور النظرية. ولم تقارن مطلقا بين النظريات التاريخية الاقتصادية وبين النظرية النفسانية فى القضية القومية ، بل اكتفت بايراد الملاحظة التالية ضد كاوتسكى :

إن هذه الدولة القومية المثلى ليست سوى شئ مجرد يسهل شرحه والدفاع عنه نظريا ولكنه غير مطابق للواقع أبدا

وللدلالة على صحة هذا التصريح الحازم وتأييده تورد روزا لوكسمبورغ سلسلة شروح تزعم فيها ان تطور الدول الرأسمالية العظمى، والاستعمار يجعلان من "حق تقرير المصير" الشعوب الصغيرة شيئا خياليا بحتا، ثم تصيح : هل نستطيع الكلام جديا عن "حرية" البلغاريين والرومانيين وسكان الجبل الاسود والصرب واليونانيين ، وحتى السويسريين الى حد ما، فى "تقرير مصيرهم" وكلهم مستقلون صوريا، ما دام استقلالهم ذاته نتيجة للنضال السياسى، وللتنافس الدبلوماسى القائم داخل "المجموعة الاوربية".

"إن الدولة التى تتلاءم مع الظروف تلاؤما أكمل، ليست هى الدولة القومية، كما يتصور كاوتسكى، بل هى الدولة المفترسة " وتخلص إلى ايراد عشرات الارقام عن ضخامة المستعمرات التابعة لانكلترا وفرنسا... إلخ

ويستغرب القارئ فعلا حين تقع عينه على مثل هذه المحاكمات، "قدرة" الكاتبة على عدم فهم جوهر القضية ويدرك فورا أن جهود روزا لوكسمبورغ لتلقين كاوتسكى، بلهجة الواعظ، ان الدول الصغيرة تابعة اقتصاديا للدول الكبيرة، وان الصراع بين الدول البورجوازية متواصل على الدوام لسحق الامم الاخرى ولسيطرة عليها، وأن ثمة استعمارا ومستعمرات، ليست فى الحقيقة سوى محاولة صبيانية مضحكة للف والدوران، وذلك لسبب بسيط واضح هو عدم اتصال هذه الأمور كلها بالموضوع.

أن التبعية الاقتصادية الكاملة لسلطان الرأسمال المالى الاستعمارى فى البلدان البورجوازية "الغنية" ليست شيئا مقصورا على الدول الصغرى فقط ، بل تشمل اقطارا واسعة ايضا كروسيا على سبيل المثال. ولم تكن دويلات البلقان وحدها مستعمرة لاوربا من الوجهة الاقتصادية، بل ان اميركا ذاتها كانت كذلك فى القرن التاسع عشر، على حد ما ذكره كارل ماركس فى راس المال .

كل هذا يعرفه كاوتسكى جيدا، ويعرفه ايضا كل ماركسى، ولكن أى شأن لنا بكل هذا فى بحث الحركات القومية والدولة القومية ؟

لقد استعاضت روزا لوكسمبورغ عن قضية حرية الشعوب فى تقرير مصيرها السياسى فى المجتمع البورجوازى، أى قضية استقلالها كدول، بمسألة استقلالها الذاتى واستقلالها الاقتصادى.

ولاشك ان فى هذه المناورة من الذكاء، ما يشبه تماما موقف شخص يسعى، عند مناقشة احد المطالب الواردة فى برنامج من البرامج حول سلطان البرلمان، أى مجلس الشعب فى الدولة البورجوازية، إلى تبيان اقتناعه - الصائب طبعا كل الصواب - بان هذا السلطان يعنى فى أى قطر بورجوازى ، مهما كان نظامه ، سلطان رأس المال الضخم ليس إلا .

ليس من شك لدى إحد أن جزءا شاسعا من آسيا، وهى القارة المأهولة بالسكان أكثر من غيرها، واقع فى احدى حالتين : إما مستعمرات خاضعة "للدول العظمى" مباشرة، وأما دول ممعنه فى التبعية وخاضعة للاضطهاد القومى. فهل تهدل هذه الحالة المعروفة تماما من الجميع، شيئا من امر لامرية فيه. هو أنه فى آسيا ذاتها لم تكتمل شروط تطور الانتاج البضاعى، ولا شروط انطلاق الرأسمالية انطلاقا حرا تماما، وواسعا كثيرا،

وسريعا جدا إلا فى اليابان، أى فى الدولة القومية الوحيدة التى تمتلك استقلالها؟ ان هذه الدولة برجوازية .

وقد أخذت هى أيضا باضطهاد أمم أخرى، وتأسيس مستعمرات لها. ولا ندرى اذا كانت آسيا ستنجح ، قبل افلاس الرأسمالية ، فى انشاء نظام دول قومية مستقلة على غرار، أم لا . ولكن ثمة شيئا لا يختلف فية اثنان، هو أن الرأسمالية، بايقاظها القارة الآسيوية، قد أثارت فى جميع بقاع آسيا حركات وطنية تسعى حثيثا إلى انشاء دول قومية. ولا مراء فى أن هذه تعد الرأسمالية أحسن الظروف التى يتطلبها تطورها. ومن هنا يتضح أن مثال آسيا هو فى صالح كاوتسكى ، ضد روزا لوكسمبورغ .

ومن جهة أخرى فإن مثال الدول البلقانية هو ضدها أيضا. فكل منا يرى اليوم أن أحسن الظروف التى يقتضيها تطور الرأسمالية آخذ فى التوافر والنمو فى البلقان ، وذلك كلما ازداد ظهور دول قومية مستقلة فى ذاك الجزء من أوربا .

وهكذا يتضح ان المثل الذى تضربةالبشرية المتمدنة والمتقدمة، ومثل البلقان وآسيا، يبرهنان على صحة نظرية كاوتسكى - رغم روزا لوكسمبورغ - تلك النظرية القائلة بأن الدولة القومية هى القاعدة و "النموذ" فى النظام الرأسمالى ، وبأن الدول التى لا تجان «فى تركيبها القومى ليست سوى مرحلة متأخرة أو مستثناة .

ولا شك فى أن الدول القومية . إذا ما نظر اليها من ناحية العلاقات بين الامم ، تخلق أفضل الشروط لتطور الرأسمالية. ولا شك فى أن هذا لا يعنى قضاء مثل هذه الدولة على استثمار الأمم واضطهادها فى مجال العلاقات البورجوازية، وكل ما يعنيه هو أن الماركسيين لا يستطيعون اهمال

العوامل الاقتصادية القوية التى تولد الميل إلى إنشاء دول قومية. كما يعنى أن "حرية الشعوب فى تقرير مصيرها" لا يمكن أن يكون لها فى برنامج الماركسيين، من الوجهة التاريخية الاقتصادية، سوى معنى واحد هو حرية تقرير المصير السياسى، أى الاستقلال كدولة ، اى انشاء دولة قومية .

"لبروليتاريا الطبقية ، إلى تأييد المطلب الديموقراطى فنفصل القول اما الشروط التى تدفعنا، من الوجهة الماركسية، أى من وجهة البروليتاريا الطبقية، إلى تأييد المطلب الديمقراطى فسنفصل القول فيها بعد حين، مقتصرين الآن على تعريف مفهوم "حرية تقرير المصير" ، كما ينبغى علينا ايضا ان نشير إلى أن روزا لوكسمبورغ تعرف م ماذا ينطوى عليه مفهوم "الدولة القومية". فى حين أن أنصارها الانتهازيين من جماعة سمكوفسكى وليبمن ويوركيفيتش يجهلون حتى هذا الامر ؟ .

و ضع القضية

و ضلعا تاريخيا واقعيا

حين يعمد المرء إلى تحليل قضية اجتماعية. توجب علية النظرية الماركسية أن يضع تلك القضية فى نطاق تاريخى معين . كما تشترط عليه أيضا. إذا كان الموضوع يدون حول قطر بمفرده (مثلا حول البرنامج لوطنى لبلد من البلدان)، أن يأخذ بعين الاعتبار مجموع الخصائص الحسية التى تميز هذا القطر عن سواه ، فى حدود الخصائص حقبة تاريخية واحدة معينة .

فماذا يعنى هذا الشرط المطلق، الذى تقول به الماركسيه ، فى حال تطبيقه على القضية التى نعالجها ؟

أنه يعنى أولا ، ضرورة التمييز بدقة بين عهدين من عهود الرأسمالية يختلفان كل الاختلاف من حيث الحركات الوطنية . فهناك ، من جهة ، عهد تنهار فيه الاقطاعية ونظم الاستبداد المطلق وهو العهد الذى ينشأ فيه مجتمع ودولة ديموقراطيان برجوازيان وتصبح فيه الحركات الوطنية، لأول مرة ، حركات جماهيرية يدفع تيارها جميع طبقات السكان نحوالسياسة ، بمختلف الاشكال سواء عن طريق الصحافة أو عن طريق لا اشترك فى الهيئات لتمثيلية وغيرها .

ومن جهة أخرى، فقد أصبحنا فى عهد اكتمل فيه تأسيس الدول الرأسمالية بنظامها الدستورى الموطد منذ زمن طويل، فى وقت يتعاظم فى التناحر بين البروليتاريا والبورجوازية، وهو العهد الذى يمكننا تسميته : عشية انهيار الرأسمالية. أما ما يميز العهد الأول فهو انطلاق الحركات الوطنية التى يجرف تيارها طبقة الفلاحين – أى الطبقة التى تضم اكبر عدد من السكان والتى "يصعب دفعها إلى الحركة" – بشكل يتفاعل معه النضال فى سبيل الحرية السياسية بصورة عامة وفى سبيل حقوق القومية بصورة خاصة .

وأما مايميز العهد الثانى فهو انعدام الحركات الديمقراطية البرجوازية الجماهيرية، وسعى الرأسمالية التى اشتد تطورها وتعاظم تقريبها بين الشعوب. وجعلها لها اكثر تمازجا فيما بينها. بعد أن دفعتها إلى حركة التبادل التجارى، إلى وضع قضية التناحر القائم بين رأى المال الذى اندمج على الصعيه العالمى وبين حركة العمال الشعبية. فى الدرجة الأولى من الأهمية .

وليس هناك طبعا أى فاصل مادى يفصل بين هذين العهدين، بل

انهما يتصلان ببعضهما بحلقات وصل كثيرة على أن هناك عوامل أخرى تميز بين مختلف الأقطار : كسرعة تطورها القومى، وتركيب سكانها القومى، واشكال توزيع هؤلاء السكان.... إلخ

ولذا فلا يمكن اطلاقا الشروع بوضع برنامج قومى للماركسيين فى بلد من البلدان، دون النظر بعين الاعتبار إلى جميع هذه الشروط التاريخية العامة وجميع الشروط السياسية الحسية لهذه الدولة أو تلك .

وهنا نلمس اضعف ناحية فى محاكمات روزا لوكسمبورغ ، فهى تبذل جهدها لتنميق مقالها بمجموعة من التعابير "الحازمة ضد الفقرة التاسعة من برنامجنا، ناعتة إياها تارة بأنها "عامة" جدا وتارة بأنها "عناوين جامدة" وطورا بانها "لغوميتافيزيكى" وهلم جرا.

وقد يكون طبيعيا أن ننتظر من كاتبه تهاجم المتافيزيكيه (بمعناها الماركسى، أى نقيض الدياليكتية) والمجردات العقيمة بمثل هذة الصورة الفذة ، أن تطرفنا بمثال عن الطريقة التى يجب استخدامها ببحث القضية بحثا تاريخيا واقعيا. إذ أن المطلوب هنا هو دراسة برنامج الماركسيين القومى فى قطر معين هو روسيا، وفى حقبة معينة: هى مطلع القرن العشرين، فمن المحتمل أن تضع روزالوكسمبورغ هذا السؤال اية حقبة تاريخية تاريخية تجتاز روسيا، وما هى الخصائص الملموسة التى تتسم بها القضية القومية، والحركات القومية ، فى هذا البلد خلال هذا الوقت ؟

إلا أن روزا لوكسميورغ لا تقول كلمة واحدة تدور حول هذه الأمور ! ولن تجدوا فى مقالها أى أثر لتحليل القضية الموضوعة على بساط البحث، قضية كيف تعالج المسألة القومية فى روسيا، فى الحقبة التاريخية المشار اليها، وما هى الخصائص التى تتميز بها روسيا فى هذا الخصوص

يقال فى الرد علينا أن وضع المسألة القومية فى البلقان يختلف عما هو عليه فى ايرلندا، وأن تقدير ماركس للحركتين القوميتين البولونية والتشيكية لم يكن واحدا. لانه كان مستوحى من الشروط الموضوعية لعام ١٨٤٨ (ويلى ذلك صفحة استشهادات ضخمة من كتابات ماركس).

ويقال أيضا أن انجلز لم يكن لينظر نظرة واحدةً إلى نضال الأقاليم الحراجية السويسرية ضد النمسا ومعركة مورغارتن، عام ١٣١٥ (ويلى ذلك أيضا استشهادات مز انجلز. مقرونة بتعليقات مناسبة لكاوتسكى).
ويقال أخيرا أن "لاسال" كان يسم حرب الفلاحين فى المانيا فى القرن السادس عشر بأنها حرب رجعية ... إلخ.

اننا لا نستطيع القول بأن هذه الملاحظات والاستشهادات جاءتنا بشئ جديد. على أن من المفيد عموما للقارئ أن يتذكر مرة أخرى كيف كان ماركس وانجلز ولاسال يعالجون القضايا التاريخية الموضوعية لمختلف البلدان. وحين نعيد قراءة استشهادات ماركس وانجلز الجزيلة الفائدة ندرك بكل وضوح المأزق المخجل الذى زجت روزا لوكسميورغ نفسها فيه. فهى تعظ الناس بكل ما أوتيت من فصاحة وقوة، بضرورة تحليل القضية القومية فى مختلف الاقطار والعهود، تحليلا تاريخيا موضوعيا، فى حين لا تبدو منها اية محاولة لتحديد حقيقة الرحلة التاريخية لتتطور الرأسمالية التى تجتازها روسيا فى مطلع القرن العشرين، ولا ماهية خصائص المسألة القومية فى هذا القطر.

وقد بينت روزا لوكسمبورغ بالامثلة التى ضربتها كيف حلل اناس غيرها القضية تحليلا ماركسيا فكأنما تتعمد الاشارة إلى الجحيم كثيرا ما يكون مليئا بأصحاب النوايا الحسنة، وأن النصائح الطيبة كثيرا ما تنفع

اصحابها لستر اعراضهم عن الاستفادة عمليا من تطبيق تلك النصائح، أو لستر عجزهم عن الاخذ بها .

ها كم مثلا احدى المقارنات المفيدة : حين تعارض روزا لوكسمبورغ شعار استقلال بولونيا تستشهد بكتابها الصادر فى عام ١٨٩٨، الذى برهنت فيه على "سرعة تطور بولونيا الصناعى" بتذليلها أن بولونيا كانت تصرف منتجات مشاعلها الصناعية فى روسيا. ولسنا بحاجة طبعا إلى القول بان هذا البرهان لا يدعم فى شىء اطلاقا حق تقرير المصير، وأنه لا يعنى من زوال بولونيا الاقطاعية القديمة ... إلخ ! غير ان روزا لوكسميورغ تنتهى دائما إلى النتيجة التالية دون أى انتباة وهى: أن العوامل الاقتصادية البحتة فى العلاقات الرأسمالية الحديثة هى التى تتفوق منذ الآن على العوامل الأخرى التى توجد بين روسيا وبولونيا .

الرغم من أن مقالها متوج بعنوان "المسألة القومية والحكم الذاتى" بشكل عام – وتحاول اثبات حق المملكة البولونية المطلق فى الحكم الذاتى.

ولكى تؤكد هذا الحق تعتمد على مقاييس اقتصادية وسياسية وخلقية واجتماعية لتعبر عن كيان الدولة الروسية بأنه كتلة من السمات التى يشكل اجتماعها مفهوم " الإستبداد الأسيوى " .

ولكن كل واحد يعلم أن كيان دولة كهذا يتمتع بقسط وافر من الاستقرار رغم سيطرة السمات البطريركية. السابقة لعهد الرأسمالية، على اقتصاد البلاد، ورغم تفاهة التطور فى اقتصادها البضاعى وفى تمايز طبقاتها.

ولذلك فمن الواضح أنه برزت فى قطر ، يسود كيانه طابع عهد ما قبل الرأسمالية، منطقة قومية معينة، تتطور الرأسمالية فيها تطورا سريعا

فبقدر ما تتعاظم سرعة هذا التطور، ويشتد التناقص بينه وبين نظام الدولة السابق لعهد الرأسمالية، يزداد بالتالى احتمال انفصال المنطقة المتطورة عن المجموع لان تلك المنطقة لا تكون عندئذ مرتبطة بالكل بروابط "رأسمالية عصرية" بل بروابط "استبداد أسيوى".

وهنا يتبين أن روزا لوكسمبورغ عجزت تماما عن الاحاطة بالموضوع، وتبين عجزها حتى فى تحليل قضية البناء الاجتماعى الذى يقوم علية الحكم فى روسيا بالنسبة إلى بولونيا البرجوازية. إما الخصائص الملموسة التى تمتاز بها الحركات القومية فى روسيا فهى لم تتعرض حتى إلى بحثها. لذا فنحن سنتوقف قليلا عند هذه النقطة .

مميزات القضية القومية الموضوعية فى روسيا وتحول هذا البلد تحويلا ديمقراطيا برجوازيا

تقول روزا لوكسمبورغ فى مستهل حملتها على الفقرة التاسعة من البرنامج الماركسى : "على الرغم من أن مبدأ" حق الشعوب فى تقرير مصيرها بحرية" ذو طابع مطاط وعلى الرغم من أنه من الاشياء البديهية العامة، باعتباره قابلا للتطبيق بشكل واحد لا على الشعوب التى تقطن روسيا وحسب، بل وعلى الامم التى نسكن المانيا والنمسا، سويسرا والسويد، أميركا واوستراليا، - فاننا لا نجده فى أى برنامج من برامج الاحزاب الاشتراكية المعاصرة".

ولكن روزا لوكسمبورغ إذ تزعم أن هذه الفقرة من البرنامج لا تخرج عن كونها من " الاشياء البديهية العامة " تقع هى نفسها فى الخطأ

ذاته ، حين تصرح بخفة مضحكة أن تلك الفقرة "قابلة التطبيق بشكل واحد" على روسيا ، والمانيا ... إلخ

وعلى هذا نجيب : من الواضح أن روزا لوكسمبورغ أرادت اتحافنا في مقالها بمجموعة من أخطاء المنطق التى تصلح للظهور فى وظائف تلامذة المدارس. لأن جملة روزا لوكسمبورغ السابقة، ليست فى الواقع غير لغو فى القول وإساءة لوضع القضية وضعا تاريخيا مشخصا. فإذا عمدنا إلى تفسير البرنامج الماركسى لا بطريقة صبيانية ، أدركنا بسهولة كلية انه يتناول الحركات القومية الديمقراطية البورجوازية . فإذا كان الأمر كذلك - وهو فعلا كذلك - تبدى "بطبيعة الحال" أن هذا البرنامج يتناول "بصورة عامة "وكشئ" بديهئ جميع حالات القومية الديمقراطية البرجوازية. وإذا كلفت روزا لوكسمبورغ نفسها عناء التفكير قليلا لا ستنتجت بصورة جلية أيضا أن برنامجنا لا يشمل غير الحالات التى نرى فيها حركات من هذا النوع .

طبعا، لو تعمقت روزا لوكسبورغ فى جميع هذه الأمور الواضحة لادركت بدون عناء كبير أن ما قالتة هو مخالف تماما للمنطق، لانها إذ تتهمنا بذكر "اشياء بديهية" تورد ضدنا برهانا يقوم على عدم ورود أى ذكر لحرية الامم فى تقرير مصيرها فى برامج البلدان التى لاتوجد فيها حركات قومية ديمقراطية بورجوازية . يا له من برهان تأتى عن ذكاء وقاد.

أن مقارنة تطور مختلف الاقطار اقتصاديا وسياسيا، ومقارنة برامجها الماركسية ايضا لهى أمر على جانب عظيم من الاهمية فى نظر الماركسيين. لأن الطبيعة الرأسمالية العامة فى الدول العصرية، والقانون العام لتطور هذه ايضا، هما أمران لا يختلف فيهما اثنان على أن مثل هذه

المقارنة تحتاج إلى براعة ومهارة . ولا شك فى أن الشرط الاول لذلك ، هو تعيين ما اذا كانت مراحل التطور التاريخية للبلدان المقارن فيما بينهما قابلة للمقارنة أم لا. فالجهلاء المطبقون (أمثال البرنس تروبتسكوى) فى صحيفة "روسكايا ميسل" هم الذين يلجأون وحدهم إلى "المقارنة". بين برنامج الماركسيين الزراعى فى روسيا وبين البرامج الزراعية فى أوربا الغربية، ذلك أن برنامجنا يعالج تحويلا ديموقراطيا بورجوازيا فى مجال الزراعة وهو أمر لا مجال لبحثه اطلاقا فى أقطار أوربا الغربية .

وكذلك شأن القضية القومية، فقد تم حلها فى معظم البلدان الغربية منذ أزمان بعيدة ، ومن السخافة تطلب معالجة قضايا ليس لها وجود فى برامج الغرب، ولكن يظهر ان روزا لوكسمبورغ قد فاتها الشئ الاساسى هنا : وهو الفارق بين البلدان التى تمت فيها التحولات الديمقراطية البورجوازية منذ زمن بعيد ، وبين البلدان الذى لم ينتة ذلك فيها بعد.

إن جوهر المسألة يستقر فى هذا التفريق. لا شك فى أن تجاهله التام قد جعل من مقال روزا لكمبورغ المطول جدا مجمعة افكار مبتذلة مضطربة لا معنى لها .

لقد شمل عهد الثورات الديمقراطية البورجوازية فى أوربا الغربية، فترة معينة من الزمن تمتد تقريبا من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨٧١، فكانت تلك الفترة هى الحقبة التى ظهرت فيها حركات قومية متجانسة بصورة عامة ولذا فإن مجرد البحث عن حق حرية تقرير المصير فى برامج الاشتراكيين بأوربا الغربية ، إنما يغنى جهل أبسط المبادئ الماركسية .

الديموقراطية البورجوازية إلا فى عام ١٩٠٥ ، فالثورات التى نشبت فى روسيا، وايران، وتركيا، والصين، والحرب التى وقعت البلقان، تسلكل

سلسلة من الاحداث العالمية التى شهدها عصرنا :

وكان "شرقنا" مسرحا لها. والاعمى وحده لا يرى فى تلك السلسلة من الأحداث انطلاق طائفة من الحركات القومية الديموقراطية البورجوازية، انبثاق الميول الرامية إلى انشاء دول قومية، متجانسة مستقلة. فما دامت روسيا، والدول المجاورة لها، تجتاز اليوم هذه المرحلة فأننا نجد من الضررى، لهذا السبب وحده، أن يتضمن برنامجنا فقرة خاصة بحق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها .

ولكن لنتابع قليلا تلاوة المقطع الذى استشهدت به روزا لوكسمبورغ آنفا، تقول الكاتبة :

"أننا إذا نظرنا، بصورة خاصة إلى برنامج يعمل فى دولة ذات تركيب قومى متباين جدا وتحتل القضية، القومية فى نشاطه مركزا أساسيا، كبرنامج الحزب الاشتراكى الديموقراطى النمساوى مثلا، وجدنا أنه لا يتضمن مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها "

وهكذا يبدو أن كاتبتنا تود اقناع القارئ نظرها معتمدة على مثل النمسا "بشكل خاص" فلنبحث فيما اذا كان هذا المثال صحيحا حقا من وجهة النظر التاريخية الموضوعية .

لنبسط بادئ الأمر القضية الأساسية، قضية اتمام الثورة الديموقراطية البورجوازية. لقد بدأت هذه الثورة فى النمسا عام ١٨٤٨ وانتهت فى عام ١٨٦٧ ، فمنذ حوالى نصف قرن. عاشت البلاد فى ظل دستور برجوازى بمجمله، يعمل على اساسه حزب عمال شرعى بصورة قانونية .

فإذا نظرنا الى ظروف تطور النمسا الداخلية (أى من وجهة تطور الرأسمالية فى النمسا بصورة عامة، وفى كل من القوميات التى تتألف منها بصورة خاصة) لما رأينا اطلاقا عوامل تدعو الى حدوث قفزات يمكن أن يرافقها - فى جملة ما يرافقها - إنشاء دول قومية مستقلة. وهكذا يبدو ان روزا لوكسمبورغ. عندما توحى القارى بمقارنتها تلك، إن روسيا تعيش ظروفا مماثلة لظروف النمسا فى هذه الناحية لا تتبنى فرضية خاطئة فى أساسها ومناقضة للتاريخ فحسب ، بل تتبنى أفكار دعاة التصفية من حيث لا تدرى.

فلم تكن النمسا مجرد دولة سيطر الالمان عليها مدة مديدة من الزمن فحسب ، بل ان الالمان النمسويين طمحوا الى بسط سيطرتهم على الأمة الالمانية كلها. ولا شك فى أن روزا لوكسمبورغ ترغب فى أن نذكرها (على الرغم من أنها لا تميل كثيرا إلى الأمور المبتذلة والكليشيات والمجردات) بأن ذلك " الطموح " قضى علية فى حرب ١٨٦٦ .

لقد وجدت القومية الالمانية ، السائدة فى النمسا، نفسها خارج الدولة الالمانية المستقلة التى تكونت نهائيا فى عام ١٨٧١ كما ان محاولة المجريين تأسيس دولة قومية مستقلة تحطمت أيضا، منذ عام ١٨٤٩ ، تحت ضربات القوات الروسية المؤلفة من الاقنان .

وهكذا نشأت عن ذلك حالة فى غاية الطرافة : فالمجريون ومن التشيكيون أخذو ا يميلون إلى المحافظة على وحدة النمسا ويبتعدون عن النفصال عنها حفظا على الاستقلال القومى الذى يتهدده جوار اكثر نهما وأشد بأسا! فتكونت فى النمسا، بنتيجة هذه الحالة الفريدة، دولة ذات قطبين " ثنائية " وهى آخذ اليوم فى التجول إلى دولة ذات ثلاثة أقطاب

(ثلاثية) ! هى (الألمان والمجريون والسلاف) .

فهل فى روسيا ما هو شبيه بذلك؟ هل تميل القوميات اللاروسية عندنا إلى الاتحاد مع الروس ، تجنبنا لاضطهاد قومى أعنف مما يقاسونة الآن؟

يكفينا طرح هذا السؤال حتى نتبين ما تنطوى علية المقارنة بين روسيا والنمسا فى مجال حق الشعوب فى تقرير مصيرها من سخافة وابتذال وجهل .

إن ظروف روسيا الخاصة، فيما يتعلق بالمسألة القومية، مناقضة تماما لما رأيناه فى النمسا، فروسيا دولة ذات قطب قومى واحد، روسى، ويشغل الروس فيها بقعة شاسعة جدا من الأرض ، ويربوا عددهم على ما يقارب السبعين مليونا. ولهذة الدولة ميزات خاصة : أولاها - أن القوميات الاروسية (التى تؤلف أكثرية السكان، أى ٥٧ بالمئة) تقطن البقاع الواقعة على اطراف البلاد وثانيتها - إن الاضطهاد الذى تعينية تلك القوميات لاشد قسوة وهو فى الدول المجاورة (وليس فى الدول الاوربية منها فقط).

ثالثها- أن القوميات المضطهدة القاطنة فى أطراف روسيا ترى فى كثير من الحالات، مواطنين من أبناء قومها، يتمتعون باستقلال قومى أوسع مما تتمتع به هى (ويكفى أن نذكر على سبيل المثال الفلنديين والسويديين والبولونيين والاكرانيين والرومانيين على حدود الدولة الشمالية والغربية)

ورابعها- أن تطور الرأسمالية والمستوى الثقافى العام هما فى الغالب أكثر تقدما فى الاقاليم الواقعة على الاطراف، منهما فى وسط البلاد. وآخرها - أننا نشهد فى الدول الاسيوية المجاورة، فاتحة عهد ثورات بورجوزاية وحركات قومية، ذات أثر ما على القوميات القائمة داخل روسيا والتى تربطها معها رابطة القرابة .

وهكذا يتضح أن خصائص القضية القومية فى روسيا، أى خصائصها التاريخية الموضوعية. تفرض علينا الإعتراف بحق الأمم فى تقريو مصيرها بنفسها، بالحاح عظيم فى المرحلة التى نجتازها.

هذا ومن وجهة أخرى، فاذا أخذنا الوقائع بعين الاعتبار لم نتبين صحةُ ما تؤكده روزا لوكسمبورغ من الإعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها غير وارد فى برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين النمساويين. ويكفى إلقاء نظرة على جلسات مؤتمر "برون" الذى أقر البرنامج القومى حت نطلع على التصريحات التى أدلى بها كل من الاشتراكى الديموقراطى الروتينى "غانكيفيتش" باسم مجموع الوفد الاوكرانى (الروتينى) والاشتراكى الديموقراطى ريجر " باسم مجموع الوفد البولونى.

وقد جاء فى تلك التصريحات أن الاشتراكيين الديموقراطيين النمساويين، فى القوميتين المذكورتين آنفا، يصبون فيما يصبون إلى تحقيق وحدة شعوبهم القومية وحريتها واستقلاها.

فعلى الرغم من أن الحزب الاشتراكى الديموقراطى النمساوى لم يذكر حق الشعوب فى تقرير مصيرها صراحة فى برنامجه. فهو يقبل مناداة بعض فئاته بمطلب الاستقلال القومى عن طيبة خاطر.

وهذا يعنى، بطبيعة الحال، الاعتراف العملى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها! فمن هنا يتضح أن استشهاد روزا لوكسمبورغ بمثل النمسا قد خانها من جميع الوجوه.

الناحية العملية

فى القضية القومية

تلقف الانتهازيون باهتمام شديد الغرابة برهان روزا لوكسمبورغ الذى زعمت فيه أن الفقرة التاسعة من برنامجنا لاتحتوى شيئا "عمليا". ويظهر أن الكاتبة نفسه مغتبطة بهذا البرهان إلى درجة إنها كانت ترددة فى مقالها حوالى ثمانى مرات احيانا فى الصفحه الواحدة .

تقول روزا لوكسمبورغ "ليس فى الفقرة التاسعة أى توجيه عملى لسياسية البروليتاريا اليومية، وأى حل عملى للقضايا القومية "

لندرس هذا البرهان الوارد أيضا على الصورة التالية : إما أن الفقرة التاسعة لا تعنى شيئا على الاطلاق، أو إنها تفرض تأييد جميع الأمانى القومية. فماذا يعنى مطلب "النواحى العملية" فى القضية القومية ؟

إنه يعنى : أما تأييد جميع الأمانى القومية، وأما الجواب بال أو نعم على قضية انفصال كل أمة ، وأما "إمكانية تحقيق المطالب القومية فورا بصوره عامة.

فلنمعن النظر فى المعانى التى تتزعم عمليا كل حركة قومية فى بداعتها تسم تأييد جميع الامانى القومية بالسمة العملية. إلا أن سياسة البروليتاريا فى القضية القومية " شأنها فى سائر القضايا الأخرى " لا تؤيد البرجوازية إلا فى اتجاهات معينه، دون ان تمتزج إطلاقا فى سياستها، فالطبقة العاملة لا تؤيد البرجوازية إلا فى صالح السلم القومى، والمساواة فى الحقوق بغية تهيئة أفضل جو ممكن للنضال الطبقى (مع العلم أن البرجوازية عاجزة عن توفير السلم القومى كاملا، وهو لا يمكن تحقيقة الا

بسيادة الديموقراطية سيادة تامة).

ولذا فان البروليتاريا تقابل مبدأ "العملية" بسياسة مبدئية، فى القضية القومية لا تدعم البرجوازية إلا ضمن شروط معينة. أن كل بورجوازية تطمح ، فى حقل القضية القومية. أما الحصول على امتيازات لـ (شعبها) وأما إلى تحقيق فوائد استثنائية لها. وهذا ما تقصـــدة "بلناحية العمليـــة". فى حين أن البروليتاريا هى ضد كل إمتياز وضد كل استثناء، فمطالبة البروليتاريا بأن تكون "عملية" معناها مطالبتها بالسير تحت كنف البرجوازية والانغماس فى الانتهازية .

أما الاجابة "بلا أو نعم" على قضية انفصال كل أمة فتبدو انها مطلب جد "عملى" فى نظر بعضهم. ولكنه فى الواقع مطلب سخيف. لأنه ميتافيزيكى النزعة من الوجهة النظرية، ويؤدى الى دفع البروليتاريا وراء سياسة البرجوازية من الوجهة العملية .

فالبرجوازية تضع دائما مطالبها القومية فى مقدمة الأهداف، وتفصح عنها افصاحا حازما . فى حين ان البروليتاريا تنظر إلى تلك المطالب من حيث موافقتها لمصالح النضال الطبقى او تصادمها معها، ولا يستطاع من الوجهة النظرية التأكد مسبقا بأن انفصال هذا الشعب عن ذاك، أو مساو انه فى الحقوق مع شعب آخر، هو الذى سيتم الثورة الديموقراطيةالبورجوازية.

فهدف البروليتاريا فى كلا الحالتين إعداد الظروف المواتيه لتطوير طبقتة، أما البورجوازية فتسعى إلى عرقلة هذا التطور وتأخيرة، بالقاء اهدافة وراء هدف "شعبها" ولذلك فان البروليتاريا تقتصر على مطلب لاعتراف بحق تقرير المصير بشكل مطلق اذا صح التعبير، دون أن تضمن

شيئا لأى شعب، ودون أن تتعهد بمنح اى شئ على حساب شعب آخر .

قد يقال أن هذا الأمر غير "عملى" ولكنه لا ضير منه ما دام خير ضامن ، فى الواقع لاوسع الحلول الممكنة ديموقراطية .

إن هذه الضمانات وحدها هى التى تحتاج إليها البروليتاريا إما ما تحتاجه برجوازية كل شعب فهو ضمان مصالحه دون الإهتمام بأوضاع الشعوب الاخرى "ولو على حساب هذا "

إن أحض ما يهم البرجوازية هو " امكانية " تحقيق مطلب ما . وهذا يدفعها على الدوام الى انتهاج سياسة المساومات مع بورجرازيات الشعوب الخرى على حساب البروليتاريا. أما البروليتاريل فيهمها على العكس أن تقوى طبقتها ضد البورجوازية، وأن تثقف الجماهير بروح الديموقراطية الحقة وبروح الاشتراكية .

قد يكون هذا غير "عملى" فى نظر الانتهازيين ، فليكن بيد أن هذا لا يخرج عن كونه الضمانة الفعلية الوحيدة التى تؤمن أوفر قسط من المساواة القومية والسلم القومى ، رغم أنف الاقطاعيين والبورجوازية القومية أيضا.

إن المهمة الملقاة على عاتق البروليتاريا فى القضية القومية ليست بالشئ "العملى" فى نظر البورجوازية القومية فى كل شعب، لأن البروليتارين يتطلبون مساواة "مجردة" فى الحقوق، وإنعدام الإمتيازات اطلاقا مهما كانت طفيفة، فهم أعداء الداء لكل تسلط واستئثار قومى .

وقد فاتت هذه الحقيقة روزا لوكسمبورغ التى أمعنت فى تمجيد شعار "الناحية العملية" بلا حساب، ففتحت الباب على مصراعية امام الانتهازية خاصة، ولا سيما أمام المكاسب الإنتهازية التى نالتها القومية الروسية .

لماذا نقول القومية الروسية؟ نقول ذلك لانها هى القومية المتسلطة المضطهدة فى روسيا. ومن الطبيعى أن تتجلى الإنتهازية فى الحقل القومى بأشكال مختلفة لدى القوميات المضطهدة والقوميات المضطهدة.

فبرجوازية القوميات المضطهدة تدعو البروليتاريا، باسم "طابع مطالبها العملى"، الى مناصرة أمانيها دون أى تحفظ وأفضل موقف عم لديها هو "الموافقة" صراحة على إنفصال شعب بغية لا الموافقة على حق انفصال جميع الشعوب أيا كانت ؟

ولكن البروليتاريا لا توافق على هذا المفهوم "العملى" لانها تعترف صراحة بالمساواة فى الحقوق وتقر لجميع الشعوب حقا متساويا فى انشاء دولة قومية. ولهذا فهى تضع مصلحة الآخاء والتحالف بين العمال فى جميع الشعوب كل اعتبار آخر. وتنظر الى كل مطلب قومى، وإلى كل انفصال قومى على ضوء نضال العمال الطبقى. وهكذا يتبين شعار "العملية" ليس الا شعار تبنى رغبات البورجوازية وأمانيها بدون نقض أو تمحيص. وثمة من يقول لنا: أن تأييدكم حق الانفصال يدفع بكم إلى تأييد نزعة التسلط القومى لدى بورجوازية الشعوب المستضعفة.

هكذا تزعم روزا لوكسمبورغ، وهكذا يردد بعدها فى صحيفة المصفين الانتهازى سموسكى، الممثل الوحيد لآراء دعاة التصفية حول هذا الموضوع .

ولكننا نجيب : كلا فعلى البورجوازية نفسها ان يكون لها هنا موقف "عملى" أما العمال فعليهم أن يسلكوا مبدئيا أحد اتجاهين: فبقدر ما تناضل بورجوازية الشعب المستضعف ضد الشعب المتسلط. فنحن معه دائما وأبدا. نؤيده ونسانده فى جميع الظروف. بعزيمة واندفاع يفوقان تأييد

الآخرون جميعا، لاننا اعدء ألداء لاضهاد، نكافحه بجرأة واستقامة. وبقدر ما تعمل بورجوازية الشعب المستضعف فى سبيل تسلطة القومى، فنحن ضده، أى بالاختصار : نقاوم امتيازات الشعب المتسلط وأعماله العنيفة. من جهة، ولا نتسامح مطلقا مع سياسة الشعب المستضعف فى الجرى وراء الامتيازات من جهة اخرى .

ولا ريب أن كل تقاعس منا إبراز شعار حق الانفصال إلى جعله محور نشاط دعاوتنا. يؤدى بنا حتما إلى خدمة مآرب البورجوازية ومآرب الاقطاعيين، وميول الاستبداد لدى الشعب المسيطر . وقد اورد كاوتسكى هذا البرهان ضد روزا لوكمسبورغ منذ زمن طويل . وهو برهان قاطع لا يدحض. فروزا حين ترفض الاعتراف بحق الانفصال الذى تضمنه برنامج الماركسيين الروس وحين تخشى "مساعدة" البورجوازية القمية البلونية، إنما نساند عمليا، غلاوة القوميين الروس، جماعة المائة السود. أى أنها تساعد المساومات الانتهازية مع امتيازات هؤلاء الرجعيين الروس (أو مع ما هر شر من تلك الامتيازات) .

وهكذا يبدوا أن روزا لوكسمبورغ، فى حين اندفعت فى نضالها ضد نزعة التسلط القومى لدى البرجوازية البولونية ، قد نسيت هذه النزعة لدى غلاوة القوميين الروس،

على الرغم من أنها الآن أكثر خطرا، واضعف اعتمادا على البرجوازية، وأشد استنادا إلى الاقطاعية، وأنها العائق الاساسى فى وجه الديمقراطيةوالنضالالبروليتارى.

ولا شك أن كل اتجاه قومى برجوازى فى شعب مستضعفة يتضمن فحوى ديموقراطيا عاما ينتصب ضد الاضطهاد. ونحن نؤيد هذا الفحوى

تأييدا تاما. وفى الوقت نفسة نقاوم كل ميل إلى الاستئثار القومى مقاومة لا هوادة فيها، نقاوم كل ميل إلى الاستئثار القومى مقاومة لا هوادة فيها، ونناضل إلى سحق اليهود مثلا ... إلخ .

قد يكون ذلك غير "عملى" فى نظر البرجوازى ذى الافق الضيق المحدود! أما فى القضية القومية فهوُ السياسة العملية الوحيدة، السياسة المبدأية والسياسة التى تؤدى حقا إلى نصرة الديمقراطية والحرية إلى اتحاد البروليتاريا .

أجل هذه هى سياستنا. الإعتراف للجميع بحق الانفصال، ومعالجة كل قضية واقعية تمت إلى الانفصال، معالجة تقوم على رفض كل اخلال بالمساواة، وكل امتياز، واستثناء. لنأخذ حالة الشعب المتسلط، فهل يستطيع شعب أن يكون حرا إذا كان يضطهد شعوبا أخرى ؟ . طبعا لا. ولهذا فإن مصلحة حرية الشعب الروسى تقضى بمقاومة ذلك الاضطهاد. ولكن تاريخا طويلا من اضطهاد حركات الشعوب المستضعفة خلال العديد من الأجيال، والدعاوة المنظمة المتواصلة التى تقوم بها الطبقات "الرفيعة" الحاكمة فى تأييد هذا الاضطهاد،

قد خلقا فى الشعب الروسى أوهاما وآراء خاطئة تشكل عوائق كبرى أمام عوائق كبرى قضية حريتة. ولا يخفى أن غلاة الرجعيين الروس من جماعة "المئة السود". يغذون تلك الأوهام ويذكون نارها عن وعى وإدراك. وتتحمل البورجوازية الروسية نصيبها من ذلك أو تغتبط بالوضع المذكور.

ولذا فلا تستطيع البروليتاريا الروسية تحقيق أهدافها الخاصة بها، ولا تتمكن من شق طريقها نحو الحرية الا بمكافحة تلك الأوهام مكافحة منتظمة مستمرة .

إن أمر إنشاء دولة قومية مستقلة، قائمة بذاتها، لا يزال حتى الآن فى روسيا، امتياز تتمتع به القومية الرسية دون غيرها أما نحن، أبناء بروليتارى القومية الروسة ، فلا ندافع عن أية امتيازات مهما كان نوعها، ولا ندافع بالتالى عن هذا الامتياز.

أننا نناضل فى نطاق دولة معينة، ونعمل على توحيد صفوف عمال جميع القوميات القاطنة داخل نطاق دول معينه ، وليس بامكانا أن نضمن هذه الطريق أو تلك فى التطور القومى، ولكننا نسلك جميع الطرق الممكنة للوصول إلى هدفنا الطبقى.

غير أنه لا يمكن السير نحو هذا الهدف بدون محاربة نزعات التسلط القومى، وبدون ضمان المساواة بين جميع القوميات ، لنأخذ اوكرانيا مثلا : فهل هى مؤهلة لانشاء دولة قومية ؟ إن ذلك يتعلق بعوامل كثيرة لا يمكن التنبؤ بها. فكى لا نتية فى تقديرات لا طائل تحتها نكتفى بالتمسك بمبدأ لا ريب فية، هو حق أوكرانيا فى إنشاء دولتها ضد الأوكرانيين، ونثقف الجماهير بروح الإعتراف بهذا الحق، وبروح نبذ امتيازات أى شعب كان .

إن المعارك والنضالات فى سبيل حق الوجود كدولة قومية هى أمر ممكن الحدوث، ومحتمل الوقوع. خلال الاضطرابات التى تعرفها جميع البلدان فى مرحلة الثورات البورجوازية. وهنا ايضا نعلن مسبقا، نحن أبناء البروليتاريا، أننا خصوم لامتيازات القومية الروسية، وفى هذا الاتجاة نركز كل دعاوتنا ونشاطنا التحريضى .

وحين سارت روزا لوكسمبورغ حثيثا وراء النواحى "العملية" أغفلت المهمة العملية الرئيسية التى تضطلع بها بروليتاريا القومية الروسية، بروليتاريا القوميات الأخرى، مهمة القيام يوميا بدعاوة ونشاط تحريضى

ضد كل امتياز قومى فى الدولة، وفى سبيل تمتع القوميات كافة بحقها فى انشاء دولها القومية .

وهذه المهمة هى هدفنا الأول (حاليا) فى القضية القومية ، لأننا بهذه الصورة فقط وبهذا وحده ، نستطيع صيانة مصالح الديموقراطية ومصالح تحالُف جميع القوميات أيا كانت، على أساس المساواة فى الحقوق ولن يضيرنا شئ اذا كانت تلك الدولة غير "عملية" فى نظر طغاة القوميين الروس، فى نظر بورجوازية الشعوب المستضعفة (أن هؤلاء وأولئك يلحون فى طلب جواب دقيق، نعم أم لا، ويتهمون الاشتراكيين الديموقراطيين بـ (عدم الدقة) .

أليست دعاوتنا هذه وحدها، هى التى تثقف الجماهير بثقافة ديموقراطية حقا واشتراكية حقا؟ أليست هذه الدعاوة وحدها هى التى تضمن أفضل الامكانيات وأوسعها لتوطيد السلم القومى فى روسيا، إذا ظلت هذه البلاد دولة متباينة التركيب القومى، كما يتضمن بالتالى تقسيمها تقسيما مسالما جدا (لا يؤذى نضال البروليتاريا الطبقى) الى عدد من الدول القومية ، إذا وضعت قضية هذا التقسيم على بساط البحث .

ولكى نشرح هذة السياسة شرحا موضوعيا، باعتبارها السياسة البروليتارية الوحيدة فى القضية القومية ، سنعمد إلى درس موقف القوميين الروس الأحرار من " حرية تقرير مصير الشعوب " وإلى معالجة المثل الذى ضربة النروج عن السويد .

البرجوازيون الاحرار والانتهازيون الاشتراكيون وموقفهم

رأينا فيما تقدم أن روزا لوكسمبورغ كانت تعتبر برهانها التالى احدى "الحجج" التى تستعين بها فى كفاحها ضد برنامج الماركسيين الروس، وهو : أن الإعتراف بحق تقرير المصير إنما يعنى تاييد نزعة التسلط القومى لدى بورجوازية القوميات المستضعفة .

وتضيف قائلة : إذا كان المقصود من هذا الحق النضال ضد كل عنف يصيب القوميات فقط، فلا فائدة من إدراج بند خاص به فى البرنامج، لأن الاشتراكيين الديموقراطيين يقامون عموما كل عنف قومى وكل تباين فى المساواة القومية.

إن البرهان الاول الملطخ ذاته بنزعة التسلط القومى - كما أشار اليه كاوتسكى صراحة منذ ما يقرب من عشرين عاما - يلقى تبعة الخطأ على الغير : أى أن روزا لوكسمبورغ خوفا من ان تساير نزغة التسلط القومى لدى بورجوازية القوميات المستضعفة ، تخدم ، فى الواقع ، أغراض غلاة القوميين الروس، جماعة " المئة السود " .

أما البرهان الثانى فليس هو فى الاساس، إلا تهربا مخزيا من الاجابة على السؤال التالى: هل يتضمن الاعتراف بالمساواة القومية اعترافا بحق الانفصال أم لا؟ فاذا كان الجواب نعم، فمعنى ذلك أن روزا لوكسمبورغ تعترف مبدئيا بصواب الفقرة التاسعة من برنامجنا. وإذا كان لا، فمعناه انها لا تعترف بمساواة الشعوب فى الحقوق ! وكل ما عدا ذلك تهرب وموارية لا يفيدان شيئا !

غير أن ثمة طريقة فضلى لتمحيص البراهين الواردة أعلاه وما شابهها، هى معرفة موقف كل طبقة من طبقات المجتمع من هذه القضية. إن هذا التمحيص أمر إجبارى بالنسبة إلى كل ماركسى، ففى كل قضية ينبغى البدء من الحادث الموضوعى. وينبغى النظر بامعان إلى العلاقات القائمة بين مختلف الطبقات فيما يتعلق بالقضية المطروحة، ولكن روزا لوكسمبورغ أهملت ذلك، مما أدى إلى ارتكابها أخطاء الميتافزيكية والتجريد والأخذ بالافكار المبتذلة والعموميات ... إلخ، وهى الأمور التى تحاول الصاقها بخصوصها عبثا .

إن القضية المراد بحثها هنا هى برنامج الماركسيين الروس، أى ماركسى جميع القوميات فى روسيا. أفليس من الضرورى والحالة هذه، إمعان النظر فى موقف الطبقات الحاكمة فى روسيا ؟

كل يعرف موقف "البيروقراطية" (ونعتذر لاستعمال هذا التعبير غير الملائم)، وموقف الملاكين العقاريين الاقطاعيين من طراز طبقة النبلاء الموحدة: إنه إنكار مطلق لحق المصير وللمساواة فى الحقوق بين القوميات، وتعلق بالشعار القديم الموروث عن عهود القنانة : اوتوقراطية، ارثوذكسية، تسلط قومى (أى روسى فقط)، واحتقار يتناول حتى الأوكرانيين الذى ينعتون بابناء "عرق أدنى" ، ومقاومة لغتهم القومية أيضا

ولننظر من ثم إلى البورجوازية الروسية، "المدعوة" ولو بصورة متواضعة، إلى الاشتراك فى الحكم ضمن نطاق التشريع وحكومة" ٣ حزيران"[١] .

---

(١) اشارة إلى الإنقلاب الرجعى الذى حدث فى ٣ حزيزان عام ١٩٠٧ وهذا الإنقلاب يسجل بدء الرجعية الستوليبينية التى عرفت بنظام " ٣ حزيران".

إننا لسنا بحاجة إلى التوقف كثيرا لإعطاء البرهان على أن "الأوكتوبريين" يحذرون أنصار اليمين. ومن المؤسف أن بعض الماركسيين لا يعيرون موقف البورجوازيين الروس الأحرار، أى التقدميين والدستوريين الديموقراطيين المعروفين بالـ " كاديت" الاهتمام الكافى. مع أن كل من لا يمحص هذا الموقف ولا يتعمق فيه ، لابد له ، حين مناقشة حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، أن يقع فى نقيصة التجريد والتأكيد الرخيص .

إن المظاهرة التى أثارتها "البرافدا" فى العام الماضى مع "الريتش"(١) ارغمت هذه الصحيفة الأخيرة الناطقة بلسان الحزب الدستورى الديموقراطى، والبارعة فى فن التخلص من الاجابة صراحة على الاسئلة "المزعجة" بأساليب دبلوماسية، ارغمتها على الافضاء فى النهاية ببعض اعترافات جد ثمينة، وكانت المناسبة التى أدت إلى تلك المشادة، مؤتمر طلاب اوكرانيا الوطنى، الذى عقد فى صيف عام ١٩١٣ فى مدينة لفوف.

فقد نشر يومئذ السيد موغيليانسكى "الخبير الموصوف" بالشؤون الأوكرانية والمراسل الوكرانى لجريدة "الريتش"، مقالا هاجم فيه هجوما مقذعا "هذيان"، "روح مغامرة"... إلخ فكرة انفصال أوكرانيا فرد عليه الاشتراكى القومى دونتزف ردا عنيفا، مدافعا عن فكرة الانفصال، وأيده المؤتمر .

أما "رابوتشايا برافدا" فلم تظهر أى تضامن مع السيد دونتزوف، وبعد ان اشارت صراحة إلى أنه اشتراكى قومى ، وإلى أن عددا كبيرا من الماركسيين الأوكرانيين لا يشاطرونه وجهات نظره، عمدت إلى القول بأن

---

(١) الريتش أى " الكلام " هى الصحيفة الناطقة بلسان حزب الكاديت ظهرت فى عام ١٩٠٦ .

لهجة "الريتش" أو بالاحرى اسلوبها فى معالجة القضية مبدئيا، خال تماما من التهذيب، ولا يقبل صدوره عن ديموقراطيي روسي، أو على الأقل عن رجل يطمح إلى الظهور بمظهر الديموقراطى ، ثم قالت : أن "للريتش" ملء الحق إن تفند أقوال دونتزوف وأنصاره، ولكن لا يمكن التسليم مبدئيا بأن تنسى "الريتش" حرية الانفصال وحق الانفصال. لا سيما وهى تدعى إنها لسان حال الديموقراطية فى روسيا ! .

وبعد انقضاء عدة اشهر ، كتب السيد موغيليانسكى مقالا فى العدد ٣٣١ من "الريتش" أعطى فيه بعض "الايضاحات"، بعد أن اطلع فى الجريدة الأوكرانية "شلياخى" الصادرة فى لفوف، على الإعتراضات التى أبداها السيد دونتزوف والتى أشار فى جملتها إلى أن الصحافة الاشتراكية الديموقراطية الروسية هى وحدها التى قبحت، كما يجب، شرود "الريتش" نحو نزعة التعصب القومى. أما "ايضاحات" السيد موغيليانسكى فقد اقتصرت على الترديد ثلاثا : " إن إنتقاد وصفات السيد دونتزوف لا علاقة له البتة بنفى حق الشعوب فى تقرير مصيرها .

ومما قاله لسيد موغيليانسكى : "ينبغى القول أيضا أن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ليس شيئا مقدسا (اصغوا جيدا !!) لا يتناوله الانتقاد : إن الأجواء الموبوءة التى تحيط بحياة شعب من الشعوب يمكنها أن تولد ميولا موبوءة فى قضية حرية تقرير مصير الشعوب فالكشف عن تلك الميول، لا يعنى، بعد، نكران حق الشعوب فى تقرير مصيرها " .

إن هذه الكلمات التى تدور حول الأشياء المقدسة وإلى يكتبها أحد البورجوازيين الأحرار تتفق تماما - كما ترون - مع جوهر أقوال روزا لكسمبورغ. فقد كان السيد موغيليانسكى يريد التهرب من الرد مباشرة

على السؤال التالى: هل يعترف بحق حرية تقرير المصير السياسى، أى بحق الانفصال، أم لا؟.

لكن صحيفة "البروليتارسكايا" طرحت ذلك السؤال ذاته عليه وعلى الحزب الدستورى الديموقراطى، مباشرة، فى عددها الرابع تاريخ ١١ كانون الأول من عام ١٩١٣ .(٨) .

عندئذ نشرت "الريتش" فى العدد ٣٤٠، بيانا غير موقع. أى رسمى ، موضوعا باسم هيئة التحرير ، يتضمن الجواب على السؤال الأنف الذكر. ويمكن تلخيصه فى نقاط ثلاث :

أولا - إن برنامج الحزب الدستورى الديموقراطى يذكر فى بنده العاشر "حق الامم فى تقرير مصيرها الثقافى" بكل صراحة ودقة ووضوح.

ثانيا - إن "البروليتارسكايا برفدا" - على زعم "الريتش" "تخلط عمدا" بين حرية تقرير المصير وبين الميل إلى النفصال ، أى انفصال هذا أو ذاك من الشعوب .

ثالثا - " إن الدستوريين الديموقراطيين لم يعمدوا ، عمليا فى يوم من الأيام إلى الدفاع عن "حق الشعوب فى الانفصال عن الدولة الروسية". (انظر مقال لينين : "سياسة القوميين الاحرار وحق الشعوب فى تقرير مصيرها" المنشور فى "البروليتارسكايا برفدا "العدد ١٢ ، ١٢ كانون الأول ١٩١٣) (٢) .

---

(١) راجع لينين " المؤلفات الكاملة " الجزء السادس عشر ، صفحة ٥٢٠ و ٥٢١ الطبعة الروسية .

(٢) راجع لينين : المؤلفات الكاملة " الجزء السابع عشر ، صفحة ١٠٨ ، ١٠٩ ، الطبعة الروسية" .

لننتبه أولا إلى النقطة الثانية فى بيان "الريتش" أفلا تبين لحضرات سمكوفسكى وليبمن ويوركيفيتش وغيرهم من الانتهازيين، بكل جلاء أن صيحاتهم وأقوالهم بشأن "قلة الوضوح" أو "قلة الدقة" التى ينطوى عليها، حسب زعمهم، معنى كلمات "حرية تقرير المصير" ، ليت فى الواقع، أى من حيث العلاقة الموضوعية بين الطبقات والعلاقة الموضوعية للنضال الطبقى فى روسيا – سوى ترديد رخيص للخطب التى يلقيها البرجوازيون الملكيون الأحرار ؟

وحين طرحت "البروليتارسكايا برافدا" على حضرات "الدستوريين الديموقراطيين" المستنيرين من جماعة "الريتش" هذه الاسئلة الثلاثة :

١ – هل ينكرون بأن المقصود من حرية الشعوب فى تقرير مصيرها كان، فى تاريخ الديموقراطية الدولية ولاسيما منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر، يعنى حرية تقرير مصيرها السياسى وحقها فى انشاء دولة قومية مستقلة ؟ .

ثانيا – وهل ينكزون بان القرار المعروف الصادر عن مؤتمر لندن الاشتراكى الدولى المنعقد فى عام ١٨٩٦ لم يكن يتضمن ذلك المعنى ذاته؟.

ثالثا – وهل ينكرون أخيرا أن بليخانوف، حين كتب عن حرية تقرير المصير فى عام ١٩٠٢، لم يكن يقصد غير حرية تقرير المصير السياسى؟ نقول حين طرحت "البروليتاسكايا برافدا" هذه الأسئلة الثلاثة، لزم السادة " الكاديت" الصمت التام !!

لقد اعتصموا بالصمت ولم يجيبوا بكلمة واحدة لأنه لم يكن لديهم ما يقولونه. أى إنهم اضطروا إلى الإعتراف. باطنا، بأن "البروليتارسكايا برافدا" كانت على حق تماما .

إن صيحات "الأحرار" الزاعمة أن مفهوم "حرية تقرير المصير" خال من الوضوح ، وأن الاشتراكيين الديموقراطيين "يخلطون عمدا" بينه وبين الميل أى الانفصال، إنما تخفى مسعى يهدف إلى تشويش القضية وبلبلتها ، والتهرب من الاعتراف بهذا المبدأ الذى أقرته الديموقراطية طلاقا. ولو كان سمكوفسكى وليبمن ويوركيفيتش وأمثالهم أقل غباوة، لوجدوا فى نفسهم ما يردعهم عن التفوه أمام العمال بآراء مستوحاة من أفكار البورجوازيين الاحرار. ولكن لنتابع كلامنا.

قلنا أن "البروليتارسكايا برافدا" أرغمت "الريتش" على الاعتراف بان كلمات حرية تقرير المصير " الثقافى الوارة فى برنامج الدستوريين الديموقراطيين يعنى نفى حرية تقرير المصير السياسى. ولقد كانت "البروليتارسكايا برافدا" على حق أيضا حين وجهت انظار مجلتى "نوفويه فريميا" و "زيمتشيسينيا" إلى النقطة الثالثة فى بيان "الريتش" كمثال على "الأمانة" التى يتحلى بها أصحابنا الدستوريون الديموقراطيون حين يعلنون انهم " لم يعمدوا فى يوم من الايام عمليا إلى الدفاع عن حق الشعوب فى الانفصال عن الدلة الروسية " فكان من جراء ذلك، إن راحت " النوفويه فريميا " التى لا تترك فرصة تفوتها دون اثارة النعرات العنصرية ضد اليهود، ودون مهاجمة الدستوريين الديموقراطيين مهاجمة عنيفة ، فكتبت فى عددها رقم ١٣٥٦٣ ما يلى :

" إن ما يعتبره الاشتراكيون الديموقراطيون مبدأ حكمة سياسة" (أى مبدأ الإعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها وبحقها فى الإنفصال) "بدأ اليوم يثير الخلافات حتى بين صفوف الدستوريين الديموقراطيين " .

ولا شك أن "الكاديت" يسلكون مبدعيا مسلكا يشابه تماما موقف

"النوفويه فريميا"، حين يصرحون أنهم "لم يعمدوا فى يوم من الأيام إلى الدفاع عن حق الشعوب فى الانفصال عن الدولة الروسية ". ولا شك ان هذا المسلك هو أحد مبادئ السياسة "القومية الحرة" التى يتمشى عليها الدستوريون الديموقراطيون، والتى تجعلهم يتجانسون مع جماعة يوريشكيفيتش، ويتبعونهم سياسيا من الناحيتين الفكرية والعملية. تقول البروليتارسكايا برافدا " : لقد درس سادتنا الكاديت التاريخ، وهم يعرفون جيدا المذابح العنصرية التى أدى اليها غالبا فى الواقع. حق جماعة يوريشكيفيتش التقليدى فى تطبيق سياسة الحزم والقمع الصارم" .

وعلى الرغم من معرفة الكاديت التامة بالاساس والطبيعة الاقطاعيين الذين ترتكز عليهما سيطرة اليوريشكيفيتشيين فانهم لا يزالون مع ذلك قابعين ضمن نطاق العلاقات والحدود التى تؤلفها تلك الطبقة. وعلى الرغم من معرفة الكاديت أيضا لكل ما فى العلاقات والحدود التى تؤلفها تلك الطبقة من روح غير أوربية. بل معادية للروح الاوربية (كدت أقول آسيوية . لولا خوفى من أن يحمل كلامى على محمل الازدراء، الذى ليس له ما يبرره. بالصينيين واليابانيين وغيرهم)،

فإن هؤلاء الكاديت أنفسهم ينظرون إلى تلك العلاقات وتلك الحدود كأنها الحد الفاصل الذى لا يمكن تخطيه هذا هو الموقف الذى نسميه التوافق مع اليوريشكيفيتشيين، والخضوع لهم، والخوف من زعزعة كيانهم، وحمايتهم من الحركة الشعبية ومن الديموقراطية، وهذا معناه فى الواقع، على حد قول البروليتارسكايا برافدا" التلاؤم مع مصالح الاقطاعيين ومع أفظع نزعات التسلط القومى التى تخلفها القومية المتسلطة، بدلا من محاربة تلك النزعات بصورة منظمة متواصلة".

أن الكاديت بوصفهم أناسا يعرفون التاريخ ويدعون الطموح إلى الديموقراطية. لا يبذلون أية محاولة للتأكيد بأن الحركة الديموقراطية التى تميز، فى أيامنا، أوربا الشرقية وآسيا أيضا، وتهدف إلى صوغ الأولى والثانية على غرار الاقطار الرأسمالية المتمدنة، ينبغى أن تترك الحدود التى قررتها حقبة اقطاعية دون أى تعديل. وهى الحقبة التى ساد فيها سلطان اليوريشكيفيتشيين وطغى فيها التحكم والاستبداد بجماعات غفيرة من البورجوازية ومن البورجوازية الصغيرة .

ولكن ثمة حادثا آخر يثبت أيضا ان القضية التى اثارتها المشادة بين "البروليتارسكايا بزفدا" و "الريتش" لم تكن مجرد قضية أدبية، بل كانت متصلة رأسا بالحالة السياسية اليومية، هو المؤتمر الاخير الذى عقدة الحزب الدستورى الديموقراطى من ٢٣ إلى ٢٥ آذار ١٩١٤) عن المؤتمر ما يلى :

"وكانت القضايا القومية أيضا موضع نقاش غاية فى الحدة صرح نواب كييف ، الذين انضم إليهم نيكراسوف وكوليوباكين أن المسألة القومية هى عنصر عظيم يزداد نضجا وينبغى دعمه ومناصرتة بجرأة أكثر من ذى قبل. على أن كوكوشكين اشار مع ذلك إلى أن كلا من البرنامج والتجربة الساسية السابقة يجب منتهى الحذر فى أستعمال "الصيغ المطاطة، عن حرية القوميات فى تقرير مصيرها السياسى" .

إن هذا الإستدلال المرموق الذى عرض فى مؤتمر الدستوريين الديموقراطيين، حرى بأن يثير اهتماما بالغا لدى جميع الماركسيين والديموقراطيين. (ولنسجل هنا، بين هلالين، إن جريدة " كييفسكاياميسل" التى يبدو انها مطلعة تماما والتى لا شك انها تنقل آراء السيد كوكوشكين

بأمانة كلية، أضافت ان كوكوشكين هذا لوح بخطر "تصدع" الدولة تلويحا خاصا، على سبيل تنبيه معارضيه طبعا). ويبدو بجلاء إن المحضر الرسمى الذى إذاعته "الريتش"، قد صيغ ببراعة دبلماسية فائقة، كيلا يكشف اكثر من اللازم عن مقاصد المؤتمر الحقيقية، لكى تبقى مخيفة إلى أقصى حد ممكن .

غير أن ما جرى فى المؤتمرات واضح تماما فى خطوطه الكبرى . فلاشك أن ثمة مندوبين من البرجازيين الأحرار المطلعين على الحالة فى اوكرانيا، من "العناصر اليسارية" فى الحزب، قد أثاروا قضية حرية الشعوب فى تقرير مصيرها السياسى. وإلا لما اضطر السيد كوكوشكين الى التذكير بألا " تستعمل تلك الصيغة إلا بمنتهى الحذر".

ففى برنامج الدستوريين الديموقراطيين، الذى كان مندوبو المؤتمر يعرفونه طبعا، اشارة صريحة إلى حرية تقرير المصير "الثقافى" لا السياسى . إذن فان السيد كوكوشكين كان فى المؤتمر يدافع عن البرنامج ضد مندوبى أكرانيا ، ضد العناصر اليسارية فى الحزب. أى كان يدافع عن حرية تقرير المصير الثقافى ضد حرية تقرير المصير "السياسى". وطبيعى أن السيد كوكوشكين حين يقاوم حرية تقرير المصير "السياسى" ويلوح بخطر "تصدع الدولة" .

وينعت شعار "حرية تقرير المصير السياسى" بأنه صيغة "مطاطة" (وفقا لفكرة روزا لوكسمبورغ ذاتها !) إنما كان يدافع عن مواقف القوميين الأحرار الروس ضد العناصر الأكثر "يسارية" والأكثر ديموقراطية فى الحزب الدستورى الديموقراطى من جهة، وضد البرجوازية الأوكرانية من جهة ثانيه .

لقد فاز السيد كوكوشكين فى المؤتمر فى النهاية، كما يتضح من بعض الألفاظ الفاضحة التى وردت فى محضر "الريتش". وفاز اتجاه القوميين الاحرار الروس بين صفوف الدستوريين إلديموقراطيين . ولذا أفلا ينبغى أن يساعد هذا: لنصر على تنوير أفكار الماركسيين الروس المشوشى الرأى، الذين بدأوا هم ايضا يخشون" الصيغ المطاطة بشأن حرية القوميات فى تقرير مصيرها السياسى ، بعد الدستوريين القوميين-؟

و"لكن" لنتبع تسلسل أفكار كوكوشكين حتى نصل إلى قرارة الاشياء. لقد برهن حضرتة حين استشهد "بالتجربة السياسية الماضية" (أى بتجربة عام ١٩٠٥ ، ولا شك ، يوم جزعت البورجوازية الروسية على امتيازاتها القومية وانتقلت عدوى الجزع الى صفوف حزب الدستوريين الديموقراطيين) ، وحين لوح بخطر "تصدع الدولة" إنه يدرك تماما أن حرية تقرير. المصير السياسى لا يمكن ان تعنى الا حق الانفصال وإنشاء دولة قومية مستقلة .

وهنا يبرز هذا السؤال: كيف ينبغى النظر إلى مخاوف السيد كوكوشكين من ناحية الديموقراطية عموما ، ومن ناحية نضال البروليتاريا الطبقى خصوصا ؟

يريد السيد كوكوشكين أن يحملنا على الإعتقاد بأن الاعتراف بحق الانفصال يقوى خطر "تصدع الدولة" ! ان وجهة النظر هذه هى عين وجهة نظر الشرطى "ميمرشوف" الذى جعل شعاره : "الحزم والقمع الصارم" اما من وجهة نظر الديموقراطية عموما، فالعكس هو الصواب: أى أن الاعتراف بحق الانفصال يقلل خط " تصدع الدولة " .

أن السيد كوكوشكين يفكر على طريقة غلاة القوميين ذاتها فقد أرغى

هؤلاء وازبدوا "فى مؤتمرهم الاخير. ضد اقران" مازيبا "الاوكرانية" وصاح السيد سافنكو وشركاه قائلين: إن الحركة الاوكرانية تهدد باضعاف الصلة التى تربط اوكرانيا بروسيا. لأن النمسا تقوى روابط الاوكرانيين عن طريق تحببها لهم !! وما دامت الحال كهذه فنحن لا نفهم لماذا يصعب على روسيا أن تسعى إلى "تقوية" الصلة التى تربط الاوكرانيين بها، باتباع تلك الطريقة التى تهاجم السيد سافنكو وجماعته النمسا لاستخدامها إياها، أى بمنح الاوكرانيين حرية استعمال لغتهم القومية، والتمتع بالاستقلال الذاتى، وانشاء مجلس ذاتى مستقل ... إلخ ؟

إن محاكمات سافنكو وكوكوشكين ومن لف لفهما، متماثلة تماما ومتوازنة فى السخف والصفاقة من ناحية المنطق الصرف، اليس واضحا انه بقدر ما تنال القومية الاكرانية العائشة فى هذا القطر أو ذاك ، قسطا من الحرية، تشتد بالتالى قوة الصلة التى تربط تلك القومية بذلك القطر؟ إنه ليصعب جدا رد هذه الحقيقة الأولية، دون التخلى نهائيا عن أبسط بديهيات المبادئ الديموقراطية، فهل يمكن أن نتصور تمتع قومية من القوميات بحرية أعظم من حرية الانفصال، بحرية انشاء دولة قومية مستقلة؟

ولكن دعونا نستعين بأبسط الامثلة لنشرح هذه القضية التى بلبلها الاحرار (ومن يسير على خطواتهم بدون تفكير، شرحا أوفى) لنأخذ مسألة الطلاق . تقول روزا لو كمسمبورغ فى مقالها :

"إن الدولة الديموقراطية المركزية، ينبغى عليها إبقاء جميع ميادين التشريع الرئيسية من صلاحية البرلمان المركزى، وفى جملتها تشريع الطلاق ، رغم إنها تقبل أن يتمتع بعض اجزائها بالاستقلال الذاتى. إن هذا الحرص على جعل السلطة المركزية فى الدولة الديموقراطية تؤمن هى

نفسها حرية الطلاق، أمر سهل الادراك جدا. فالرجعيون هم خصوم حرية الطلاق، وهم يصرون على إلا تستعمل هذه الحرية إلا بمنتهى الحذر"، ويعلنون انها "تصدع العائلة" ،

أما الديموقراطية فتعتبر أن الرجعيين هم جماعة رياء ونفاق، وأنهم يدافعون فى الواقع عن سيطرة البوليس والادارة، وعن امتيازات جنس آخر، وينادون باشد أنواع اضطهاد المرأة، وبالتالى تؤكد الديموقراطية أن حرية الطلاق لا تعنى مطلقا "تصدع" روابط العائلة، بل على العكس ازدياد تماسكها على أسس ديموقراطية، وهى الاسس الوحيدة الممكنة، والثابتة فى مجتمع متمدن.

ولا ريب أن إتهام أنصار اعطاء الشعوب حرية تقرير مصيرها أى حرية الانفصال، بانهم يشجعون الميل إلى الانفصال، يعادل فى السخف والنفاق اتهام انصار حرية الطلاق بانهم يشجعون على تهديم روابط العائلة، فكما أن حماة الامتيازات والنخاسة والرشوة التى يقوم عليها الزواج البورجوازى فى المجتمع الحاضر، يحملون على حرية الطلاق، كذلك فان من ينكر على القوميات، فى دولة رأسمالية، حرية تقرير مصيرها بنفسها، اى حرية انفصالها إنما يدافع لبموقفة هذا عن امتيازات القومية المسيطرة وعن الاساليب الارهابية فى الحكم ، ضد الاساليب الديموقراطية .

ومن الثابت أن العادات الدارجة فى التطبيقات السياسية، والناتجة عن مجموع علاقات المجتمع الرأسمالى، تثير أحيانا، لدى البرلمانيين والكتاب السياسيين، لغوا مغرقا فى الطيش بل فى السخافة حول قضية انفصال هذا أو ذاك من الشعوب.

ولكن ذوى الميول الرجعية وحدهم يستسلمون إلى الخشية (أو التظاهر

بالخشية) من مثل هذا اللغو. أما من يقف بجانب وجهة النظر الديموقراطية، أى جانب المبدأ القائل بأن حل المسائل السياسية ينبغى أن يأتى عن طريق جماهير الشعب، فانه يعلم علم اليقين أن بين لغو السياسة وقرار الجماهير "مسافة شاسعة"، فجماهير الشعب تدرك ادراكا قويا متأتيا عن تجاربها اليومية الخاصة، أهمية القرابة الجغرافية والاقتصادية، وفوائد فسيحة الارجاء ودولة شاسعة الاطراف.

ولهذا فانها لاتلجأ إلى طلب الانفصال إلا حين يصبح الاضطهاد الاقومى الذى تكابده، النزاعات، القومية التى تتعرض لها خطيرا تتعذر معه الحياة المشتركة تماما. تتعرقل العلاقات الاقتصادية على اختلاف أنواعها. وعندها تغدو مصلحة التطور الرأسمالى ومصلحة حرية النضال الطبقى بجانب الفريق المنفصل.

هكذا، فمن ناحية نظرنا إلى محاكمات السيد كوكوشكين وجدنا أنها فى غاية الصفاقة، ومجرد عبث بمبادئ الديموقراطية على أن هناك بعض المنطق فى تلك المحاكمات، هو منطق مصالح الطبقة البورجوازية فى القومية الروسية. فالسيد كوكوكشيكين شأنه شأن أكثرية الحزب الدستورى الديموقراطى، هو حارس صناديق تلك البورجوازية.

أنه إلى جانب بوريشكيفيتش، يدافع عن امتيازاتها بصورة عامة، وعن امتيازاتها فى الدولة بصورة خاصة. إلا أن بوريشكتيفيش يؤمن أكثر منه بعصا القنانة، فى حين أن كوكوشكين وشركاه يدركون جيدا أن تلك العصا قد نخرت إلى حد كبير فى عام ١٩٠٥، فباتوا يعتمدون على الأساليب البورجوازية فى خداع الجماهير : ومن جملة تلك الاساليب تخويف البورجوازيين الصغار والفلاحين بشبح "تصدع الدولة" مثلا وتضليلهم

بواسطة الالفاظ المنمقة بإمكان التوفيق بين "الحرية الشعبية" والمبادئ التاريخية التقليدية ....إلخ

إن المعنى البقى الصحيح لهذا العداء الذى يضمره الأحرار لمبدأ حرية الأمم فى تقرير مصيرها السياسى. هو واحد، وواحد فقط: نزعة التسلط القومى لدى الاحرار، وضمان امتيازات الدولة البرجوازية القومية الروسية . أما العناصر الانتهازية الروسية من بين الماركسيين، التى تعلن اليوم، وخصوصا اليوم فى عهد نظام ٣ حزيزان ، تلك الحملة الشعواء على حق الشعوب فى تقرير مصيرها، نقول ان هذه العناصر كلها - من داعية التصفية سمكوفسكى، إلى البوندى ليبمن، إلى البرجحوازى الصغير الأوكرانى يوركيفيتش - تجرى فى الواقع، بكل بساطة، وراء القوميين الأحرار وتفسد صفوف الطبقة العاملة باراء هؤلاء .

إن مصلحة الطبقة العاملة ومصلحة نضالها ضد الرأسمالية ليحتمان التضامن التام، والوحدة الوثيقة العرى بين عمال جميع الشعوب. وهما يتطلبان التشديد فى الرد على سياسة التسلط القومى التى تنهجها برجوازية أية قومية من القوميات. وكل موقف من شأنه أن ينكر على الشعوب المستضعفة حقها فى تقرير مصيرها، أى حقها فى الانفصال،

بل كل موقف من شأنه تأييد جميع المطالب القومية التى تضعها بورجوازية الشعوب المستضعفة معناهما دفع الاشتراكيين الديموقراطيين إلى التهرب من أهداف السياسة البروليتارية، وتستخير لعمال لتنفيذ اغراض السياسة البورجازية. ولا فرق عند العامل المأجر أن تكون برجوازية القومية الروسية هى التى تستثمرة فيؤثرها على برجوازيته المحلية ، أو البورجوازية البولونية فيفضلها على البورجوازية اليهودية .... إلخ . أن العامل المأجور

الذى يعى مصالح طبقته ويدركها، لا يفرق بين امتيازات الدولة التى يعمل لها رأسماليو الروسية، وبين الوعود التى يغدقها الرأسماليون البولونيون أو الاوكرانيون بانشاء فردوس على الأرض حين يستمتعون بامتيازات لهم فى الدولة. إن تطور الرأسمالية يتابع طريقه، على كل حال، وسيتابع سيرة سواء فى دولة ذات قوميات متعددة او فى دول قومية متمايزة .

إن الاستثمار لاحق بالعامل المأجور فى جميع الحالات . فلكى ينجح فى نضاله ضد هذا الاستثمار ، يجب ان تتحرر البروليتاريا من كل نزعات التسلط القومى، وأن يكون العمال حياديين تماما - اذا صح التعبير - فى النضال الناشب بين بورجوازيات الشعوب المختلف من اجل السيطرة . وأن ادنى تأييد تقدمه بروليتاريا شعب من الشعوب لنصرة امتيازات بورجوازية القومية، لا بد أن يثير حذر بروليتاريا الشعوب الأخرى، وأن يضعف التضامن الشعبى فى صفوف طبقة العمال ، ويحدث لانقسام فيها بين فرح البورجوازيةوابتهاجها.

ولذا فكل نكران لحق تقرير المصير أو لحق الانفصال معناه حتما من الناحية العملية ، تأييد امتيازات القومية الحاكمة وباستطاعتنا أن نقتنع بصحة هذا المبدأ بوضوح وجلاء أكثر إذا اخذنا مثالا واقعيا على ذلك ، هو مثال انفصال النروج عن السويد .

انفصال النرويج عن السويد

تناولت روزا لوكسمبورغ هذا المثال خصيصا، وشرعت تعلق عليه على الصورة التالية :

"إن آخر حادث فى تاريخ العلاقات الاتحادية، ونعنى به انفصال النروج عن السويد وهو الحادث الذى اتخذته الصحافة الاشتراكية الوطنية

البولونية (انظر جريدة " نابرزود" الكراكوفية) دليلا مقنعا على ما يتمتع به الميل إلى الانفصال السياسى من صفة تقديمة .

إن هذا الحادث، قد تحول فورا إلى برهان قاطع على أن الاتجاه الاتحادى والانفصال السياسى الذى ينتج عنه ، لا يؤلفان قط دليلا على التقدم والديموقراطية، فبعد النروجية المزعومة التى اقتصرت على خلع ملك السويد وعلى أبعاده عن النرويج، عمد النرويجيون بكل هدوء الى تنصيب ملك آخر، بعد أن رد الاستفتاء بصورة قاطعة مشروع اعلان الجمهورية.

وهكذا تبين أن الحدث الذى سماه بعض المعجبين السطحيين بكل حركة قومية وبكل مايشبه الاستقلال: "ثورة" لم يكن فى الحقيقة إلا مظهر بسيطا من مظاهر الانفرادية عند بعض الفلاحين البورجوازيين الصغار، ومن رغبة هؤلاء فى أن يكون لهم، كما هى الحال فى أموالهم، ملك خاص بهم عوضا عن الملك الذى فرضته عليهم الاريستوقراطية السويدية.

فلم يكن لتلك الحركة إذن أى طابع نورى على الإطلاق. ويدل انفراط عقد الوحدة السويدية - النرويجية أيضا على الاتحاد الذى كان قائما حتى ذلك الحين لم يكن إلا تعبيرا صرفا عن مصالح الأسر المالكة، وبالتالى شكلا من التيار الملكى والرجعية .

هذا كل ما قالته روزا لوكسمبورغ حول هذا الموضوع!! ومن الواجب الاعتراف بأن من الصعب ايضاح موقفها بأحسن مما فعلت هى ذاتها فى المثال المذكور .

لقد كان المقصود، ولا يزال، معرفة هل من الضرورى أن يكون للإشتراكيين الديموقراطيين العاملين فى نطاق دولة ذات تركيب قومى مختلط، برنامج يعترف بحق تقرير المصير أو الانفصال .

فعلام يدل فى هذا المجال مثال النروج الذى اختارته روزا لوكسمبورغ نفسها ؟

أننا نرى كاتبتنا تلف وتدور تتفنن وتهاجم "النأبروزود" ولكن بدون أن تجيب صراحة على السؤال !! أنها تتحدث عن كاشئ، كيلا تقول كلمة واحدة فى جوهر المسألة !!

من الثابت أن البورجوازيون النرويجيين الصغار. الذين رغبوا فى أن يكون لهم ملك خاص بهم، كما هى الحال فى أموالهم والذين ردوا فى الاستفتاء مشروع اعلان الجمهورية، إن هؤلاء البورجوازيين الصغار قد كشفوا عن ميول بورجوازية صغيرة ذميمة حين لم تلاحظ هذا الامر .

ولكن ما شأن هذا كله هنا ؟

إن المقصود أخيرا هو حق الأمم فى تقرير مصيرها وموقف البروليتاريا الاشتراكية من هذا الحق ! فلماذا تدور روزا لوكسمبورغ إذن حول المسألة ، بدلا من معالجتها ؟

هناك مثل يقول: ليس ثمة حيوان، فى نظر الفأر، أقوى من الهر. وعلى ما يظهر، ليس ثمة حيوان فى نظر روزا لوكسمبورغ أقوى من "الفراك"! والـ "فراك" هذا، هو لفظ ودى يطلق على "الحزب الاشتراكى الولونى" أو بالاحرى على جناح هذا الحزب المسمى بالثورى. وأن جريدة "نابرزود" فى مدينة كراكوفيا تشاطر ذلك "الجناح" آراءه. وأن الحملات التى شنتها روزا لوكسمبورغ على نزعة هذا "الجناح" القومية قد أعمتها إلى درجة غاب معها كل شئ عن بصر روزا ما عدا (النابرزود)، فاذا قالت "النابروزد" : " نعم " وجدت روزا لوكسمبورغ من واجبها المقدس أن تقول رأسا (لا)، دون أن تفكر لحظه واحدة إنها بسلوكها هذا لا تعبر عن

استقلالها إزاء "النابرزود" بل بالعكس تعبر - بصورة مضحكة جدا - عن موقف تبعية بالنسبة إلى "الفراك"، وعن عدم قدرتها على النظر إلى الأمور نظرة أعمق وأكثر شمولا من نظرة قطيع كراكوفيا . صحيح أن "النابرزود" صحيفة سيئة جدا وليست ماركسية أبدا .

ولكن هذا يجب ألا يمنعنا من تحليل مثال النروج تحليلا عميقا، مادام اختيارنا قد وقع عليه، ولكى نحلل هذا المثال على أساس ماركسى، يجب علينا ألا نتوقف عند الصفات السيئة التى يتصف بها ذلك "الفراك" اللعين، بل ينبغى أن نقف قبل كل شئ عند الظروف التاريخية الواقعية الخاصة التى رافقت حادث انفصال النروج عن السويد وبالتالى، عند الأهداف التى كانت موضوعة أمام البروليتاريا فى البلدين إبان ذلك الإنفصال .

إن الروابط الجغرافية والاقتصادية واللغوية التى تقرب النروج من السويد لا تقل قوة عن تلك التى تربط القومية الروسية بعدد من الأمم السلافية الأخرى . ولكن وحدة النروج والسويد لم تتم فيما مضى بصورة اختيارية، مما جعل روزا لوكسمبورغ تخطئ عندما تسمى ذلك "اتحادا" لسبب بسيط هو أنها تجهل ماذا يجب أن تقول. فالملوك "أعطوا" النروج للسويد أيام الحروب النابوليونية، رغم إرادة النرويجيين. فكان على السويديين أن يرسلوا جيوشهم إلى النروج لإخضاعها لسلطانهم .

ولكن المنازعات بين النروج والسويد استمرت بعد ذلك، طوال عشرات السنين رغم الاستقلال الذاتى الواسع الذى كانت تتمتع به النروج (إذا كان لها مجلسها النيابى الخاص - الدييت ... إلخ) فقد كان النرويجيون يطمحون بكل قوتهم إلى تفويض نير الاريستوقراطية السويدية .وقد تم لهم ذلك أخيرا فى آب عام ١٩٠٥، عندما قرر المجلس النيابى النرويجى أن

عاهل السويد لم يعد ملكا للنروج. وجرى أثر ذلك استفتاء شعبى أقر الانفصال التام عن السويد بأكثرية ساحقة (قرابة مائتى الف مقابل بضع مئات). وقد اضطر السويديون إلى الإعتراف بهذا الانفصال بعد كثير من التردد.

إن هذا المثال يبين لنا الميدان الذى يمكن أن تتم فية حوادث الانفصال بين الأمم، مع ملاحظة العلاقات الاقتصادية والسياسية الحاضرة، كما يبين لنا أيضا الشكل الذى يرتدية الانفصال أحيانا ضمن نطاق الحرية السياسية والديموقراطية .

وكل اشتراكى ديموقراطى لم يتنكر لقضيتى الحرية السياسية، والديموقراطية لا يستطيع نكران أن هذا المثال يبرهن فعلا على أن الواجب الالزامى الموضوع أمام العمال الواعين هم القيام بدعاوة وتحضير منظمين متواصلين ليجرى حل النزعات التى يمكن أن يثيرها انفصال الأمم على طريقة وحيدة هى الطريقة التى حلت عليها النزعات بين النروج والسويد عام ١٩٠٥ ، لا على " الطريقة الروسية " وهذا ما تعبر عنه تعبيرا تام احدى مواد برنامجنا التى توجب الاعتراف بحق الأمم فى تقرير مصيرها بحرية.

ولكن روزا لوكسمبورغ اضطرت إلى التهرب من هذا الأمر الذى يناقض نظريتها، ولجأت إلى شن حملة عنيفة على ضعة البورجوازيين النرويجيين الصغار، وعلى صحيفة "النابرزود" الكراكوفية. وما فعلت ذلك الا انها كانت تدرك جيدا إلى أى حد يدحض بقوة هذا الحادث التاريخى. أقوالها الزاعمة أن حق الأمم فى تقرير مصيرها ما هو إلا شئ "خيالى"، اشبه بحق "الاكل فى صحون من ذهب ".... إلخ وواضح أن مثل هذه الأقوال الضيقة الأفق لا تعبر إلا عن إيمان انتهازى بعدم إمكان تغيير شكل نسبة القوى القائمة اليوم بين مختلف قوميات أوربا الشرقية .

لنتابع قولنا أن الذى يهمنا قبل كل شئ، وأكثر من كل شئ فى قضية حرية تقرير مصير الشعوب وفى كل قضية أخرى هو حرية بروليتاريا القوميات فى تقرير مصيرها. وقد تجنبت روزا لوكسمبورغ هذه القضية ببساطة أيضا، لانها شعرت إلى أى حد يناقض نظريتها تحليل هذه القضية فى المثال الذى اختارته بنفسها : أى مثال النروج .

كيف كان، وكيف يجب أن يكون، موقف البروليتاريا فى النروج والسويد من النزاع إلى أثاره الانفصال ؟

من الواضح أنه كان على الواعين من عمال النروج، بعد اعلان الإنفصال، أن يصوتوا للجمهورية.(١) وإذا كان هناك من الاشتراكيين من صوت على غير هذه الصورة، فإن ذلك يدل على مدى تغلغل انتهازية البرجوازية الصغيرة أحيانا فى الحركة الاشتراكية الأوربية. وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان. ونحن لم نتعرض له إلا لأن روزا لوكسمبورغ تحاول إخفاء جوهر القضية باللف والدوران حولها .

أما فيما يختص بالانفصال، فإننا نجهل ما إذا كان البرنامج الاشتراكى النرويجى، قد أوجب على الاشتراكيين الديموقراطيين فى النروج التقيد برأى معين. ولكن لنفرض أنه لم يفعل، وأن الاشتراكيين النرويجيين لم يبتوا فى أمر معرفة مدى المجال الذى يفسحه استقلال النروج الذاتى أمام حرية النضال الطبقى، ومدى عرقلة الاحتكاكات والمنازعات المتواصلة مع الاريستوقراطية السويدية لحرية الحياة الاقتصادية.

---

(١) لو كان اكثر الشعب النرويجى يؤيد الملكية ، وكانت البروليتاريا تؤيد الجمهورية ، حينئذ يصبح أمام البروليتاريا النروجية سبيلان : اما اعلان الثورة اذا كانت الظروف ملائمة ، واما الرضوخ الى الاكثرية والقيام بأعمال دعاوة وتحريض طويلة المدى .

ولكن هناك أمر لاجدال فية، هو أنه كان على البروليتاريا النرويجية أن تقف ضد تلك الارستوقراطية، وأن تعمل على تحقيق الديموقراطية بين الفلاحين النرويجيين (مهما بلغ ضيق افقهم البرجوازى الصغير). وماذا عن البروليتاريا السويدية؟ من المعروف أن كبار الملاكين العقاريين السويديين الذين يدعمهم رجال الاكليروس السويدى ، كانوا يدعون إلى إعلان الحرب على النروج.

ولما كانت النروج أضعف كثيرا من السويد، وكانت تعرضت فى الماضى للغزو السويدى، وكانت الاريستوقراطية السويدية تتمتع بمنزلة رفيعة فى بلادها، فقد كان فى تلك الدعوة خطر كبير.

وفى وسعنا المراهنة على أن جماعات الكوكوشكين السويدية قد سعت جهدها، خلال مدة طويلة، إلى إفساد الجماهير السويدية بدعوتها إلى "أن تتبنى بحذر" شعارات حرية الأمم فى تقرير المصير السياسى المطاطة " وبتبيان أخطار "تصدع الدولة" وبالتاكيد لها أن "حرية الشعب" لا تتنافى مع مبادئ الاريستوقراطية السويدية الاساسية.

ولاشك أبدا فى أن الاشتراكية الديموقراطية السويدية كانت تخون قضستى الاشتراكية والديموقراطية، ولو انها تقاعست ولم تقاوم تفكير كبار الملاكين العقارين وجماعة الكوكوشكين وسياستهم بكل ما اوتيت من قوة ، أو لو أنها تدافع، فضلا، عن مساواة الأمم فى الحقوق بصورة عامة (وهو أمر يعترف به الكوكوشكينون أيضا)، عن حق الامم فى تقرير مصيرها، أى حرية النروج فى الانفصال .

إن التحالف الوثيق بين العمال النرويجين والسويدين وتضامنهم الأخوى الطبقى التام قد استفادا من هذا الاعتراف - اعتراف العمال

السويديين – بحق النرويجيين فى الانفصال. فقد اقتنع عمال النرويج بأن عمال السويد ليسوا ملوثين بنزعات التعصب القومى، وبانهم يضعون قضية الاخاء مع أبناء البرليتاريا النرويجية فوق امتيازات البرجوازية والارستوقراطية السويدية.

إنَّ القضاء على التبعية التى فرضها ملوك أوربا والاريستوقراطية السويدية على النروج ، قد زاد من قوة الرابطة التى توحد ما بين العمال النرويجيين والسويديين. وقد برهن العمال السويديون، خلال جميع تقلبات السياسة البورجوازية، (أن عودة النروج إلى الخضوع للسويديين بالقوة ممكنة تماما ضمن نطاق العلاقات البورجوازية) على أنهم يعرفون كيف يحافظون ويبقون على المساواة التامة فى الحقوق وعلى التضامن الطبقى بين عمال البلدين المناضلين ضد البورجوازية السويدية وضد البورجوازية النرويجية.

إن هذا الأمر، وكثيرا غيره ، يرينا وهن وحتى سخف المحاولات التى يلجأ اليها "الفراك" احيانا "لاستغلال" خلافاتنا مع روزا لوكسمبورغ. فى مناهضة الاشتراكية الديموقراطية البولونية. أن "الفراك" ليس حزبا بروليتاريا أو اشتراكيا أعماها التعصب القومى، وقد اضطرهم الى " تشديد العيار" بحماس بل هو حزب قومى برجوازى صغير شبيه بحزب الاشتراكيين الثوريين البولونيين .

فلم يخطر ببالنا يوما، ولا يمكن أن يخطر ببالنا أبدا، التوحيد بين الاشتراكيين الديموقراطيين الروس وبين هذا الحزب ، وليس أحد بيننا – نحن الاشتراكيين الديموقراطيين فى روسيا – من "يندم" على عدم التقارب بيننا وبين الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيين. ويعود للاشتراكية

الديموقراطية البولونية الفضل التاريخى العظيم فى أنها أوجدت لأول مرة فى بولونيا، المشربة بنزعات التعصب القومى، حزبا ماركسيا، بروليتاريا حقيقيا.

ولكن عظمة هذا الفضل لا تعود إلى أن روزا لوكسمبورغ نثرت السخافات ضد الفقرة التاسعة من البرنامج الماركسى الروسى بل قامت هذه العظمة رغم تلك الباردة المؤسفة، ولا شك أن "الحق فى تقرير المصير" لا يتمتع عند الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيين بالاهمية التى يتمتع بها عند الاشتراكيين الديموقراطيين الروس. وطبيعى أن يكون نضال الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيون ضد البورجوازية البولونية الصغيرة التى أعماها التعصب القومى،

قد اضطر إلى "تشديد العيار" بحماس زائد (وأحيانا مبالغ فيه قليلا). ولم يخطر ببال أحد من الماركسين الروس أن ينحنى بالملائمة على الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيين لمعارضتهم فى انفصال بولونيا ، ولا يخطى هؤلاء الاشتراكيون إلا حين يحاولون نكران ضرورة اعتراف برنامج الماركسين الروس بحق تقرير المصير.

كما فعلت روزا لوكسمبورغ ويعنى هذا، فى النتيجة، الرغبة فى تطبيق قاعدة مفهومة من وجهة النظر الكراكوفية، على نطاق جميع شعوب روسيا وجميع قومياتها بما فيها القومية الروسية .

إن هذا الموقف لحرى "بقوميين بولونيين متعصبين تعصبا أعمى" لا باشتراكيين ديموقراطيين روسيين ، لا باشتراكيين ديموقراطيين شعبيين.

إن الاشتراكية الديموقراطية الشعبية تحرص كل الحرص على الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها.

قرار المؤتمر الشعبى

المنعقد فى لندن عام ١٨٩٦

يقول هذا القرار :

"يعلن المؤتمر تأييده المطلق لحق جميع الشعوب فى حرية تقرير مصيرها، ويعرب عن عطفه نحو عمال كل قطر يقاسى آنيا نير أنظمة الاستبداد العسكرية من وطنية أو أجنبية ، ويدعو عمال جميع هذه الاقطار الى الانضمام الى صفوف العمال الواعين (أى الواعين لمصالح طبقتهم) فى العالم أجمع، للنضال معهم فى سبيل تحطيم الرأسمالية العالمية وتحقيق أهداف الاشتركية الديموقراطية الشعبية" (١) .

إن الانتهازيين، السادة سيمكوفسكى وليبمن ويوركيفيتش يجهلون كل شئ عن هذا القرار، كما ذكرنا آنفا. ولكن روزا لوكسمبورغ تعرفة وتورد نصه الكامل وقد تضمن العبارة ذاتها التى وردت فى برنامجنا: عبارة "حرية تقرير المثير " .

قد يتساءل المرء : كيف عملت روزا لكسمبرغ لازالة تلك العقبة التى تعترض طريق نظريتها "الطريقة" الجواب بسيط جدا : ذلك أن مركز الثقل قائم هنا فى الشق الثانى من القرار.

قائم فى طابعة التقريرى ، حيث لا يمكن الاستشهاد به الا باساءة فهمة !

---

(١) راجع المحضر الرسمى لمؤتمر احزاب العمال الاشتراكية والنقابات ، المنعقد فى لندن من ٢٧ تموز إلى ال آب ١٨٩٦ طبعة برلين (١٨٩٧) ، صفحة ١٨ .

إن عجز كاتبتنا وتبلبلها يثيران الدهشة حقا . فليس غير الانتهازيين، الذين يتجنبون ، تحت عامل الخوف ، اعلان اية حملة مكشوفة على النقاط الديموقراطية الاشتراكية الصريحة من البرنامج ، من يتحدث عن طابع هذا البرنامج التقريرى. فلم يكن من قبيل الصدفة إذن أن تجد روزا لوكسمبورغ نفسها هذه المرة فى رفقة غير مشرفة مع سمكوفسكى وليبمن ويوركيفيتش .

إن روزا لوكسمبورغ لا تجرؤ على القول صراحة ما اذا كانت تعتبر هذا القرار خاطئا أم صائبا . إنها تلف وتدور وتتهرب ، كأنها تعتمد على سهو أو جهل يأخذان القارئ الذى قد نسى الشق الاول من القرار حسن وصوله الى الشق الثانى ، او الذى لم يسمع شيئا عن المناقشات التى جرت فى الصحافة الاشتراكية قبل مؤتمر لندن .

على أن روزا لوكسمبورغ تخطئ جدا إذا كانت تظن أن بامكانها أن من اليسير عليها أن تدرس قرار مؤتمر شعبى يعالج قضية مبدئية هامة ، أمام عمال روسيا الواعين ، دون أن تكلف نفسها عناء تحليله بروح النقد النزيه .

لقد أعلنت روزا لوكسمبورغ عن وجهة نظرها، أثناء المناقشات التى سبقت انعقاد متمر لندن، والتى تضمنتها مجلة الماركسيين الألمان "دى نوت زيت" بشكل خاص، إلا أن وجهة نظرها هذه اخفقت فى الواقع أمام المؤتمر الشعبى! هذه هى الحقيقة التى ينبغى أن لا تغرب أبدا عن بال القارئ الروسى .

لقد دارت المناقشات يومئذ حول قضية استقلال بولونيا وكان هناك وجهات نظر .

أولا – وجهة نظر جماعة "الفراك" الذين تكلم بامهم "هيكر" وكان هؤلاء يريدون أن تعترف الشعبية فى برنامجها بمطلب استقلال بولونيا، فلم يقبل هذا الاقتراح . وأخفقت وجهة نظرهم فى المؤتمر .

ثانيا – وجهة نظر روزا لوكسمبورغ القائلة بألا يطالب الاشتراكيون البولونيون باستقلال بولونيا، دون أن تتضمن هذه الوجهة اعلان حق الشعوب فى حرية تقرير المصير. فاخفقت هى ايضا فى المؤتمر .

ثالثا – وجهة النظر التى أبداها وتعمق فى شرحها كارل اكوتسكى حين رد على روزا لوكسمبورغ مظهرا الطابع "الوحيد الجانب" فى نظريتها المادية. وتبين من وجهة النظر هذه، أن الشعبية لا يمكنها فى الوقت الحاضر أن تضع لنفسها برنامجا يطالب باستقلال بولونيا. إلا أن الاشتراكيين البولونين لهم ملء الحق فى وضع هذا المطلب فى برنامجهم . فلا شك ان من الخطأ ، فى نظر الاشتراكيين ، تجاهل التحرر الوطنى فى نطاق الاضطهاد القومى .

وهكذا تضمن قرار الشعبية النقاط الرئيسية، الاساسية. التى جاءت فى وجهة النظر الثالثة : اعتراف مطلق لا يحتمل أى تأويل خاطئ "بحق جميع الشعوب فى حرية تقرير مصيرها"، من جهة ، ودعوة صريحة الى جميع العمال لتحقيق الوحدة الشعبية فى نضالهم الطبقى، من جهة أخرى. وفى اعتقادنا أن هذا القرار صائب كل الصواب. وهو باشتماله على قسيمة المترابطين، يضع أمام بلدان أوربا الشرقية وآسيا فى مطلع القرن العشرين، الخطة الصحيحة الوحيدة التى ينبغى على السياسة الطبقية البروليتارية أن تنتهجها فى القضية القومية.

فلنتوسع الآن قليلا فى بحث وجهات النظر الثلاث السالفة : من

المعروف أن كارل ماركس وفريريك انجلزا كانا يعتبران تأييد استقلال بولونيا تأييدا فعالا قويا، واجبا الزاميا على الحركة الديموقراطية فى أوربا الغربية، وبالأحرى على الحركة الاشتراكية الديموقراطية.

وكان وجهة النظر هذه ، فى الاعوام ١٨٤٠ - ١٨٦٠، أى فى عهد الثورة البورجوازية فى النمسا والمانيا، وعهد الاصلاح الزراعى" فى روسيا، صحيحة وصائبة جدا،، بل كانت وجهة النظر الديموقراطية الحقة والبروليتاريةالوحيدة.

ففى تلك الحقبة من الزمن، حيث كانت الجماهير الشعبية فى روسيا وفى معظم البلدان السلافية لا تزال مستغرقة فى سبات عميق، وحيث لم تكن الحركات الديموقراطية الجماهيرية المستقلة قد برزت بعد فى تلك البلاد، كانت حركة التحرر البولونية التى قام بها الأمراء والأسياد، تتعاظم نفوذا وأهمية، وتحتل مكانا بارزا من الوجهة الديموقراطية، لا بالنسبة إلى روسيا كلها أو إلى جميع البلدان السلافية فحسب، بل وبالنسبة إلى اوربا باسرها ايضا.

ولكن إذا كانت وجهة نظر ماركس هذه، صحيحة وصائبة تماما بالنسبة إلى ظروف الثلث الثانى أو الربع الثالث من القرن التاسع عشر، فانها فقدت صحتها اليوم فى ظروف القرن العشرين. فثمة حركات ديموقراطية مستقلة بل حركة ديموقراطية برليتارية، قد برزت إلى حيز الوجود فى معظم الأقطار السلافية، وحتى فى روسيا أكثر هذه الاقطار تأخرا. وزالت بولونيا الاسياد والامراء لتقوم مقامها بولونيا الرأسمالية. فكان لابد لبولونيا، فى هذه الظروف من أن تفقد أهميتها الثورية الاستثنائية.

فلما حاول "الحزب الاشتراكى البولونى" (أى جماعة "الفراك" اليوم) أن "يطبق" فى عام ١٨٩٦ وجهة نظر ماركس الموضوعة لغير تلك الحقبة، كان موقفه هذا انما يعنى فى الواقع استغلال نصوص الماركسية ضد روح الماركسية. لهذا كان الاشتراكيون الديموقراطيون الولونيون محقين تماما فى وقوفهم فى وجه نزعة التعصب القومى التى إنجرت فى تيارها البورجوازية البولونية الصغيرة، وفى تبيانهم الاهمية الثانوية التى تتمتع بها القضية القومية بالنسبة إلى العمال البولنيين، وفى تأسيسهم حزبا بروليتاريا صرفا لأول مرة فى بولونيا، وفى تبنيهم مبدأ على جانب عظيم من الأهمية، مبدأ التحالف الوثيق بين العمال البولونيين والروسيين فى نضالهم الطبقى.

ولكن هل كان ذلك يعنى أن بإمكان الشعبية، فى مطلع القرن العشرين، إلا تعترف لاوربا الشرقية وآسيا بضرورة مبدأ حرية تقرير مصير الشعوب السياسى وبحقهم فى النفصال؟ لا طبعا. لأن سلوكها كهذا هو أكبر حماقة كان يمكن أن يرتكبها، وهو يعنى (نظريا) الاعتراف بأن التحول الديموقراطى البورجوازى قد تم نهائيا فى تركيا وروسيا والصين ويعتبر (عمليا) بمثابة موقف انتهازى تجاه الإستبداد المطلق .

كلا ثم كلا . ذلك أن أوربا الشرقية وآسيا تعيشان اليوم فى عهد بدء نشوب الثورات الديموقراطية البرجوازية، وعهد انبثاق الحركات القومية وتعاظم شأنها، وعهد ظهور الاحزاب البروليتارية المستقلة . ولذا فان المهمة الملقاة اليوم على عاتق هذه الاحزاب فى مجال السياسة القومية يجب أن تكون مزدوجة :

أولها : الإعتراف بحق حرية تقرير المصير لجميع الشعوب لأن التحل الديموقراطى البرجازى لم ينته بعد، ولأن الديموقراطية التى تنادى بها

الطبقة العاملة تدفع عن مساواة الشعوب فى الحقوق دفاعا جديا صادقا مستمرا لا يشبهه فى شئ دفاع الاحرار والكوكوشكينيين عنها.

وثانيها : الإتحاد الوثيق الذى لا انفصام له، بين بروليتاريى جميع قوميات الدولة الواحدة ، فى نضالهم الطبقى ، خلال جميع أحداث التاريخ، وخلال جميع التعديلات التى تجريها البرجوازية على حدود الدُول .

هذه هى المهمة المزدوجة التى يضعها قرار الشعوب الصادر فى عام ١٨٩٦، أمام البروليتاريا، وهذه هى المبادئ التى قام عليها قرار مؤتمر الماركسيين الروس الذى إنعقد فى صيف عام ١٩١٣ .

وهناك أناس يجدون بعض "التناقض" فى إعتراف الفقرة الرابعة من ذلك القرار بحق حرية تقرير المصير. بحق "الانفصال" وفى تساهلها كما يبدو، بالتعصب القومى الى اقصى حد (الحقيقة أن الاعتراف بحق جميع الشعوب فى تقرير مصيرها يتضمن حداً أقصى من النزعة الديموقراطية وحدا أدنى من التعصب القومى) فى حين أن الفقرة الخامسة من ذلك القرار تحذر العمال من شعارات التعصب القومى التى تلقيها كل برجوازية، ويدعو إلى وحدة عمال جميع القوميات،

وإلى تجمعهم فى منظمات بروليتارية شعبية متحدة . ولكن العقول السطحية وحدها هى التى تجد فى هذا شيئا من "التناقض" تلك العقول التى تعجز عن إدراك سبب استفادة قضية وحدة طبقة البروليتاريا وتضامنها فى السويد والنروج من دفاع العمال السويديين عن حرية النروج فى الانفصال وفى تأليف دولة مستقلة.

كارل ماركس الخيالى

روزا لوكسمبورغ العملية

إن روزا لوكمبورغ التى نعتت المطالبة باستقلال بولونيا بالشئ "الخيالى" ورددت هذا القول مرارا وتكرارا، أخذت تصيح بكل هزء وسخرية: ولماذا لا نطالب باستقلال ايرلندا ؟

لا شك أن روزا لوكسمبورغ "العملية" تجهل كيف كان موقف كارل ماركس من إستقلال أيرلندا. فمن المفيد اذن ان نتوقف قليلا عند هذه النقطة، لنعطى مثالا على الطريقة الماركسية الحقة، لا الانتهازية، فى تحليل شعار واقعى من شعارات الاستقلال الوطنى .

كان من عادة ماركس – على حد تعبيره – أن "يفحص أسنان معارفه من الاشتراكيين، بتأكد من درجة وعيهم وصلابة عقيدتهم فلما تعرف الشاب الروسى "لوباتين" كتب إلى انجلز فى ١٥ تموز ١٨٧٠ رسالة أطرى ذلك الشاب فيها كل الاطراء إلا أنه أضاف :

"ولكن فيه نقطة ضعف هى: بولونيا. أن لوباتين – يتحدث عن هذا الموضوع ، كما يتحدث الانكليزى – أو على الأصح كما يتحدث انكليزى حر دستورى (شارتيست) من المدرسة القديمة – عن ايرلندا ."

يسأل ماركس اشتراكيا، من أبناء أمة متسلطة، عن موقفة من الشعب المستضعف،

فليس عنده فورا ذلك العيب الشائع بين اشتراكى الشعوب المتسلطة (الانكليزية والروسية) وهو : جهل واجباتهم الاشتراكية ازاء الشعوب

المستضعفة جهلا فاضحا، وترديد الآراء الخاطئة والأوهام المضرة، المسبقة من قاموس بورجوازية "القومية العظمى المتسلطة" ترديدا سمجا .

وقبل أن ننتقل إلى تصريحات ماركس الإيجابية لبشأن ايرلندا، لابد من إبداء تحفظ نشير فيه إلى أن ماركس وانجلزا كانا يعالجان المسألة القومية عموما بروح نقدية صارمة، لأنهما كانا يقدران أهميتها على ضوء الظروف التاريخية، ومن الامثلة على ذلك أن انجلز كتب إلى ماركس فى ٢٣ آيار ١٨٥١ يقول أن دراسة التاريخ قادته إلى نتائج تشاؤمية فيما يتعلق ببولونيا. فهذا القطر ذو أهمية موقتة،

لا تدوم إلا إلى حين نشوب الثورة الزراعية فى روسيا. وأن دور البولونيين فى التاريخ كان عبارة عن "حماقات جريئة" ولا يمكن الافتراض لحظة واحدة أن بولونيا، حتى بالنسبة إلى روسيا وحدها، يمكن ان تمثل الرقى أو أن يكون لها أية أهمية تاريخية. ففى روسيا، من عناصر المدنية والثقافة والصناعة والتطور البورجوازى، أكثر بكثير مما فى بولونيا الفروسية(١) الخاملة "

"ما قيمة فرصفيا وكراكوفيا إلى جانب بطرسبورج وموسكو وأدويسا!" والخلاصة أن انجلز لم يكن يثق بنجاح انتفاضات النبلاء البولونيين.

ولكن جميع هذه الآراء التى تكشف عن صفاء نظر عبقرى لم تمنع انجلز وماركس أبدا بعد اثنتى عشرة سنة، حين كانت روسيا لا تزال مستغرقة فى سباتها وكانت بولونيا فى غليان، لم تمنعها، من ابداء عطفهما الحار على الحركة البولونية .

---

(١) يعنى الاقطاعية

ففى عام ١٨٦٤ ، عندما كان ماركس يضع "نداء الشعبية" كتب إلى انجلز (فى ٤ تشرين الثانى سنة ١٨٤٦) يقول بأن عليه أن يحارب ميول التسلط القومى عند مازينى. ومما جاء فى كتابة هذا قوله: "عندما أشير فى النداء إلى السياسة الدولية، فأننى أعنى البلدان لا القوميات. أننى اتهم لا دولا أقل شأنا منها" ولم يكن من شك لدى ماركس فى أن المسألة القومية لا تحتل سوى أهمية ثانوية بالنسبة إلى القضية العمالية" . غير أن نظريته، بالطبع، بعيدة عن تجاهل الحركات القومية، بعد الأرض عن السماء.

ثم جاءت سنة ١٨٦٦، فكتب ماركس إلى انجلز بشأن : الزمرة البردنية" فى باريس التى "تعلن ان القومية لفظة لا معنى لها وتتحدى بسمارك وغاريبا لدى" فقال : "إذا كان هدف تلك الخطة إثارة حملة على التعصب القومى فهى مفيدة ومقبولة . أما إذا كان أنصار برودون (الذين ينتمى إليهم أيضا أصدقائى الطيبون الموجودون هنا : لا فارغ ولو نغيه) يعتقدون بأن فى استطاعة أوربا ومن واجبها، أن تظل جالسة بهدوء وسلام على مؤخرتها تنتظر قيام أساتذة (١) فرنسا بالقضاء على الجهل والبؤس إذا كانوا يعتقدون ذلك ، فإنهم سخفا (رسالة ٧ حزيزان ١٨٦٦). وكتب مركس فى ٢٠ حزيزان ١٨٦٦ يقول : "جرت أمس مناقشات فى مؤتمر الشعب حول الحرب الجارية ... فتمركزت كلها كما كان منتظرا، على قضية القوميات" وموقفنا منها ... وقد ابدى ممثلو " فرنسا الفتاة " (لا العمال) وجهة نظر مفادها أن القومية عموما والشعوب ذاتها ليسا سوى أوهام عتيقة. فيجب على العالم كله أن ينتظر إلى الستيرنيرية البرودونية .

أن ينتظر من نضوج فرنسا، إتمام الثورة الاجتماعية ... ولقد ضحك الانكليز طويلا حين قلت، فى مستهل خطابى، إن صديقنا لا فارغ والأخرين

(١) يقصد يفكر بها

الذين الغوا القوميات، يخاطبوننا بالفرنسية، أى بلغة يتعذر فهمها على تسعة أعشار الحضور. ثم ألمحت إلى أن "لا فارغ" يفهم على ما يظهر، من إلغاء القوميات، ذوبانها فى القومية المثلى: فى الأمة الفرنسية، دون تقدير للنتائج".

يستنتج من جميع ملاحظات ماركس النقدية هذه ، أمر واضح للغاية وهو : أن الطبقة العاملة هى آخر من يجعل من القضية القومية صنما مقدسا. وذلك لأن تطور الرأسمالية لا يدفع جميع الشعوب حتما إلى الحياة المستقلة. ولكن عندما يتم ظهور الحركات القومية الجماهيرية، فكل نقور منها وكل ما من شأنه رفض تأييد النواحى التقدمية فيها، معناه فى الواقع الاستسلام لنزعة التعصب القومى الخاطئ، وإعتبار الانسان "شعبه" كأنه "الشعب المثالى" (أو إعتبارها فيما يتعلق بنا ، كأنه الشعب الويد الذى يملك امتياز انشاء دولة)(١) .

ولكن لنعد إلى قضية أيرلندا: أن موقف ماركس منها قد عرض باقى ما يمكن من الوضوح فى المقتطفات التالية من رسائله : لقد حاولت جهدى بجميع الوسائل، إثارة العمال الانكليز للتظاهر فى سبيل تأييد الحركة "الفينيانية" (٢)، كنت أحسب قبلا أن إنفصال أيرلندا عن انكلترا شئ مستحيل. أما اليوم فإنى أراه شيئا لابد منه، حتى ولو إنتهى الأمر بعد

(١) قارن هذا برسالة ماركس إلى انجلز بتاريخ ٢ حزيزان عام ١٨٦٧ التى جاء فيها " لقد علمت مسرورا من رسالة التايمز الباريسية ، بهتافات الباريسيين ليلونيا ضد روسيا .. ان بردون وجماعته الصغيرة من النظريين ليسا الشعب الفرنسى.

(٢) نسبة اليهم جماعة ثرية ايرلندية تشكلت هدفها فصل ايرلندا عن التبعية الانكليزية ، وقد قامت فى اعوام ١٨٦٥ - ١٨٦٨ باغتيال الموظفين الانكليز .

الانفصال إلى ارتباط جديد على أساس إتحادى " هذا ما كتبه ماركس فى رسالة إلى انجلز بتاريخ ٢ تشرين الثانى ١٨٦٧ .

ثم أضاف فى رسالة أخرى بتاريخ ٣٠ تشرين الثانى من عام السنة نفسها :

"أية نصيحة نوجهها إلى العمال الانكليز؟ يجب عليهم، فى رأى، أن يجعلوا من فسخ الإتحاد (بين ايرلندا وانكلترا، أى إنفصال أيرلندا عن انكلترا) إحدى نقاط برنامجهم - أى بالاختصار التمسك بمطلب عام ١٧٨٣، مع جعله اكثر ديموقراطية، وتكييفه حسب الظروف الحاضرة. هذا هو الشكل الوحيد المعقول لقضية تحرير ايرلندا وهو بالتالى، الشكل الوحيد الذى يمكن تبنيه من قبل برنامج حزب انكليزى. وستبين التجربة، فيما بعد، ما إذا كان لإتحاد الشخصى البسيط بين البلدين يمكن أن يدوم "أما الايرلنديون فلا بد لهم من :

أولا - الحكم الذاتى والاستقلال عن انكلترا .

ثانيا - ثروة زراعية .

وبما أن ماركس كان يعلق أهمية عظمى على القضية الايرلندية، فكان يعلق أهمية عظمى على القضية الايرلندية ، فكان يلقى فى اجتماعات "رابطة العمال الألمان" تقارير تدوم ساعة ونصف الساعة حول هذا الموضوع. (رسالة ١٧ كانون الاول ١٨٦٧) .

ويشير انجلزا له بتاريخ ٢٠ تشرين الثانى عام ١٨٦٨ إلى "ما تكنه أوساط العمال الانكليز من حقد على الايرلنديين" ثم يعود بعد سنة تقريبا (٢٤ تشرين اول من عام ١٨٦٩) الى الموضوع ذاته ، فيقول :

ليس بين ايرلندا وروسيا إلا خطوة واحدة ... إن تاريخ ايرلندا يبين مقدار الشقاء الذى يعانيه شعب يسترسل فى استبعاد شعب آخر. فان مصدر الخسة الانكليزية كلها هو ايرلندا... وعلى الآن دراسة عصر كروموبل، وعلى كل حال فما حال فمما لا مراء فية عندى أن الأمور فى انكلترا ذاتها، كان يمكن أن تأخذ مجرى آخر لولا ضرورة اخضاع ايرلندا عسكريا وخلق أريستوقراطية جديدة .

ولنشر فى هذه المناسبة إلى رسالة ماركس إلى انجلز بتاريخ ١٨ آب ١٨٦٩ . لقد اعلن العمال البولونيون فى بوسنانيا الاضراب وانتصروا فيه بفضل تأييد رفاقهم عمال برلين. إن هذا النضال ضد "السيد رأس المال" – حتى فى شكله الأدنى، وهو الاضراب – سيضع حدا للأوهام القمية، بصورة أجدى مما تفعلة الخطب الطنانة الصادرة عن أقوال السادة البرجوازيين حول السلام" .

وتتضح مما يلى، خطوط السياسة التى إتبعتها ماركس تجاة القضية الايرلندية، فى داخل الشعبية :

فى ١٨ تشرين الثانى عام ١٨٦٩ كتب ماركس إلى انجلز يعلمه بأنه ألقى خطابا دام ساعة وربع الساعة فى مؤتمر الشعبى حول موقف الوزارة البريطانية من قضية العقو فى ايرلندا، وبانه اقترح مشروع القرار التالى: " لقد تقرر :

أن السيد غلادستون، فى جوابه على المذكرة الايرلندية المطالبة باطلاق سراح الوطنيين الايرلنديين، يهين الشعب الايرلندى عمدا "وأنه يعلق العفو السياسى على شرط مذلة لضحايا حكومة فاسدة ، وللشعب الذى تمثله .

"وأن غلادستون، رغم كونه فى منصب رسمى، قد حيا فى الماضى، بصورة علنية ورسمية، تمرد انصار الاسترقاق الاميركيين، وهو يعمد اليوم إلى دعوة الشعب الايرلندى إلى الاخذ بمبدأ الطاعة العمياء.

"وأن مجمل سياسته إزاء قضية العفو فى ايرلندا، ما هو إلا مظهر جلى من مظاهر سياسة الفتح التى تمكن السيد غلادستون من قلب وزارة خصومه المحافظين ، بفضل الحملة عليها وفضحها .

"وأن مؤتمر جمعية الشغيلة الشعبية العام يعبر عن اعجابه بالاقدام والصلابة وعلو الهمة التى يواصل الشعب الايرلندى بها حملته من أجل العفو.

"وأن هذا القرار يجب أن يبلغ إلى جميع فروع جمعية الشغيلة الشعبية وإلى جميع منظمات العمال المتصلة بها فى أوربا وأميركا" .

وكتب ماركس فى ١٠ كانون الاول من عام ١٨٦٩ يقول : أن التقرير الذى يعده لمؤتمر الشعوب عن القضية الايرلندية، سيصاغ على الشكل الآتى :

"بصرف النظر عن كل لغو "شعبى" وإنسانى فيما يتعلق" بإنصاف قضية ايرلندا" ، – لأن القضية لا تحتاج إلى ايضاح فى مؤتمر الشعوب – فان مصالح الطبقة العاملة الانكليزية، أى مصالحا المباشرة، المطلقة، توجب قطع علاقاتها الحالية مع ايرلندا. هذه هى قناعتى الراسخة المستندة إلى أسباب لا يسعنى الكشف عنها – جزئيا – للعمال الانكليز انفسهم . لقد اعتقدت مدة طويلة أن بالإمكان قلب النظام القائم فى ايرلندا بفضل حاجات الطبقة العاملة الانكليزية.

وقد دافعت دائما عن هذا الرأى فى "نيويورك تريبيون" (صحيفة أميريكية ساهم ماركس فى تحريرها مدة طويلة). ولكن تعمقى فى درس القضية اقنعنى بما يخالف ذلك. فإن الطبقة العاملة الانكليزية لن تستطيع صنع شئ إذا لم تتخلص من ايرلندا... ذلك لأن الرجعية الانكليزية فى انكلترا تستمد قوتها من استبعاد ايرلندا "

والآن لابد أن تكون سياسة ماركس إزاء القضية الايرلندية قد اتضحت للقارى .

فإن ماركس "الخيالى" اتخذ موقفا "عمليا ناقصا" تجاه قضية ايرلندا، إلى درجة أنه أيد انفصالها الذى لم يتم حتى الآن ، أى بعد مضى نصف قرن. فمن أين أتت هذه السياسة التى انتهجها ماركس ، وهل كانت خاطئة يا ترى ؟

لقد فكر ماركس فى بادئ الأمر، فى أن الحركة القومية لدى الشعب المستضعف، لا يؤى الى تحرير ايرلندا، بل أن ما تدى الى ذلك هو حركة العمال فى صفوف الشعب المتسلط، ولم . ولم يجعل ماركس من الحركات القومية شيئا مطلقا، لأنه كان يعتقد بأن ظفر الطبقة العاملة هو إلى يستطيع تحرير جميع القوميات تحريرا تاما. وذلك لأنه كان يقدر مسبقا التلازم الممكن بين الحركات البورجوازية لتحرير القوميات المضطهة وبين حركات البروليتاريا التحريرية فى البلد المضطهد. (وهذه المسألة بالذات هى التى جعلت القضية القومية فى روسيا اليوم غاية فى الصعوبة) .

غير أن الظروف شاءت أن تقع الطبقة العاملة الانكليزية تحت تأثير الأحرار مدة طويلة، وأن تنجر حتى الآن فى مؤخرتهم، وأن تشل قواها سياسة عمالية يسيطر نفوذ الاحرار عليها. وفى هذه الاثناء اشتد ساعد

الحركة التحريرية البورجوازية فى ايرلندا. واخذت اشكالا ثورية. فكان أن أعاد ماركس النظر فى رأيه الأول وصححه. "فإن من شفاء شعب استعباده شعبا آخر".

أن الطبقة العاملة فى انكلترا لن تتحرر ما دامت ايرلندا غير متحررة من النير الانكليزى . لأن استبعاد ايرلندا يوطد دعائم الرجعية فى انكلترا ويغذيها (كما يغذى الرجعية فى رسيا استعبادها لطائفة من القوميات !)

وهكذا كان ماركس، إلى جانب نجاحه فى حمل الشعوب على اتخاذ قرار يتضمن العطف على "القمية الايرلندية" وعلى "الشعب الايرلندى"، يوصى بانفصال ايرلندا عن انكلترا "حتى ولو أدى الأمر بعد ذلك إلى الارتباط على أساس اتحادى" .

والآن، ما هى المقدمات النظرية التى استند إليها ماركس فى الوصول إلى هذه النتيجة ؟ كانت الثورة البرجوازية فى انكلترا بصرة عامة، قد انتهت منذ زمن طويل. ولكنها لم تكن قد تمت بعد فى ايرلندا. وأن اصلاحات الانكليز تكمل هذة الثورة اليوم فقط، أى بعد مضى نصف قرن. فلو قضى على الرأسمالية فى انكلترا بالسرعة التى كان يأملها ماركس فى بادئ الأمر،

لما انفسح المجال فى ايرلندا أمام نشوء حركة ديموقراطية بورجوازية قومية، ولكن بما أن هذه الحركة قد برزت إلى الوجود، فقد نصح ماركس العمال الانكليز بتأييدها، وبنفخ روح ثورية فيها، وبالسير بها إلى النهاية حرصا على مصلحة حريتهم ذاتها .

كانت العلاقات بين ايرلندا وانكلترا، حوالى سنى ١٨٦١ - ١٨٧٠ أكثر وثوقا ولا شك، من علاقات روسيا ببولونيا واوكرانيا ... إلخ.

فكان واضحا للعيان أن انفصل ايرلندا كان ذا طابع "غير عملى" و غير قابل للتحقيق" ، (ولو لم يكن إلا بسبب الظروف الجغرافية وبسبب قوة انكلترا الاستعمارية الهائلة أيضا). ولهذا وافق ماركس، فى هذه الحالة الخاصة، على العلاقة الاتحادية (فيدايراسين)،

رغم كونه من أشد خصوم الاتحادية مبدئيا، إنه وافق على ذلك بشرط أن يتم تحرير ايرلندا بالطريقة الثورية ، لا الاصلاحية، أى بحركة تقوم بها الجماهير الشعبية فى ايرلندا. تدعمها وتسندها الطبقة العاملة فى انكلترا. ومما لا شك فية ابدا ان حل مثل هذه المسألة التاريخية على تلك الصورة، يمكن ان يلائم أحسن ملائمة مصالح البروليتاريا، ويدفع بالتطور الاجتماعى إلى الإمام .

ولكن الأمور اتجهت اتجاها آخر. فالشعب الايرلندى من جهة، والبروليتاريا الانكليزية من جهة ثانية ، كانا ضعفين، ولذلك لم تحل القشية فى ذلك الحين بل أنها تحل اليوم فقط أثر مساومات دنيئة جرت بين الأحرار الانكليز والبورجوازية الايرلندية، (ومثال اقليم "اولستر" يبين مدى الجهود المبذولة فى ذلك)، وذلك عن طريق اصلاح زراعى (بشراء الاراضى من جديد)، وحكم ذاتى (لم يطبق حتى الآن) فماذا نقول ؟ هل ينتج من ذلك أن ماركس وانجلز كانا "خياليين" وأنهما يصيغان مطالب "قومية" غير قابلة للتحقيق "ويتأثران بالقوميين البرجوازيين الصغار المتعصبين فى ايرلندا؟

(ولا شك فى أن حكة الفينيان تتسم بطابع البرجوازية الصغيرة) كلا فقد سلك ماركس وانجلز، فى القضية الايرلندية أيضا سياسة بروليتارية حقة، من شأنها أن تثقف الجماهير بروح الطموح إلى الديموقراطية وبروح الاشتراكية تثقيفا صحيحا. ولم يكن هناك شئ غير هذه السياسة يمكن أن

يوفر على ايرلندا، وعلى انكلترا أيضا، تأخر نصف قرن فى تحقيق الاصلاحات الضرورية الملحة، وأن يعصمها من الشلل الذى أصاب الأحر به تلك الاصلاحات فى سعيهم إلى ارضاء الرجعية .

لقد ضرب ماركس وانجلزا السياسية التى اتبعاها لحل قضية ايرلندا، ابلغ مثال - وهو مثال يحتفظ حتى الآن باهمية عملية فذة - عن السلوك الذى ينبغى أن تنهجة البروليتاريا فى الشعب المسيطرة تجاه للحركات القومية. فكانت سياستها هذه بمثابة تحذير جازم من "الاندفاع السافل" الذى يلجأ إليه أصحاب الآفاق الضيقة على اختلاف اقطارهم وألوانهم ولغاتهم لالصاق صفة "خيالى" لكل حركة ترمى إلى تعديل حدود الدول، تلك الحدود التى يوجدهو العنف، وتفرضها امتيازات كبار الملاكين العقاريين والبورجوازية فى إحدى الشعوب .

واذا كانت البروليتاريا الايرلندية والبروليتاريا الانكليز لم تتبعا سياسة ماركس ولم تتخذا من مطلب انفصال ايرلندا شعارا لهما، فانهما بذلك قد استساغتا السير فى افظع تيارات الانتهازية، وتناسا واجباتهما الديموقراطية والاشتراكية، وتراجعتا أمم الرجعية والبورجوازية الانكليزيتين.

برنامج عام ١٩٠٣

أصبحت اليوم محاضر مؤتمر عام ١٩٠٣، الذى أقر برنامج الماركسيين فى روسيا، من الوثائق النادرة جدا. هذا عدا عن أن الأكثرية الكبرى من المناضلين الحاليين فى حركة العمال تجهل لاسباب التى من اجلها وضعت مختلف نقاط هذا البرنامج (لا سيما وان جميع الكتابات المختصة به بعيدة حتى الان عن التمتع بنعم العلنية) ولهذا فمن الضرورى التوقف قليلا، لندرس، على ضوء مؤتمر عام ١٩٠٣، القضية التى تشغلنا.

ولكن يجدر بنا أن نلاحظ ، فى بادئ الأمر أن الكتابات الاشتراكية الديموقراطية الروسة التى تبحث فى "حق الشعوب فى تقرير مصيرها" تدل بوضوح، رغم قلتها، على أن معنى هذا الحق كان يتضمن دائما حق الانفصال. وقد كان السادة سيموفسكى وليبمن ويوركيفيتش يشكون فى ذلك ويصرحون بان الفقرة التاسعة" ينقصها الوضوح... إلخ،

وهم لو يقولوا هذا إلا بسبب جهلهم الفاضح أو خفتهم ، فمنذ عام ١٩٠٢ دافع بليخانوف فى جريدة "زاريا" عن مدأ "حق تقرير المصير" الوارد فى مشروع البرنامج، وكتب يقول: إن هذا المطلب وأن كان غير اجبارى بالنسبة إلى الديموقراطية البرجوازية" فإنه اجبارى بالنسبة إلى الاشتراكيين الديموقراطيين". ثم أضاف قوله : فلو اهملناه أو خشينا من الافصاح عنه خوفا من صدم الآراء القومية الخاطئة لدى معاصرينا من أبناء القومية الروسية، لكان نداء : "ياعمال جميع الأقطار" اتحدوا "نفاقا مخجلا فى أفواهنا" .

وهذا شهادة قيمة فى صالح البرهان الأساسى الذى يدعم النقطة التى نبحثها. شهادة قيمة جدا. لأنه ليس من باب الصدفة إذا أهملها نقاد برنامجنا" الذين نسوا صلتهم بها" وما زالوا يهملونها وجلين... فإن التخلى عن هذه النقطة من البرنامج، مهما كانت الدوافع التى يمكن التذرع بها، معناه فى الواقع، تراجع "مخجل" أمام نزعة التسلط القومى دى القوميين الروس.

ولكن لماذا نقول لدى القوميين الروس، ما دمنا نتكلم عن حق جميع الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها؟ أننا نقول ذلك لأن المراد هنا هو الانفصال عن القومية الروسية. واضح ان مصلحة اتحاد البروليتاريا ،

مصلحة تضامنها الطبقى تتطلب الاعتراف بحق الشعوب فى الانفصال : وهذا ما اعترف به بليخانوف. منذ أربعة عشر عاما، فى العبارات التى ذكرناها. ولو أن أصحابنا الانتهازيين فكروا فيها مليا، لما تفوهوا أبدا بذلك السيل من الحماقات حول حرية تقرير المصير .

كانت معظم الاعمال، فى مؤتمر عام ١٩٠٣ الذى صودق فية على مشروع البرنامج هذا، بعد أن دافع عنه بليخانوف، تقرر فى على مشروع البرنامج هذا، بعد أن دافع عنه بليخانوف، تقرر فى اجتماعت لجنة البرنامج التى لم يسجل محاضرها لسوء الحظ .

وذلك لان هذه المحاضر كان يمكن ان تفيدنا كثيرا فيما بهذه النقطة فان مندوبى الاشتراكيين الديموقراطيين البولنيين، فارشافسكى وغانيتسكى، حاولا فى اجتماعات تلك اللجنة دون سواها أن يدفعا عن وجهات، وأن يعارضا الاعتراف بحق حرية تقرير المصير" وانه ليسهل على القارئ الذى يستطيع المقارنة بين براهينهما (الواردة فى خطاب فارشافسكى وفى التصريح المشترك الذى أدلى به مع غانيتسكى راجع الصفحات : ١٣٤ - ١٣٦ و ٣٨٨ - ٣٩٠ من محضر الجلسات) وبين البراهين التى قدمتها روزا لوكسمبورغ فى مقالها البولونى الذى حللناه آنفا، أن يلاحظ التشابه التام بين هذه البراهين .

وبعد، ماذا كان موقف لجنة البرنامج فى المؤتمر الثانى من تلك البراهين حيث حمل بليخانوف على الماركسيين البولونيين؟ لقد كان نصيبها السخرية اللاذعة! وقد بدت بجلاء صفاقة الاقتراح الذين يدعوا الماركسيين فى روسيا أن يطرحوا جانبا الاعتراف بحق الأمم فى تقرير مصيرها، إلى درجة أن الماركسيين البولونين لم يجرؤوا حتى على ترديد براهينهم أمام

هيئة المؤتمر العمومية !! فغادروه بعد ان اقتنعوا بسخافة موقفهم أمام أعلى هيئة الماركسيين، بين رس اصليين ويهود وجيورجيين وأرمن .

ولا شك أن هذا الفصل التاريخى البسيط يتمتع بأمية كبيرة جدا فى نظر كل أمرء يحرص صادقا على برنامجه. ولا ريب فى أن إخفاق براهين الماركسين البوليين اخفاقا تاما فى جلسات لجنة البرنامج، وعدولهم عن ابداء أية محاولة للدفاع عن آرائهم أمام هيئة المؤتمر العامة، أمر أن لهما دلالة عميقة.

وهذا ما يفسر السبب الذى دفع روزا لوكسمبورغ إلى السكوت عنه "بمهارة" فى مقالها عام ١٩٠٨ :

ويظهر أن ذكريات المؤتمر كانت تزعجها كثيرا! وقد تجنبت الكلام أيضا عن ذلك الاقتراح السخيف التعس الذى قدمه فارشافسكى وغانيتسكى عام ١٩٠٣ باسم جميع الماركسيين البولونيين، وطلبا فيه "تعديل" الفقرة التاسعة من البرنامج ، والذى لم تجرؤ (ولن تجرؤ) روزا لوكسمبورغ ولا غيرها من الاشتراكيين الديموقراطيين البولونيين على تقديمة مجددا .

ولكن إذا كانت روزا لوكسمبورغ. قد تركت جانبا هذه الأمور، ليسهل عليها ستر الهزيمة التى منيت بها عام ١٩٠٣، فإن الذين يهتمون بتاريخ حزبهم يسعون حتما إلى معرفة تلك الامور وإلى التفكير مليا فى دلالتها.

كتب أصدقاء روزا لوكسمبورغ إلى مؤتمر عام ١٩٠٣، عندما غادروه قائلين : أننا نقترح أن تصاغ الفقرة السابعة من مشروع البرنامج (التى اصبحت اليوم الفقرة التاسعة)، على الشكل التالى : الفقرة التاسعة

مؤسسات تضمن حرية التطور الثقافى التامة لجميع الشعوب التى تؤلف الدولة" (صفحة ٣٩٠ من محاضر الجلسات) .

وهكذا يتبين أن الماركسيين البولونيين كانوا يبدون يومئذ ، فيما يتعلق بالقضية القومية، آراء غاية فى الإبهام، إلى درجة أنهم كانوا يقترحون فى الواقع، بدلا من حرية تقرير المصير، صيغة مرادفة لشعار "استقلال الثقافة القومية الذاتى" الذائع الصيت !

إن الأمر ليبدو بعيد التصديق من أن المؤتمر كان يضم خمسة من البولنديين، يتمتعون بخمسة أصوات وثلاثة من القفقاسيين يتمتون بستة أصوات، فضلا عن صوت استشارى هو صوت كوستروف، على الرغم من ذلك كله، لم يكن هناك أى صوت إلى جانب حذف الفقرة المتعلقة بحرية تقرير المصير.

وقد صوت ثلاثة فقط إلى جانب إضافة جملة "استقلال الثقافة القومية الذاتى" على تلك الفقرة (وفقا لصيغة غولدبلات: "انشاء مؤسسات تضمن للشعوب حرية التطور الثقافى التامة") وأيدت أربعة أصوات صيغة ليبير: (اعطها الحق – أى الشعب – فى تطر ثقافى حر).

أما الآن قد ظهر حزب أحرار روسى هو حزب الدستريين الديمقراطيين، فأننا نعرف أن حرية الشعوب فى تقرير مصيرها السياسى، قد استعيض عنها فى برنامجه، بـ "حرية تقرير المصير الثقافى" بمعنى أن أصدقاء روزا لوكسمبورغ البولونيين الذين عكفوا على محربة النزعة القمية عند الحزب الاشتراكى البولونى.

قد برعا فى تلك الحرب إلى درجة اقترحا معها استبدال برنامج لماركسين ببرنامج أحرار! وراحوا، بعد كل ذلك، يتهمون برنامجنا

بالانتهازية . فهل ثمة مجال للدهشة إذا استقبلت البرنامج التى ألفها المؤتمر الثانى، هذه التهمة بالضحك والسخرية !

لننظر الآن كيف فهم مندوبو المؤتمر الثانى قضية "حرية تقرير المصير". وقد رأينا فيما تقدم أن أحدا منهم لم يتخذ موقفا ضد "حرية تقرير مصير الشعوب" .

وتوضح لنا ذلك المقاطع الثلاثة التالية من محضر الجلسات :

"يرى ما تينوف انه ليس بالامكان اعطاء تفسير شامل لعبارة "حرية تقرير المصير" فهى تعنى بكل بساطة حق الشعوب فى الاعتزال فى كيان سياسى مستقل، ولا تعنى، أبدا استقلالا ذاتيا فى مناطق". كان مارتينوف ذلك الحين عضوا فى لجنه البرنامج التى فندت حجج أصدقاء روزا لوكسمبورغ وسخرت منها وكان يومئذ فى مفاهيمة، من انصار الاقتصاديين. وخصما لدودا لجماعة "الايسكرا"[1]. فلو أنه أبدى رأيا غير رأى أكثرية أعضاء لجنة البرنامج ، لفند ريه ورد حتما .

وعندما إنتقل المؤتمر. بعد إنتهاء أعمال اللجنة، الى درس الفقرة الثامنة من البرنامج (التى أصبحت اليوم الفقرة التاسعة) كان غولدبلات أول المتكلمين فقال :

"لا يمكن الاعتراض بشئ على (حق حرية تقرير المصير). فاذا ناضل شعب من أجل استقلالة، فيجب أن لا نعارضة فى ذلك. وإذا أبت بولونيا اليوم أن تعقد اتفاقا شرعيا مع روسيا، فيجب ان نتركها تفع ما تشاء. هذا رأيبليخانوف، وأنا اوافق على وجهة نظره، ضمن هذه الحدود"

(١) الايسكرا - أل جريدة ماركسية سرية لعموم روسيا - اسسها لينين عام ١٩٠٠

إن بليخانف لم يقل شيئا فى هذا الموضوع أمام الهيئة العامة للمؤتمر حيث فسر "حق حرية تقرير المصير" تفسيرا واسعا شعبيا، بأنه حق الانفصال.

وقد أشار ليبير، الذى تكلم بعد غولديلات، إلى أنه "إذا رفضت قومية من القوميات أن تعيش ضمن حدود روسيا، فالحرب لا يسعه بالطبع أن يعارض رغبتها فى ذلك" .

وهكذا يرى القارى أن الجميع كانوا، فى مؤتمر الحزب الثانى الذى أقر البرنامج، متفقين على الاعتراف بأن حرية تقرير المصير إنما تعنى فقط "حق الانفصال. وقد اقتنع حتى البولنديون أنفسهم يؤمئذ بهذه الحقيقة. ولكننا أصبحنا اليوم فى عصر سئ يطغى فيه التيار المعدى للثورة بصورة مستمرة، ويظهر فيه "التنكر والجحود" على اختلاف أنواعها، فنرى أناسا يجرئهم الجهل ويدفعهم إلى التصريح بأن برنامجنا "خال من الوضوح".

على أننا قبل أن نكرس وقتنا لاولئك المساكين من "الاشتراكيين الديموقراطيين أنفسهم "سننهى كلامنا بالحديث عن موقف البولونيين من البرنامج :

- لقد جاءوا إلى المؤتمر الثانى (١٩٠٣) وهم يصرخون بأن التوحيد قضية ضرورية ملحة. ولكنهم غادروا المؤتمر عد "اخفاقهم" فى لجنة البرنامج، وكانت كلمتهم الاخيرة تصريحا خطيا نشر فى محضر جلسات المؤتمر، وتضمن الاقتراح الآنف الذكر استبدال حرية تقرير المصير باستقلال الثقافة القومية الذاتى .

ثم جاء عام ١٩٠٦ وانضم الماركسيون البولونيون إلى الحزب، ولكنهم لم يتقدموا بأى اقتراح لتعديل الفقرة التاسعة من البرنامج الروسى لا عند

دخولهم الحزب ولا بعده (أى فى مؤتمر عام ١٩٠٧ وفى المؤتمرين الصغيريين الذين عقدا فى عام ١٩٠٧ و ١٩٠٨ . وفى الهيئة العامة التى التأمت عام ١٩١٠)

هذا أمر واقع، وهو أمر يبين بوضوح أن أصدقاء روزا لوكسمبورغ، على الرغم من جميع الاقوال والتأكيدات، اعتبروا أن القضية فرغ منها عند بحثها فى لجنة المؤتمر الثانى، وانتهت بالقرار الذى اتخذه ذلك المؤتمر. كما يبين أنهم أقروا بخطأهم طوعا وأصلحوه بانضمامهم فى عام ١٩٠٦ إلى صفوف الحزب ، بعد ان غادروا المؤتمر فى عام ١٩٠٣، ولم يحالوا أبدا إثارة مسألة إعادة النظر فى الفقرة التاسعة من البرنامج، عن طريق الحزب .

ثم صدر مقال روزا لوكسمبورغ بتوقيعها فى سنة ١٩٠٨ وبالطبع لم يخطر على بال أحد منا أبدا أن ينكر على كتاب الحزب حق انتقاد البرنامج ولكن بعد كتابه ذلك المقال، لم تثر أية من منظمة رسمية من منظمات الماركسيين البولونيين قضية إعادة النظر فى الفقرة التاسعة .

وقد كانت الخدمة التى أداها تروتسكى لبعض المعجبين بروزا لوكسمبورغ، شبيهة فى الحقيقة بخشبة الدب، وذلك عندما كتب باسم هيئة تحرير جريدة "بوربا"[1] (العدد الثانى آذار ١٩١٤).

"يرى الماركسيون البولونيون أن "حق حرية تقرير المصير القومى" خال تماما من كل فحوى سياسى ويجب طرحه من البرنامج "

---

(١) بربا (أى النضال) ، هى مجلة ترتسكى ، ظهرت فى بطرسبرغ من شباط الى تموز عام ١٩١٤ . وقد ارب تروتسكى فى هذه المجلة لينين والحزب البلشفى تحت ستار مبدأ " عدم الانقسام " .

إن تروتسكى المخلص لاشد خطرا من العدو! فهو لم يكن باستطاعته ان يجد لدى أحد، فى "المحادثات الخاصة" (أى فى تلك الثرثرات التى كان تروتسكى يشبع نفسه بها دائما) أدلة تسمح له بان يصنف "الماركسيين البولونيين" عموما بين أنصار هذا المقال أو ذاك من مقالات روزا لوكسمبورغ. لقد صوُر تروتسكى "الماركسيين البولونيين" كأناس لا شرف لهم ولا وجدان، ولا يعرفون احترام عقائدهم الخاصة وبرنامج حزبهم. هو تروتسكى المخلص!

ولما غادر ممثلوا الماركسيين البولونيين، فى عام ١٩٠٣، المؤتمر الثانى بسبب الخلاف حول حق حرية تقرير المصير، أستطاع تروتسكى أن يقول أنهم رأو فى ذلك الحق فقرة لا فحوى لها فيما بعد إلى صفف الحزب الذى أقر ذلك البرنامج ، ولم يقترحوا أبدا إعادة النظر فيه .

فلماذا اخفى تروتسكى هذه الوقائع عن قراء مجلته ؟ لقد اخفاها لسبب واحد بسيط هو انه رأى من الفائدة لنفسة أن ينار لزيادة الخلافات بين خصوم تيار التصفية من روس وبولونيين وأن يخدع العمال الروس فيما يتعلق بالبرنامج .

ومن المعروف أيضا أن تروتسكى لم يكن له فى يوم من الأيام رأى ثابت فى أية قضية جدية من قضايا الماركسية . فقد كان " يتسلل " دائما بين الخلافات وينتقل من معسكر الى آخر. وها هو قد أصبح اليوم رفيق البونديين ودعاة التصفية. وكل يعرف أن هؤلاء السادة يتصرفون على هواهم تجاه الحزب .

إليكم ما يقوله البندى "ليبمن" :

"حين وضعت الحركة الاشتراكية الديموقراطية الروسية، منذ خمسة

عشر عاما، فقرة فى برنامجها تتناول حق كل قومية فى "تقرير مصيرها بنفسها" تساءل كل واحد(!!) ماذا يعنى فى الحقيقة هذا التعبير الدارج(!!)؟

ولكننا لم نتلق جوابا (!!) على ذلك. وظلت (!!) الفقرة إياها مغلفة بالضباب . وكان من الصعب فعلا فى ذلك الحين إزالة الضباب عنها. وكانوا يقول آنذا : لم يحن الوقت بعد لتضيح هذه الفقرة وتشخيصها.(1) فلتبق الآن مغلفة بالضباب (!!) أن للحياة نفسها هى التى تعين المضمون الذى يجب وضعه فى تلك الفقرة " .

أليس ظريفا هذا " الصبى العارى " الذى يتهكم على برنامج الحزب ؟ ولماذا يتهكم ؟

لا لشئ الا لانه مغرق فى الجهل لا يعرف شيئا بل لم يقرأ شيئا من تاريخ الحزب، لأنه سقط فى وسط من دعاة التصفية "اعتادوا" السير عراة عندما يتناولون قضايا الحزب، ومبادئ الحزب .

يفاخر أحد الرهبان التلاميذ، فى رواية لبميالوفسكى، بأنه "بصق فى قدر من الملفوف المسلوق". ولكن اسيادنا البولونديين فعلوا أحسن من ذلك. أنهم يطلقون العنان لصاحبهم ليبمن لكى يبصق هذا الشاب اللطيف أمام جميع الناس فى قدرهم ذاتها. إما أن هناك قرار صادرا عن مؤتمر أممى، وأن اثنين من نفس ممثلى "بوندهم" وفى نفس مؤتمر حزبهم،

قد برهنا على الرغم من انهما كانا "صارمين" فى نقدهما وخصمين ألدين "لاليسكرا" على انهما قادران تماما على فهم معنى "حرية تقرير المصير" وأنهما وافقا أيضا على ذلك المعنى، فجميع هذه الاشياء لا تهم

(1) اى جعلها مشخصة باعطائها مضمونا واقعيا حيا .

السيد ليبمن! اليس من الاسهل، والحالة هذه، تصفية الحزب مادام بعض "صحافى الحزب" (لا تمزحوا!) يعمدون إلى معالجة تاريخ الحزب وبرنامجه على طريقة الرهبان التلاميذ ؟

وهذا "صبى عار" آخر هو ؟ يوركيفيتش، المحرر فى مجلة "دزفينا". إن هذا السيد قد أطلع ولا شك على محاضر جلسات المؤتمر الثانى لانه يستشهد بأقوال بليخانف التى أوردها غولدبلات. ويتبين من كلامه أنه يدرك ان حرية تقرير المصير لا يمكن ان تعنى إلا حق الانفصال. ولكن هذا لا يمنعه من النميمة على الماركسيين الروس فى أوساط البرجوازية الاوكرانية الصغيرة. بادعائه أن هؤلاء الماركسيين هم من أنصار" وحدة كيان الدولة الرسية (١٩١٣) العددان السابع والثامن).

إن يوركيفيتش وامثاله لم يجدوا، بالطبع، وسيلة أفضل من هذه النميمة لابعاد الديموقراطيين الاوكرانيين عن الديموقراطيين الروس. واضح أن هذه المباعدة مطابقة لمجمل الخطة السياسية التى ينتهجها فريق الادباء الذين يكتبون فى مجلة "دزفينا"، ويدعون فيها إلى إنفصال العمال الاوكرانيين عن الحزب لتأليف منظمة قومية مستقلة.(١) .

ومن المؤكد أنه يلائم هذا الفريق من البرجوازيين الصغار القميين المتعصبين الممعنين فى شق صفوف البروليتاريا. وهذا هو الدور الموضوعى الذى تقوم به مجلة "دزفينا" - أن ينشروا الغموض الكثيف حول المسألة القومية .

---

(١) راجع بصورة خاصة مقدمة يركيفيتش لكتاب ليفنسكى : " نظرة فى تطر الحركة العمالية الاوكرانية فى غاليسيا " كييف ١٩٤١

ومن المسلم به أن أمثال يوركيفيتش وليبمن - الذين يغضبن "بشدة" حين نصفهم بأنهم عناصر تعيش "على هامش الحزب" - لم يذكروا كلمة واحدة ، ولا كلمة واحدة أبدًا، عن الطريقة التى يرغبون، هم أنفسهم، إن تحل بها قضية حق الانفصال فى البرنامج .

وهذا هو "الصبى العارى" الثالث والأهم : السيد سيمكوفسكى، الذى "يهدم" فى أعمدة جريدة دعاة التصفية وأمام جمهور الروسيين، الفقرة التاسعة من البرنامج، ويصرح فى الوقت نفسة " أنه لا يشاطر، أصحاب الاقتراح" القائل بحذف هذه الفقرة، رأيهم، لبعض الاعتبارات. إنه أمر لا يصدق ، ولكنة أمر واقع .

فى عام ١٩١٢، وضع دعاة التصفية القضية القومية على بساط البحث رسميا. وخلال عشر شهرا، لم يصدر مقال واحد بشأن الفقرة التاسعة ماعدا مقال سيمكوفسكى. وفى هذا المقال، راح الكاتب يفند البرنامج ويهاجمه، ويعلن فى الوقت نفسة أنه بالنظر "إلى بعض الاعتبارات" (ويحتمل إنها مرض سرى من يدرى ؟) لا يؤيد الاقتراح القائل بتعديله !!

وأنه لمن العسير حقا العثور على أمثلة، فى العالم بأسره، على هذا النوع من الانتهازية، بل على ما هو افظع من الانتهازية، على هذا الجحود على هذه المحاولة فى تصفية الحزب. أما مضمن البراهين التى يوردها سيمكوفسكى، فمثال واحد يكفى لايضاحها. اسمعوا ماذا يقول :

"ما العمل اذا ارادت البروليتاريا البولونية مواصلة النضال المشترك، ضمن نطاق دولة واحدة، مع مجموع البروليتاريا الروسية وإذا أرادت الجماعات الرجعية فى المجتمع البولونى، على عكس ذلك، فصل بولونيا عن روسيا واستطاعت أن تنال فى استفتاء شعبى أكثرية الاصوات، أن نصوت

فى البرلمان المركزى مع رفاقنا البولونيين ضد الانفصال، أو من أجل الانفصال ، خوفا من خرق حق "حرية تقرير المصير" ؟ (جريدة " نوفايا رابوتشايا"، العدد ٧١)

يتبين من هذا أن السيد سيموفسكى لم يدرك حتى جوهر القضية! فهو لم يفطن إلى أن حق الانفصال، يتطلب، قبل كل شئ، حل القضية، لا بواسطة البرلمان المركزى، بل بواسطة برلمان (مجلس، استفتاء .... إلخ المنطقة التى تنفصل فقط .

إن الحيرة الصبيانية التى تبرز من "ما العمل" هذه ، خصوصا وأن الأكثرية فى النظام الديموقراطى هى فى جانب الرجعية، أن هذه الحيرة، تخفى قضية السياسة الواقعية، الصحيحة، الحية، التى ينظر من خلالها أنصار يوريشكيفتيش، مثل أنصار كوكو شكين، إلى مجرد التفكير بالانفصال على أنه جريمة ! فيجب علينا، فى زعمهم ، الاعتقاد بأنه ليس على البروليتاريا فى روسيا كلها النضال أليم ضد أيوريشكيفتيش والكوكوشكينين بل عليها إلا تهتم بهم لتنال ضد الطبقات الرجعية فى بولونيا !!

تلك هى الحماقة المجهولة الإسم التى تنشرها صحيفة دعاة التصفية، الصحيفة التى تعد بين قادتها الفكريين السيدل. مارتوف. هو مارتوف نفسة الذى حرر مشروع البرنامج ودافع عنه فى عام ١٩٠٣، وكتب بعد ذلك ايضا أن مارتوف يفكر اليوم على الطريقة الآتية :

لا ضرورة أبداً للذكاء

أبعدوا " رياد "

"وأنا وسوف أرى ! [١]

وها أنه يبعد رياد - سيموفسكى ويفسح له المجال فى صحيفة يومية، وأمام قرّاء جددلا يعرفون برنامجنا. ليشوه ذلك البرنامج، ويثير الغموض حوله إلى درجة متناهية .

أجل . أجل آت تيار التصفية قد سار شوطا بعيدا : فلم يبق أى أثر للروح الحزبية لدى طائفة من الاشتراكيين الديمـوقراطيين من البارزين منهم.

إن روزا لوكسمبورغ بعيدة بالطبع عن هؤلاء، ولا يمكن وضعها فى صف ليمن ويوركيفتيش وسيموفسكى، ولكن تعلق هؤلاء الناس وحده باذيال خطئها ، يدل بوضوح إلى أى درك من الانتهازية قد أنزلقت.

---

(١) " أراد لينين هنا كلمات أغنية من أغانى جنود سيباستوبول . وهى من ذكريات المعركة التى دارت على نهر تشورنايا الصغير فى ٤ أب عام ١٨٥٥ ، أثناء حرب القرم . ومؤلف الاغنية هوليون تولستوى .

الفهرس

المو ضــو عــات	صفحة
المقدمة .	٣
ستالين .	٧
جوزيف بروزتيتو (الثائر الذى قال : لا)	١٨
ماو .	٣٠
دنج شياويبنج (الأمبراطور الشيوعى) .	٣٤
شى جيفارا .	٤٧
دليل الأسماء .	٦٣
جورباتشوف (راقص الاستربتيز).	٧٣
النظم الاشتراكية .	٨٥
مقالات فى الاشتراكية الفابية.	٩٢
الديمقراطية .	١٠٦
الروح الفوضوية .	١١٩
أراء لينين وسياسته .	١٢٦
رسائل حول التاكتيك .	١٣٢
الرسالة الأولى (تحليل الوضع الراهن).	١٣٤
مهمات البروليتاريا فى ثورتنا .	١٥٠
تنبيه للقارئ .	١٩٢
ملاحظات .	١٩٦

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
حق الشعوب فى تقرير مصيرها .	٢١٣
وضع القضية وضلعا تاريخيا واقعيا .	٢٢١
مميزات القضية القومية الموضوعية فى روسيا وتحول هذا البلد تحويلا ديمقراطيا برجوازيا .	٢٢٦
الناحية العلمية فى القضية القومية .	٢٣٣
البرجوازيون الأحرار والانتهازيون الاشتراكيون وموقفهم.	٢٤١
انفصال النرويج عن السويد .	٢٥٦
قرار المؤتمر الشعبى المنعقد فى لندن عام ١٨٩٦ .	٢٦٥
كارل ماركس الخيالى روزا لوكسمبورغ العملية .	٢٧١
الفهرس .	٢٩٥